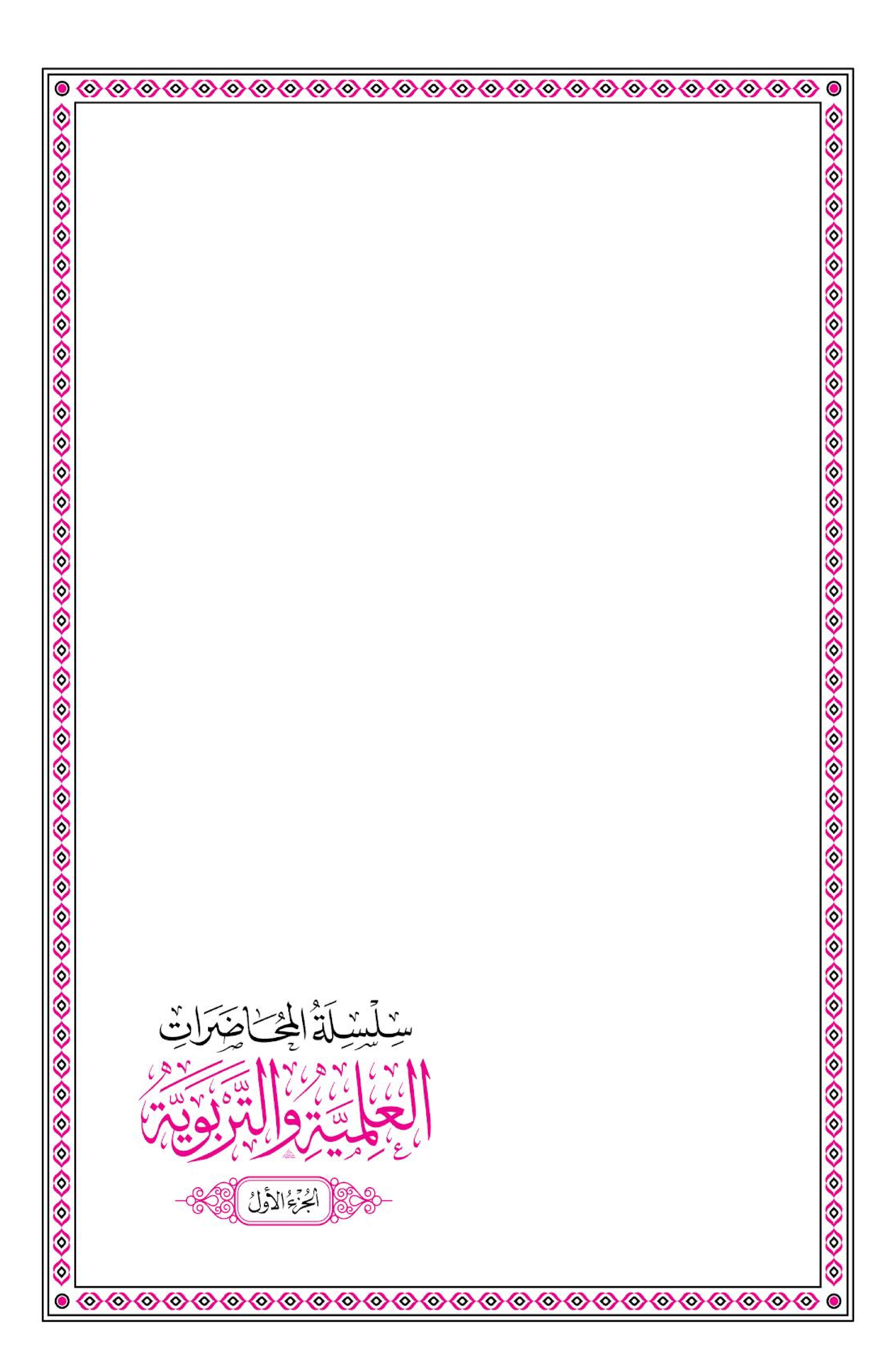
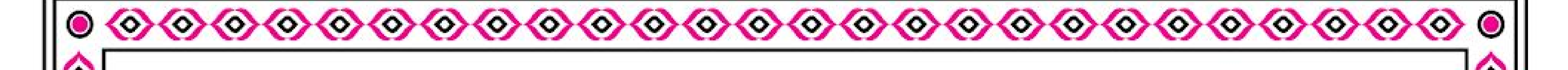

سلسلة المحاضرات
العلمية والتربوية
الجزء الأول





ح مدار الوطن للنشر ، ١٤٣٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخضير ، عبد الكريم عبد الله

سلسلة المحاضرات العلمية والتربوية ./ عبد الكريم عبد الله الخضير ـ الرياض ، ١٤٣٩هـ

٢٥٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ١ ـ ٠٠ ـ ٨٢٤٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١- الإسلام - مقالات ومحاضرات أ - العنوان

ديوي ٢١٠,٨ ١٤٣٩/٤٨٩٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٤٨٩٨
ردمك: ١ ـ ٠٠ ـ ٨٢٤٢ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطَّبْعَةُ الأولَى

١٤٣٩هـ



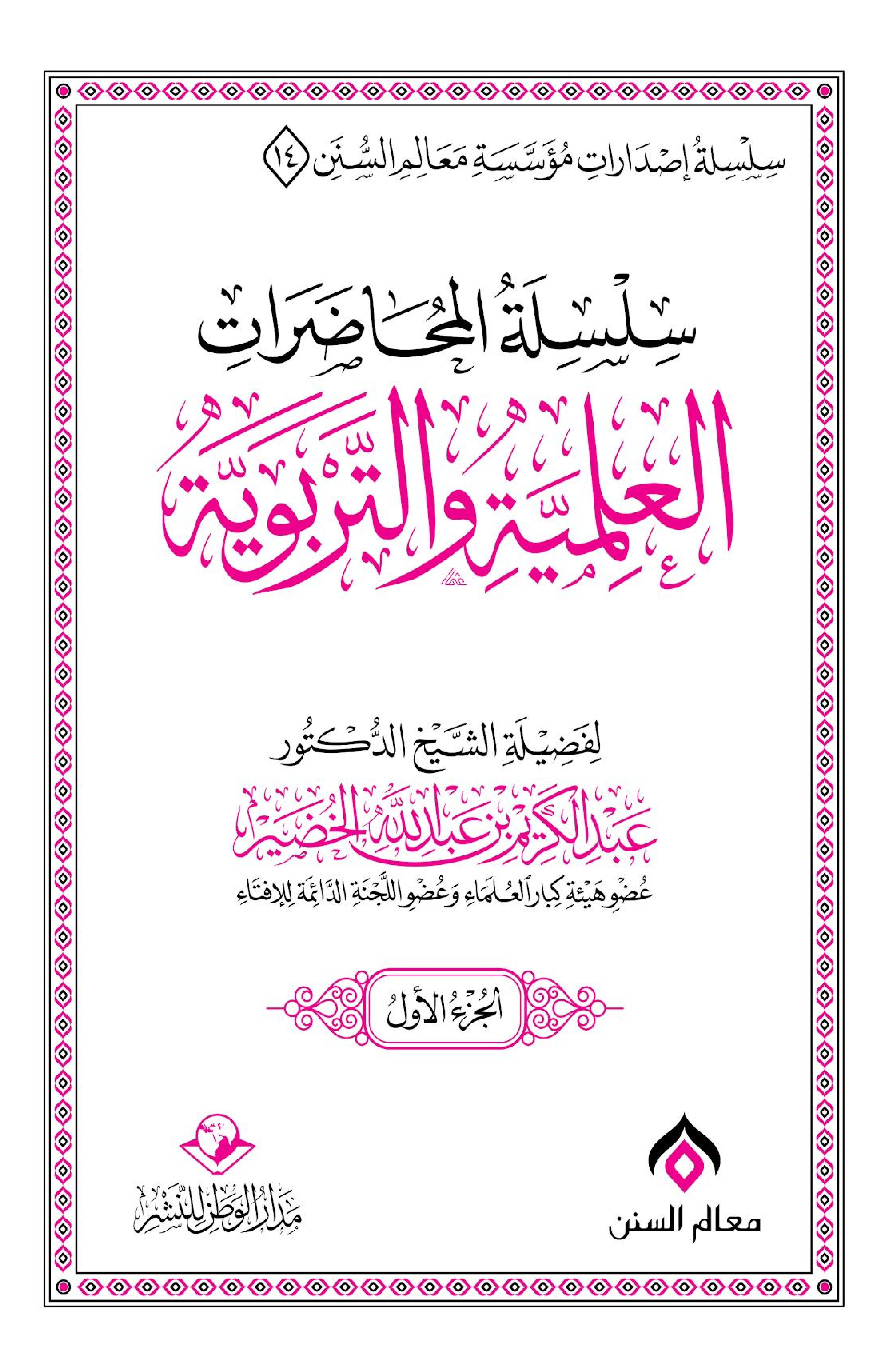
المملكة العربية السعودية - الرياض - حي الجزيرة - شارع طلحة بن عبيد الله - مبنى معالم السنن - هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٤٥٠٤٥٨ - فاكس: تحويلة ١٠٥ - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٧٤٩٥٥٥ - البريد الألكتروني:

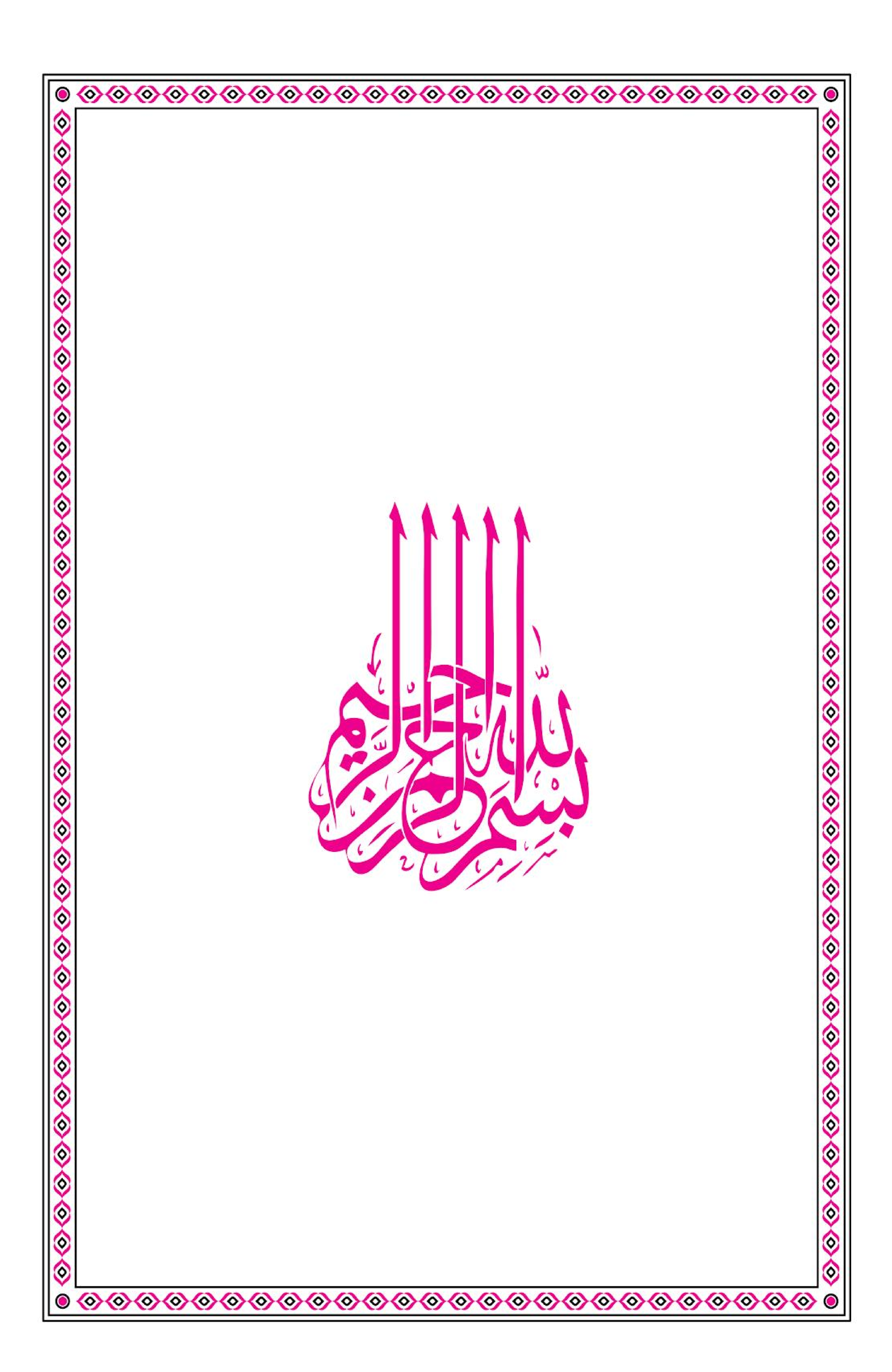
books@malemassunan.com - www.shkhudheir.com



المملكة العربية السعودية - الرياض
المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨
ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) - ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦
فرع مخرج ١٥ مقابل جامع الأحجي - ت: ٠١١٤٤٥٤١٢٤
٠٥٠٣٢٨٢٣١٨

الموقع الإلكتروني | www.madaralwatan.com.sa
البريد الإلكتروني | pop@madaralwatan.com.sa
madaralwatan@hotmail.com


سِلسِلةُ إصداراتِ مُؤسَّسةِ مَعالِمِ السُّنَن (١٤)
سِلسِلةُ المُحاضَراتِ
العِلميَّةِ والتَّربويَّةِ
لفضيلةِ الشَّيخِ الدُّكتور
عبدِ الكريمِ بنِ عبدِ اللهِ الخُضير
عُضو هيئةِ كبارِ العلماءِ وعُضو اللجنةِ الدَّائمةِ للإفتاءِ
الجُزءُ الأوَّل
دار الوطن للنشر
معالم السنن


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن أصل هذا الكتاب دروس ألقيت
على الطلاب وسجلت ثم قام المكتب العلمي
- معالم السنن - بعناية من أمينه العام الشيخ
الدكتور إبراهيم بن محمد الفوزان - بتفريغ المادة
العلمية ومراجعتها من قبل كبار الطلاب المختصين
ولم يقصد التأليف والنشر من الأصل الذي
تكون فيه المادة محررة من المصادر بحروفها ولعل
المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات
عليه وتلافيها والله ولي التوفيق وصلى الله وسلم
على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عبد الكريم الخضير عفا الله عنه

تقديم فضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أصل هذا الكتاب دروس ألقيت على الطلاب وسجِّلت، ثم قام المكتب العلمي -معالم السُّنن- بعناية من أمينه العام الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الفوزان بتفريغ المادة العلمية ومراجعتها من قِبَل كبار الطلاب المختصِّين، ولم يُقصد التأليف والنشر من الأصل الذي تكون فيه المادة محررةً من المصادر بحروفها، ولعل المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات عليه وتلافيها، والله وليُّ التوفيق، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عفا الله عنه

كلمة مؤسسة معالم السنن

الحمد لله الذي رفع بالعلم أهله واجتباهم، وأورثهم علم الكتاب وبه اصطفاهم، وصلَّى الله وسلم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه من مبدئهم إلى منتهاهم، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين واقتفاهم.

أما بعد:

فإن ممَّا لا يخفى على أحدٍ ما للعلماء من منزلة عليَّة، ومكانة سنيَّة، فهم ورثة الأنبياء، ونجوم السَّماء، وزينة الدُّنيا، وبِهم قوام الدِّين، روى أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لَتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ»**.

ومن العلماء الذين بذلوا وقتهم في تعليم العلم ونشْرِه فضيلةُ الشيخ العلامة عبد الكريم بن عبد الله الخضير -حفظه الله ومتَّع به-، والذي عرفه أهل العلم وطلبته بالتفنن والاتساع، وجودة التحقيق، وسعة الاطلاع.

وقد وفَّق اللهُ الشيخَ منذ زمن طويل للتصدي لشرح كتب أهل العلم في مختلف الفنون والتعليق عليها، فشرحها بشروح جامعة نافعة، أثراها سعة اطلاع الشيخ ومعرفته بمكنونات الكتب -لا سيما المطولات منها-، واختلاف طبعاتها؛ مما جعل لهذه الشروح رواجًا بين طلاب العلم، على اختلاف مستوياتهم.

كما هيَّأ الله مؤسسةَ معالم السنن لخدمة علم الشيخ ونشره، منذ تأسيسها عام ١٤٣٣؛ بشتى الطرق المتاحة، وها هي -بفضل الله- تبشر طلاب العلم ومحبيه، بطباعة كتاب: (سلسلة المحاضرات العلمية والتربوية).

ومما يحسن التَّنبيه عليه أن هذا الكتاب ليس مؤلفًا للشيخ، وإنَّما إلقاء صوتيٌّ، تمَّ تفريغه، وجمعه، وترتيبه، وخدمته خدمة علميَّة بعد إذن الشيخ بذلك. ونظرًا للصعوبة البالغة في تحويل النتاج الصوتيِّ إلى قالب الكتب المطبوعة، ولاستشعار المؤسسة المسؤوليةَ المنوطةَ بها، وطلبًا للإتقان دون تكلُّفٍ، رسمت المؤسَّسة لنفسها خطة مجوَّدة -أقرها الشيخ حفظه الله-؛ لتخرج كتبُهُ بجودةٍ عاليةٍ، تُرضي -بإذن الله- طلَّاب العلم ومحبيه. وقد كانت مراحل العمل وفق الآتي:

الأولى: صفُّ المفرَّغ من التسجيل الصوتي ومطابقته.

الثانية: العمل على ترتيب المادة بما يتناسب مع الكتاب، مع عدم التصرف في كلام الشَّيخ. وعند وجود ما يشكل من المسائل يعرض على الشيخ -حفظه الله.-

الثالثة: تخريج الأحاديث والآثار، وعزو الأقوال والمذاهب إلى أصحابها، والخدمة العلمية للكتاب.

الرابعة: المراجعة اللغوية للكتاب والتأكُّد من سلامة النص من الأخطاء النحوية والإملائية التي قد تحدث أثناء العمل.

الخامسة: مراجعة الكتاب من قبل متخصص؛ للتَّأكُّد من سلامة المادة العلميَّة بعد العمل عليها من قبل الباحثين .

السادسة: إجازة الكتاب للطِّباعة من قبل مستشاري المؤسَّسة العلميين.

وفي هذا المقام البهيج لطباعة هذا الكتاب، نشكر الشَّيخ -حفظه الله- على ما قدَّمه ولا يزال يقدِّمه لطلاب العلم، أعظم الله له المثوبة والأجر، وبارك في علمه وعمله وعمره، ونفع بعلمه الإسلام والمسلمين. ونثَنِّيه بالشكر لفريق العمل في مؤسسة معالم السنن على الجهد الكبير الذي بذلوه لإخراج الكتاب، ونثلِّثه بشكر المستشارين العلميين في المؤسَّسة، والمراجعين المختصِّين، وكلِّ منْ ساهم وشارك في إخراج الكتاب. فجزاهم الله خيرًا وبارك في أعمالهم.

والشكر موصول لأوقاف الشيخ محمد بن عبد العزيز الراجحي على حرصها على نشر العلم الشرعي بدعم طباعة هذا الكتاب.

ونسأل الله تعالى التَّوفيق والسداد، وندعو كافَّة أهل العلم وطلَّابه حيثما كانوا إلى مدِّ يد النَّصيحة، والمسارعة بإبداء الملاحظات والاقتراحات على ما قد يقع من أخطاء فيما طُبِع ويُطبَع من شروح الشَّيخ، فالمرء كثير بإخوانه، والله المسؤول أن يباركَ في الجهود ويتقبَّلها.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



نعمة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

نعمة التوحيد

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ أهم الموضوعات على الإطلاق، ورأس المال الحقيقي، توحيد الله جَلَّ وَعَلَا وإفراده في أفعاله جَلَّ وَعَلَا المعبَّر عنه بتوحيد الربوبية، وإفراده بأفعال الخلق التي من أجلها خلق الإنس والجنُّ، وهو: توحيد العبادة، وإفراده بما وصف به نفسه جَلَّ وَعَلَا، وما وصفه به رسوله ﷺ، المعبَّر عنه بتوحيد الأسماء والصفات.

ولأهمية هذا الموضوع كُتِبَ عنه كثيرًا، وأُلِّفتْ فيه الكتب المفردة بهذا العنوان: (التوحيد)، ولسلف هذه الأمة نصيب وافر من ذلك، ولأصحاب الجوامع من كتب السنة أيضًا عناية فائقة بهذا الباب.

فالإمام البخاري -مثلًا- افتتح صحيحه بكتاب الإيمان، وختمه بكتاب التوحيد؛ ليكون المعتني بصحيحه بين هذين الكتابين، بحيث لا ينساهما إذا طال به العهد، ومرَّ على أبواب الدين كلِّها؛ لأنه قد ينسى ما كُتِب في أول الكتاب، فيذكره الإمام بما سطره في آخر الصحيح من أبواب التوحيد، التي جلُّها في توحيد الأسماء والصفات الذي شاع إنكاره من قِبَلِ المبتدعة في عصره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أما عنوان الرسالة: (نعمة التوحيد) فمركَّب من مضاف ومضاف إليه، وتصوُّر هذا العنوان يحصل بمعرفة جزئي المركب. فما النعمة؟ وما التوحيد؟

إن النعمة لا يختلف أحد في معرفتها، ولو سألت أي شخص مهما كانت ثقافته وجدتَه يعرف النعمة، بخلاف ما لو سألته عن التوحيد عرَّفه لك على حسب ما تلقاه عن شيوخه ومن يقتدي بهم، ولذا اختُلِفَ في تعريف التوحيد اختلافًا متباينًا، فأهل السنة يتفقون على تعريفٍ دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وأما أهل البدع فكل له تعريفه الذي يختص به، ولذا تجد بعض المبتدعة يزعم أنه موحِّد وهو يطوف على القبر، بينما من هذه حاله -كما قرر أئمة الدعوة- أبو جهل أعرف منه بالتوحيد، وبمعنى لا إله إلا الله[(١)].

أما النعمة فقد جاء في «لسان العرب»: «النعيم والنعمى والنعماء والنعمة، كله: الخفض والدعة والمال، وهو ضد البأساء والبؤسى، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١]، يعني: في هذا الموضع حجج الله الدالة على أمر النبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، أي: تُسألون يوم القيامة عن كل ما استمتعتم به في الدنيا. وجمع النعمة نعم وأنعم كشدة وأشد، حكاه سيبويه، وقال النابغة:

فلــن أذكــر الــنعمان إلا بصــالح ** فــإن لــه عنــدي يُــدِيًّا وأَنْعُــما

والنُّعْم، بالضم: خلاف البُؤس، يقال: يوم نُعْمٌ ويوم بؤْس، وَالجَمْع أَنْعُم وأبْؤُس»[(٢)].

ثم قال بعد ذلك: «والنعمة: اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنة وما أُنْعِمَ

---

(١) ينظر: كشف الشبهات ص٨ وما بعدها.

(٢) لسان العرب ١٢/ ٥٧٩.

به عليك، ونعمة الله بكسر النون: مَنُّه، وما أعطاه الله العبدَ مما لا يمكن غيرُه أن يعطيه إياه كالسمع والبصر، والجمع منهما نِعَمٌ وأَنْعُمٌ»[(١)].

مفهوم هذا التقرير أنه ما يمكن أن يناله الإنسان من غيره فإنه لا يسمى نعمةَ الله، إنما قصر نعمة الله على ما يُعطاه الإنسان مما لا يمكن لغير الله أن يعطيه إياه.

وقد تنسب النعمة إلى الإنسان باعتبار أنه المباشر لها، لكن البشر وإن كانوا يستطيعون أن ينفعوا غيرهم، وينعموا عليهم بما زاد في أيديهم عن حاجتهم إلا أن المعطي في الحقيقة هو الله جَلَّ وَعَلَا، وإن كانت على يد أحد من البشر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فأنتَ يا محمد من باشرت المنَّة على زيد بالعتق، وإلا فالمعتق هو الله جَلَّ وَعَلَا، ولذا كان النبي ﷺ يقوله بالنسبة للعلم والتعليم: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي»[(٢)]، ومعناه: أن النبي ﷺ يَقسم ويعدل في القسم، ويلقي ما عنده من علم على الصحابة على حد سواء، لكن الله جَلَّ وَعَلَا هو المعطي يمنح هذا ويمنع ذاك.

والنعمة تكون ظاهرة وباطنة، يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «النِّعمة الظاهرة: الإسلام، والنعمة الباطنة: كل ما سُتر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود»[(٣)].

فالنعمة الظاهرة الإسلام، وهي الأمور العملية التي تُشاهد، والباطنة ستر

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٥٨٠.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٥٢٦.

الذنوب، وهذا من التفسير بالمثال ولا يراد به الحصر، وإلا فكم لله جَلَّ وَعَلَا من نعم ظاهرة وباطنة؟!

وكثير من النعم التي يتمتع بها الناس إما أن تكون في حقه نعمة أو نقمة، فالسمع والبصر وغيرها من أعظم نعم الله على المخلوقين، ومع ذلك قد تكون من أعظم النقم عليهم إذا لم تُستغَل فيما يرضي الله جَلَّ وَعَلَا، والمال نعمة أيضًا إذا استغل في أوجه صرف معتبرة، وكان مكسوبًا من وجوه الحلال، قال ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»(١)، وإلا فهو نقمة على صاحبه.

الجزء الثاني من جزئي العنوان المركَّب: التوحيد، وهو مصدر: وحَّد، يقول ابن منظور(٢): «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد، ابن سِيدَه(٣): والله الأوحد والمتوحد وذو الوحدانية، ومن صفاته الواحد الأحد، قال أبو منصور(٤) وغيره: الفرق بينهما -أي: بين الواحد والأحد-: أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، وابن حبان (٣٢١٠)، من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هو: محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري، جمال الدين أبو الفضل، صاحب لسان العرب في اللغة، كان عارفًا بالنحو واللغة والتاريخ، توفي سنة ٧١١ هـ، ينظر: بغية الوعاة ١/ ٢٤٨.

(٣) هو: علي بن إسماعيل بن سيده، أبو الحسن الضرير، وكان أبوه ضريرًا أيضًا، من أئمة العربية، من مصنفاته: «المحكم والمحيط الأعظم» و«المخصص»، توفي سنة ٤٥٨ هـ، ينظر: معجم الأدباء ٤/ ١٦٤٨، البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص٢٠٣.

(٤) هو: محمد بن أحمد بن طلحة، أبو منصور الأزهري اللغوي الهروي، إمام جليل، جمع فنون الأدب وحشرها، ورفع راية العربية ونشرها، من مصنفاته: «التهذيب في اللغة»، «معرفة الصبح»، توفي سنة ٣٧٠ هـ، ينظر: معجم الأدباء ٥/ ٢٣٢١، البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص٢٥٣.

والواحد اسم بني لمفتتح العدد، تقول: ما جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى -فلكل واحد منهما ما يخصه-... ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عَزَّوَجَلَّ»[١].

وثعلب[٢] -وهو من أئمة اللغة الثقات- حين سئل عن الآحاد: أهي جمع الأحد؟ قال: معاذ الله، ليس للأحد جمع، ولكن إن جعلتَه جمع الواحد، فهو محتمل مثل شاهد وأشهاد[٣].

لكن هل (أحد) من الأسماء التي يختص بها الله جَلَّوَعَلَا أو من الأسماء المشتركة مثل: الكريم، الرحيم؟

ويقال في التفريق بينهما: الأسماء المشتركة بين الخالق والمخلوق يجوز جمعها كالرحيم والكريم، قال ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**»[٤]، وأما الأسماء التي يختص بها الله جَلَّوَعَلَا كـ(الله)، و(الرحمن) فلا يجوز جمعها.

واسم الله (الأحد) مشترك، يطلق على الله جَلَّوَعَلَا، ويطلق على اليوم الذي يلي السبت، يقال: في الشهر أربعة آحاد، وعليه فلا مانع من الجمع، وأما ثعلب فقد أكَّد وأصر على أنه لا يمكن جمع أحد، وهو في هذا نَظَرَ إلى اللفظة باعتبارها

---

(١) لسان العرب ٣/ ٤٥٠.

(٢) هو: أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، إمام الكوفيين في النحو واللغة والثقة والديانة، من مصنفاته: «معاني القرآن»، «اختلاف النحويين»، «الفصيح»، توفي سنة ٢٩١ هـ، ينظر: معجم الأدباء ٢/ ٥٣٦، بغية الوعاة ١/ ٣٩٦.

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري ٥/ ١٢٦، لسان العرب ٣/ ٤٤٨.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، الترمذي (١٩٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٦٤٩٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

اسمًا من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا، وإن كان الجمع في استعمال أهل العلم واردًا.

قال الأزهري: «والواحد من صفة الله معناه: أنه لا ثاني له، ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد -كما لو قيل لك: كم عندك من بيت؟ تقول: واحد-، فأما أحد فلا يوصف به غير الله تعالى؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له -جل ثناؤه-، وتقول: أَحَّدتُ الله تعالى، ووحدته وهو الواحد الأحد»(١).

كلام الأزهري يؤيد كلام ثعلب الآنف، من أنه لا ينعت بـ(أحد) غير الله جَلَّ وَعَلَا، لكن ماذا عما جاءت به النصوص الصحيحة بلفظ الأحد، والمراد به اليوم الذي يلي السبت، فهل يَرِدُ عليهم مثل هذا؟

جاء عن النبي ﷺ أنَّه قال لرجلٍ(٢) يدعو بِإِصْبَعَيْهِ: «**أَحِّدْ أَحِّدْ**»(٣).

وهذا الصحابي كأنه في التشهد لما قال: أشهد أن لا إله إلا الله أشار بإصبعيه كلتيهما، فقال له النبي ﷺ: (**أَحِّدْ أَحِّدْ**)، أي: أشر بالسبابة اليمنى فقط، لتشير بذلك إلى أن المعبود والمذكور واحد، وهو الله جَلَّ وَعَلَا.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في آخر شرح كتاب التوحيد: «وقال أبو القاسم التميمي في كتاب الحجة: التوحيد مصدر وحَّد يوحِّد ومعنى وحَّدت الله

---

(١) تهذيب اللغة ٥/ ١٢٨.

(٢) جاء في بعض روايات الحديث إبهام هذا الصحابي، وجاء التصريح باسمه في روايات أخرى، وهو سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينظر: «الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة» للخطيب البغدادي ص٩٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٧٣٩)، وأبو داود (١٤٩٩)، والترمذي (٣٥٥٧)، والنسائي (١٢٧٢)، والحاكم (١٩٦٥)، وصححه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب، ومعنى هذا الحديث إذا أشار الرجل بِإِصْبَعَيْهِ في الدعاء عند الشهادة لا يشير إلا بإصبع واحدة».

اعتقدته منفردًا بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيه، وقيل: معنى وحدته علمته واحدًا، وقيل: سلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد في ذاته لا انقسام له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وفي إلهيته وملكه وتدبيره لا شريك له، ولا رب سواه، ولا خالق غيره»(١).

إذا علم هذا فالتوحيد: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقد اجتمعت أنواع التوحيد الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]:

- فقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا توحيد الربوبية.
- وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ هذا توحيد الألوهية.
- وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات.

فهذه الآية تشير إلى أنواع التوحيد الثلاثة التي حصر أهل العلم التوحيد فيها بطريق الاستقراء.

والبعض يضيف توحيد المتابعة، وهو: كمال التسليم والانقياد لما جاء به النبي ﷺ والتصديق لما أخبر، لكن هل هذا مما يتعلق بالله جَلَّ وَعَلَا؟

لا ريب أن العبد عليه أن يوحد متابعته للنبي ﷺ، فلا قدوة ولا أسوة لنا في غيره، لكن توحيده وطاعته تابعة لتوحيد الله جَلَّ وَعَلَا وطاعته.

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٤٤-٣٤٥).

والتوحيد هو الغاية من خلق الجن والإنس، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالجن والإنس خُلقوا لغاية لا بد من تحقيقها، وهي: العبودية لله جَلَّوَعَلَا، فينبغي أن يكون هذا الهدف نصب عيني المسلم، وأن كلَّ ما يسعى وراءه وليس له تعلُّقٌ بهذا الهدف أو لا يعين على تحقيقه هباء، ولذلك عرف سلف هذه الأمة هذه الغاية وعملوا من أجلها، ولم يلتفتوا إلى غيرها إلا بقدر ما يتحقق به هذا الهدف، ولذا يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]، لكن المسلم اليوم بحاجة إلى أن يُذكَّر بألا ينسى نصيبه من الآخرة، فالدنيا ليست غايةً ومستقرًا، وإنما هي ممرٌّ ومزرعة للدار الآخرة.

ومع الأسف إذا نظرنا إلى حال المسلمين اليوم في كثير من الأقطار وجدنا انهماك البعض بالدنيا، سواء ظهر ذلك بلسان المقال أم بلسان الحال، فتجد أن كثيرًا من الناس هدفه وغايته الدنيا، ثم بعد ذلك إن بقي شيء من وقته التفت إلى العبادات التي ألفها فأتى بها على وجهٍ الله أعلم به.

ولا أدل على ذلك من حال المسلمين بعد أن فتح لهم من أنواع التجارة التي لا تكلفهم شيئًا كبيرًا من الجهد، وانصرف إليها جُلُّ الناس من رجال ونساء، ألا وهي تجارة الأسهم، حيث انصرف الناس إليها وقتها انصرافًا كليًّا فأثَّر ذلك على حلقات التعليم، وعلى أعمال الناس التي استؤجروا واستؤمنوا عليها، فتجد الموظف وهو في وظيفته ينشغل ببيع تلك الأسهم وشرائها، وهناك من تعامل بهذه التجارة فعطل أعماله، وأهمل أسرته، وضيق على نفسه. وكذلك هي ألهت الناس عن عباداتهم، حتى إنَّ المصلي تجده لا يعقل من صلاته إلا القليل النادر.

وهذا الحكم في الغالب وإلا فيوجد من تعامل بهذه المعاملات ولم تؤثر فيه تأثيرًا سلبيًّا.

♦ آثار التوحيد على العبد في الدارين

الأول: تحقيق التوحيد يمنع الخلود في النار ولو كان في القلب منه أدنى مثقال حبة من خردل؛ لما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا أو الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبَّة في جانب السيل، ألم ترَ أنها تخرج صفراء ملتوية**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا، رجل يخرج من النار كبوًا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها**»[2].

هذا الخروج لمن كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، أما من فقد الإيمان بالكلية -نسأل الله السلامة والعافية- ففي العذاب الأبدي السرمدي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (٤٧٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما من حقَّق التوحيد وامتلأ قلبه منه وأخلص لله تعالى فهذا يمنعه من دخول النار بالكلية، كما جاء ذلك في حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين وغيرهما قال: «**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»(١).

الثاني: تحقيق التوحيد سبب لحصول الأمن التام في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ومفهوم الآية أن الذين لبسوا إيمانهم بظلم لا يحصل لهم الأمن، وليسوا بمهتدين. وهذه الآية لما نزلت قال أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣](٢)، فبين أن المراد بالظلم هنا الشرك، لا كما تبادر إلى أذهان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه أي ظلمٍ الذي لا يسلم منه إلا من رحم الله، مع أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا حرَّمه على نفسه، وجعله بين الناس محرمًا، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»(٣).

وكذلك مما ورد في هذا المعنى قوله جَلَّ وَعَلَا في سورة النور: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥]، ومعنى العبادة هنا: التوحيد، بدليل المقابل ﴿ لَا يُشْرِكُونَ بِى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (١٥٢٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وأحمد (٢١٤٢٠)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شَيْـًٔا﴾. وأما الدين الذي ارتضاه الله لنا فهو الإسلام: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وعلى هذا فالمشرك لا تحصل له هذه الخصال.

فلماذا البحثُ مع الجادة عن وسائل تحقيق الأمن والغفلُ عن مثل هذه التوجيهات الإلهية؟! فلماذا لا نعتني بالتوحيد، ونحارب الشرك بجميع مظاهره؛ ليتحقق لنا هذا الوعد بالأمن؟ فلا أمن إلا بتحقيق التوحيد، ولا أمن إلا بنبذ الشرك، وهذه هي النعمة العظمى التي يتقلب بها مَن منَّ الله عليه بتحقيق التوحيد وتخليصه وتنقيته من شوائب الشرك والبدع.

فإذا كان الربح العظيم في الدنيا والآخرة بتحقيق التوحيد، فَفقدُ التوحيد هو الخسارة الحقيقية، خسارة الدنيا والآخرة، ولا توجد في الدنيا خسارة تعادل هذه الخسارة؛ لأن الدنيا كلها غير مأسوف عليها، عند من يعرف حقيقة الدنيا والآخرة، فمن عرف حقيقة الدنيا وأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة(١) يعرف أن الخسارة الحقيقية التي لا تعوَّض هي خسارة النفس والأهل يوم القيامة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

(١) إشارة إلى حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضةٍ، ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا»، أخرجه الترمذي (٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك (٧٨٤٧).

فهذا سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما جاءه الواسطة من ابن الخليفة يخطب ابنته، قال له: يا سعيد، جاءتك الدنيا بحذافيرها -ولك يا عبد الله تصور لو أنَّ ابن الخليفة أو ابن الملك جاء يخطب ابنتك- قال سعيد: «إذا كانت الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، فماذا ترى أن يقص لي من هذا الجناح؟»[(١)].

هذا حال السلف مع ما يمكن أن يحصل لهم من منافع الدنيا ولذَّاتها، وأما اليوم فوصل الأمر ببعضهم إلى أنه لو قيل له: ذكرك المِلك فلان أو الأمير فلان البارحة وأثنى عليك خيرًا، ربما بعدها يمر عليه أسبوع لا ينام، مع أنه لم يقدم له شيئًا، وما يستطيع أن يقدم له شيئًا، وفي المقابل لو التفت إلى ربه وذكره، ذكره الله: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم**»[(٢)]، ونحن نغفل عن هذه الحقائق، وإذا جلسنا في المجالس عمرناها بالقيل والقال وذكر أخبار الصحائف والقنوات، ونسهر الساعات الطويلة على هذا، ومن المشاهد أن من انشغل بالقيل والقال وعمر وقته بها، إذا أراد أن يتعبد في المتبقي من الليل ثقلت عليه العبادة، وتجده لا يعان على ذلك، لكن لو كان وقته معمورًا بذكر الله صارت العبادة هي جنته، والله المستعان.

فالخسارة والكارثة الحقيقة هي خسارة الدين.

---

(١) ينظر: حلية الأولياء ٢/١٦٨، سير أعلام النبلاء ٤/٢٣٣، وفيهما: «قال أبو بكر بن أبي داود: كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد، فأبى عليه، فلم يزل يحتال عبد الملك عليه حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد، وصبَّ عليه جرة ماء، وألبسه جبة صوف».

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وكل كسرٍ فإنَّ الدين يجبره ** وما لكسر قناة الدين جبرانُ[(١)]

فكسر الدين لا يجبره شيء، بخلاف أي كسر في الدنيا فهو ينجبر.

ولذا بعض العلماء -وهو معروف من مذهب المالكية[(٢)]- يرى أنَّه لا شيء في الدنيا اسمه: غبن[(٣)]، وإنما الغبن يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] فالدنيا كلها لا تساوي شيئًا، فليس هناك ما اسمه: خيار الغبن -عند بعضهم-، ولكن أكثر أهل العلم يرى حصول خيار الغبن، فإذا بعت سلعة وفيها نقص من قيمتها فإنَّ الخيار يثبت.

الثالث: تحقيق التوحيد يتوقف عليه قبول جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهذا قيل للرسول ﷺ، فكيف بغيره؟

فلحفظ الأعمال وتضاعف أجرها لا بد من تحقيق التوحيد، وكلَّما قوي التوحيد والإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا كملت جميع الأعمال الصالحة وتمَّت، والطاعات تخف على المخلص في إيمانه وتوحيده، وقال النبي ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنة:

(١) هذا بيت رقم (٦١) من قصيدة لأبي الفتح البستي بعنوان: «عنوان الحكم»، وقد طبعت بتحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الخامسة.

(٢) هذا المشهور من مذهب المالكية إذا لم يكن الغبن فاحشًا ولم يكن المغبون جاهلًا بالقيمة إلا في بيع المكايسة فلا يثبت أبدًا، ينظر: التاج والإكليل لمختصر خليل ٦/٣٩٥، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل ٤/٤٧٢، منح الجليل شرح مختصر خليل ٥/٢١٦.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي ١٨/١٣٨.

«أعِنِّي على نفسك بكثرة السجود»(١).

والرسول ﷺ القدوة العظمى في مثل هذا، فقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه(٢)، وذلك لقوة إيمانه ﷺ وإخلاصه وتوحيد قصده إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد ورد في أخبار سلف هذه الأمة من يصلي في اليوم والليلة مئات الركعات، فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حُفظ عنه أنه كان يصلي ثلاث مائة ركعة في يوم وليلة(٣)، فكيف خفت عليه هذه العبادة؟!

ما ذاك إلا للتوحيد والإخلاص في الإيمان، ولما يرجوه العبد من الثواب، فيهون عليه ترك المعاصي لما يخشى من سخط الله وعقابه، ويخف عليه عمل الطاعات، ويعينه الله جَلَّ وَعَلَا على تحقيق ما يريد من أمور الدين والدنيا.

وعن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «صليتُ مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ، ثم ركع، فجعل يقول: «**سبحان ربي العظيم**»، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد، فقال: «**سبحان ربي الأعلى**»، فكان

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩)، وأبو داود (١٣٢٠)، والنسائي (١١٣٦)، من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨٩١)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) ينظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص٣٨٢.

سجوده قريبًا من قيامه»[١].

فمن يطيق الصلاة على هذا الوجه وعلى هذه الطريقة؟! وقراءة أكثر من خمسة أجزاء على الوجه المأمور به لا تقل عن ساعتين.

وللعلم فإنِّه لم يُحفظ عنه ﷺ أنَّه قام ليلة كاملة إلا ما ذكر في العشر الأواخر من رمضان أنه إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[٢]، وأما ما عدا ذلك فهو يقوم وينام ﷺ.

والقوة في أداء الطاعة لا تُقرن بقوة البدن أبدًا، فلا علاقة بين الطاعة وبين قوة البدن وضعفه، ولذا تجد الشاب في الثلاثين من عمره عنده استعداد أن يحمل مائتي كيلو ويجري بها، لكن إذا صفَّ خلف الإمام الذي لا تتجاوز قراءته عشر آيات تجده يراوح بين قدميه، وعليه فلا ارتباط لقوة البدن مع تحمل هذه العبادات الطويلة، إنما علاقة هذه العبادات بالقلب السليم، فالقلب هو الذي يحمل البدن، فهناك نماذج لهذا، منها أن شيخًا كبيرًا يعتمد على عصاه وقد جاوز المائة كان يصلي التهجد خلف إمام يقرأ في كل تسليمة جزءًا من القرآن، ولما خفَّف الإمام في التسليمة الأخيرة؛ لأنه سمع مؤذن الأذان الأول -وسماع المؤذن معناه أن المسجد انتهى من صلاة التهجد-، وسلم من صلاته بادره هذا الشيخ الكبير يوبخه ويؤنبه، ويقول: لما جاء وقت اللزوم -يريد أهم الأوقات: ثلث الليل الأخير- خفَّفت.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢)، وأبو داود (٨٧١) والترمذي (٢٦٢)، والنسائي (١٦٦٤)، وابن ماجه (١٣٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي المقابل شخص كبير زاد على الثمانين يصلي وهو جالس على مدى عشر سنوات أو أكثر، لما جاء يوم العيد، وجاءت العرضة قام أكثر من ساعة يعرض السيف بيده. وهذا كله تصديق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

وكذا تجد المساجد التي عرف أئمتها بالتخفيف وحسن الصوت تمتلئ بالمصلين، كثير من الناس من هم بحاجة إلى ما يعينهم، لكن ليس إلى الحد الذي يعدُّ من التلاعب بالقرآن، حتى وصل الأمر ببعضٍ أنه يسأل عن آية الدين هل يمكن تقسمها -لأنها طويلة- أو لا؟ ولا ريب أنَّ الإمام مطالبٌ بالتخفيف وبمراعاة المأمومين، لكن في الأوقات الفاضلة كالتهجد في العشر الأواخر من رمضان عليه أن يستغلَّ هذا الظرف المبارك فإنه لا يعوَّض.

الرابع: تحقيق التوحيد يخفِّف على العبد المصائب والمكاره، والإيمان بالقضاء والقدر حلوه ومره، خيره وشره ركن من أركان الإيمان، الذي لا يصح إلا به، فبحسب تكميل العبدِ التوحيدَ والإيمان يكون تلقيه للمصائب والمكاره والآلام، فتصادم قلبًا منشرحًا ونفسًا مطمئنة في حق من كمَّل توحيده، ولأنه كلما عظمت المصيبة وعظم الألم زاد الأجر، وهذا مثل تُجَّار الدنيا، تجد أحدهم يتعب الليل والنهار ويتحمل المشاكل والمصاعب في سبيل تجارته من أجل أن يكثِّر كسبه، حتى ذُكِرَ أن بعض كبار التُّجار يسهرون في شركات الأسهم أمام الشاشات الليل كله، يراقبون المعاملات ارتفاعًا وانخفاضًا، يتناولون -وهم على هذه الحال- أدوية مرض السكر والضغط، فهل هذا أسهل أو صلاة ركعتين في جوف الليل؟ لكن مثل هذه الأعمال لا تتيسر إلا لِذي صبر: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

لو نظرنا بالمقاييس الدنيوية لقلنا: إنَّ صاحب الحظ العظيم هو من جمع الأموال الطائلة، لكن الحقيقة أنَّه يموتُ ويتركها ليقتسمها الورثة، فلهم الغُنْم، وعليه الغُرم والحساب.

♦ حريةُ الموحِّد ورقُّ المشرك

الموحِّد حر من رق العباد، والتعلُّقِ بهم، وخوفهم، ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف الغالي، فيكون بذلك متألهًا متعبدًا لله، فلا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وبذلك يتم فلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة، فالإنسان حينما يكون رجاؤه معلقًا بمخلوق تصبح حياته دائمًا في خوف ووجل من هذا المخلوق أن يطلع على شيء منه لا يرضاه.

وما أروع المثل الذي ضربه الله جَلَّ وَعَلَا للموحد والمشرك، وأمثال القرآن من أولى ما يُعْنى به طالبُ العلم ووصف الله الأمثال التي يضربها للناس بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وبالمثال يتضح المقال-، والمثل الذي ضربه الله للموحد والمشرك هو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فالرجل الأول مملوك لأشخاص، و ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أي: سيئو الأخلاق؛ يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة، أحدهم يأمره، والآخر ينهاه، فلا يزال متحيرًا متوجِّع القلب لا يدري أيهم يرضي بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجته؟

وأما المملوك الآخر فسلم لرجل، أي: خلص ملكه له فلا يتجه إلا إلى جهة مولاه، ولا يسير إلا لخدمته، فهمه واحد وقلبه مجتمع، هل يستوي هذان المملوكان صفة وحالًا؟

وهكذا حال من يثبت آلهة شتى لا يزال متحيرًا خائفًا لا يدري أيهم يعبد، وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وحال من لا يعبد إلا إلهًا واحدًا، أن يكون همُّه ومقصده واحدًا، ويكون ناعم البال، خافض العيش والحال.

والمقصود أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة، ودرء الفرقة، كما قال جَلَّ وَعَلَا عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ثم ختم الله المثل بالحمد لنفسه فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. يقول أبو السعود في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحِّدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى، وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته، أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عَزَّ وَجَلَّ مستوجب لحمده وعبادته»(١).

وأنت إذا تصورت وتأملت هذا المثل، وكنت ممن منَّ الله عليه بالتوحيد، لم تملك نفسك حتى تقول: «الحمد لله»، وإذا كان في مصائب الدنيا يُنْدب أن يقال:

(١) إرشاد العقل السليم ٧/٢٥٣.

«الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به»[١]، فكيف بالمصيبة والكارثة العظمى التي هي الشرك؟!

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول أبو السعود: «إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس -وهم المشركون- لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال»[٢].

فالموحد في توحيده للوجهة إلى الله جَلَّ وَعَلَا مطمئن، مرتاح البال، والمشرك في صراع نفسي دائم، وفيه نزاع واضطراب شديد، وهو لا يعلم هذه الحقيقة مع أنه يعيشها، بخلاف الموحد فهو يعرف هذه الراحة التامة من نفسه، وبقدر الخلل عنده تتزعزع هذه النعمة، ولذا نسمع في بعض أوساط المسلمين من ينتحر للتخلص من الحياة؛ وذلك لأن في توحيده خللًا، الذي دعاه إلى مثل هذا العمل ليتخلص من هذا الشقاء الذي يعيشه، إذ لو كانت المسألة خللًا في أمور دنيا لهان الأمر، فإن الدنيا بحذافيرها لا تعدل شيئًا، وسيتجاوز المحن، فلا بد أن يضع المبتلى بمثل هذا الخلل في توحيده: الدنيا في كفة، والآخرة في كفة.

وهنا نفى الله جَلَّ وَعَلَا العلم عن الكفار، ولكنه أثبت لهم العلم فيما يتعلق بظاهر الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧]، وفي هذا

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا، لم يصبه ذلك البلاء**»، أخرجه الترمذي (٣٤٣٢) وقال: «حديث حسن غريب»، والبزار في مسنده (٩١٠٦)، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٨.

(٢) إرشاد العقل السليم ٧/٢٥٣.

دليل على أنهم لا يعلمون باطن الحياة الدنيا وحقيقتها، فعلمهم واكتشافاتهم واختراعاتهم وما وصلوا إليه مما يبهر ويحير كل هذا متعلق بظاهر الدنيا لا بحقيقتها وباطنها. ولو علموا حقيقة الحياة الدنيا لقادهم هذا العلم إلى الإسلام والإيمان، ولذا بعضهم إذا تعدى وتجاوز الظاهر إلى الباطن تجده لا يتمالك أن ينطق بالشهادتين.

إذا علمنا أن نعمة التوحيد هي أعظم النعم التي أعطانا الله جَلَّ وَعَلَا وأسداها إلينا من غير حول منا ولا قوة، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، ونشكر سائر النعم الظاهرة والباطنة التي حُرِم منها كثير من الناس، وكذلك علينا إظهار آثار هذه النعمة، والتحدث بها، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والدعوة إليها، لقول النبي ﷺ: «**من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله**»(١)، وقوله ﷺ: «**لأنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»(٢).

وكثيرٌ من الناس في غفلة عنها؛ لأن النعمة في نظرهم هو ما يتعلق بأمور الدنيا، لكن إذا نُبِّه المسلم إلى أن أعظم ما يملك ورأس ماله دينُه وتوحيدُه انتبه، والتفت إلى المحافظة على رأس المال.

كما أن على أيِّ موحِّد أن يكثر من قول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النمل: ١٩]، أي: ألهمني وألزمني أن أشكر نعمتك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، وأبو داود (٥١٢٩)، والترمذي (٢٦٧١)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ورد هذا الدعاء في سورة الأحقاف مقيَّدًا ببلوغ الأربعين من العمر فقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]، ومثل هذه الأمور وإن ارتبطت بسبب إلا أنها لا تقصر على هذا السبب، فيقول هذا الذِّكرَ الصغيرُ والكبيرُ؛ من بلغ الأربعين ومن قصر دونها ومن تعداها.

فالشكر لله تعالى الطريق الوحيد لدوام هذه النعم وزيادتها كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذه النعم لا تُغَيَّر إلا إذا غير الإنسان نعمة الله كفرًا، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٥٣] فالسبب هو الإنسان نفسه، فإذا غيَّر غُيِّر عليه، وإذا ثبت ثبتت له النعمة، وبالشكر تزداد النعم. وانظر أيها الموحد إلى مآل الذين غيروا نعم الله كفرًا ومصيرهم، قال الله تعالى عنهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، نسأل الله العافية في الدنيا قبل الآخرة، ونسأله تعالى ألا نغيِّر أو نبدِّل نعمة الله كفرًا فنستحق العذاب العاجل والآجل.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة

♦ حكم الإيمان بوجود الملائكة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]، وفي صحيح مسلم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»، قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا ثم قال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) برقم (٨)، واللفظ له.

لي: «**يا عمر، أتدري من السائلُ؟**»، قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «**فإنه جبريلُ أتاكم يعلِّمكم دينكم**».

في هذا الحديث دلالة فعليَّة وقوليَّة على وجود الملائكة، فقد جاء واحد منهم، بل هو أشرفهم وأكرمهم وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فمجيئه إلى النبي ﷺ فيه الدلالة الفعلية على وجود الملائكة، وأن جبريل واحد منهم، وأما القولية فبيانه ﷺ لأركان الإيمان، والتي منها الإيمان بالملائكة.

والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان بإجماع المسلمين، فمن أنكرهم، أو شكَّ في وجودهم كفر[1]، وقد كان الكفار يثبتون وجود الملائكة، لكنهم ضلُّوا من ناحية أخرى، وهي اعتقادهم أو قولهم بأنهم بنات الله كما سيأتي بيانه.

وقد جاء هذا الركن تاليًا للإيمان بالله -جل علا- في نصوص كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب الذي لا بد منه؛ لأن الشهادة والمشاهَد لا يُطلب الإيمان به؛ إذ لا ينكره إلا مَن في عقله خلل، فالإيمان المجدي هو الإيمان بالغيب، فإذا ظهرت علامات الموت، وصار يقينًا وشوهدت الملائكة الذين جاؤوا لقبض روح الإنسان لا تنفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولا تنفع التوبة عند الغرغرة[2]، ولذا لما آمن فرعون بعد أن رأى الموت عيانًا قال الله

---

(١) ينظر: الشفا للقاضي عياض (٢/٣٠٢).

(٢) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»، أبو داود (٤٢٥٣).

سبحانه: ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ ﴾ [يونس: ٩١]، فلم ينتفع فرعون بإيمانه، وإذا طلعت الشمس من مغربها لا ينفع نفسًا إيمانها، وكذلك إذا خرجت الدابة أو الدجال[١] صار الحال شهادةً، ولم يبق غيبًا، والمدح إنما يكون على الإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة: ٣]، أما الإيمان بالمشاهَد والتصديق به فلا يختلف فيه أحد، ولا يُطلب من أحد أن يؤمن بمشاهَد من حيث وجوده، بل المطلوب أن يؤمن بما أتى به، فالنبي ﷺ يجب الإيمان به مع كونه مشاهدًا، لكن المراد الإيمان بما جاء به عن الله جَلَّ وَعَلَا، فالإيمان المطلوب ليس الإيمان بوجوده ﷺ؛ لأنه لا ينكر وجوده أحد ممن يراه.

♦ أصل كلمة الملائكة

إذا عرفنا مما سبق أن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فمن الملائكة؟ وما أصل هذه الكلمة؟ وهل هي مشتقة أو لا؟

كلام أهل اللغة في هذه المباحث كثير، فيقول الفيروز آبادي: «المَلَك واحد الملائكة، والملائك قيل: أصله أَلِك، والمالكة والمألكة والمألك الرسالة، ومنه اشتُق الملائكة؛ لأنهم رسل الله، وقيل: القول الأول أنه مأخوذ من أَلِك، وقيل: من لأك بتقديم اللام على الهمزة، والملأكة: الرسالة، وأَلِكْني إلى فلان أي أبلغه عني، وأصله ألئكني، حُذفت الهمزة، ونُقلت حركتها إلى ما قبلها، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى، ووزنه مفعل، العين محذوفة أُلزمت التخفيف إلا شاذًّا»[٢].

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»، مسلم (٢٤٩).

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/ ٥٢٤).

وفي المفردات للراغب[١]: «وقال بعض المحققين: هو من المُلك، قال: والمتولي من الملائكة شيئًا من السياسات يقال له: مَلَك -بالفتح- ومن البشر يقال له: مَلِك بالكسر»، يعني: أن من الملائكة من يتولى على بعض الأشياء كالصافات، والذاريات، فهؤلاء يتولون أعمالًا موكلين بها، فكلٌّ من: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت لهم مهام موكلون بها، هؤلاء يقال للواحد منهم: مَلَك، وهو من تولى شيئًا من تدبير بعض الأمور، أما البشر إذا تولَّى أحد منهم تدبير أمر من الأمور فيقال له: مَلِك، يقول: «فكل مَلَك ملائكة، وليس كل ملائكة ملكًا»، أي: أن الجموع الغفيرة من الملائكة يقال لهم: ملائكة، وعلى كلامه لا يقال لواحدهم: ملك، فمثلًا يقال: يدخل البيت المعمور في كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ولا يقال: سبعون ألف ملك؛ لأن هؤلاء الملائكة لم يوكلوا بشيء على حد زعمه، فلا يقال للواحد منهم: ملك، وإنما يقال لهم: ملائكة؛ لأن المَلَك من أوكل إليه تدبير أمر من الأمور.

قال: «بل المَلَك عندهم هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤] ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، ونحو ذلك»[٢]، يعني: من أوكل إليهم تدبير هذه الأمور، فالواحد منهم يقال له: مَلَك، في مقابل الواحد من البشر الذي يتولى أمرًا من الأمور يقال له: مَلِك، كذا قال، وكلامه فيه غرابة؛ لأنه جاء في الحديث: «ثم رفع لي البيت المعمور فقلت: يا

(١) كتاب: «المفردات في غريب القرآن» يعنى بألفاظ القرآن الكريم، ومرتب على الألف باء، مؤلفه: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ).
(٢) مفردات غريب القرآن (ص:٤٣٧).

جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك»[١]، فالواحد منهم قيل له: مَلَك، وإن لم يعرف لكل واحد منهم بعينه تدبير معين، ويَرُد هذا القول أيضًا حديث الأطيط: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو قائم»[٢]، وإن كان لأهل العلم فيه كلام.

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «الملائكة واحدها ملَك، قال ابن كيسان[٣] وغيره: وزن مَلَك فَعَل من الملك.

وقال أبو عبيدة: هو من مفعل أصله ملأك من لَأَكَ إذا أرسل، والأَلوكة والمأْلكة والمأْلوكة: الرسالة، قال لَبِيد:

وغــــلام أرســــلته أمـــــه ** بـــألوكٍ فبـــذلنا مـــا ســـأل[٤]

وقال آخر:

أبلـــغ الـــنعمان عنـــي مألكًـــا ** إنني قد طـال حـبسي وانتظـاري[٥]

ويقال: ألكني أي: أرسلني، فأصله على هذا مألك، الهمزة فاء الفعل ثم إنهم

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) هو محمد بن أحمد بن كيسان البغدادي النحوي اللغوي، توفي (٢٩٩هـ)، من تصانيفه: المهذب في النحو، غلط أدب الكاتب. بغية الوعاة (١/ ١٩).

(٤) البيت في ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص: ٩١).

(٥) قائل البيت عدي بن زيد، ينظر: العقد الفريد (٦/ ١١٠).

قلبوها إلى عينه فقالوا: ملأك، ثم سهلوه، فقالوا: مَلَك. وقيل: أصله ملأك من مَلَك يملِك، نحو شمأل من شَمَل؛ فالهمزة زائدة عند ابن كيسان أيضًا، وقد تأتي في الشعر على الأصل، قال الشاعر:

فلست لإنسيٍ ولكن لملأكٍ ** تنزل من جو السماء يصوبُ[1]»[2]

يصوب يعني: ينزل، ومنه قوله ﷺ: «**اللهم صيبًا نافعًا**»[3] أي: مطرًا نازلًا بالخير والبركة، ومنه ما جاء في الحديث: «**وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه**»[4] يعني: لم يرفع رأسه في الركوع ولا ينزله.

ثم قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال النضر بن شُمَيل: لا اشتقاق للملك عند العرب، والهاء في الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع، ومثله الصلادمة والصلادم: الخيل الشداد، واحدها: صِلْدِم، وقيل: هي للمبالغة، كعلامة ونسابة»[5]، وفهَّامة، وما أشبه ذلك.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «الملائكة: جمع ملك بفتح اللام، فقيل: مخفف من مألك، وقيل: مشتق من الألوكة، وهي الرسالة، وهذا قول سيبويه والجمهور، وأصله لأك، وقيل: أصله الملْك بفتح ثم سكون، وهو الأخذ بقوة، وحينئذٍ لا مدخل للميم فيه، وأصل وزنه مفعل، فتركت الهمزة؛ لكثرة

---

(١) البيت هو مطلع قصيدة لعدي بن زيد يخاطب بها النعمان بن المنذر وكان، قد حبسه النعمان. خزانة الأدب (٨/ ٥١٥).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٣٢)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (٤٩٨)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٥) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٣).

الاستعمال، وظهرت في الجمع، وزيدت الهاء إما للمبالغة، وإما لتأنيث الجمع، وجمع على القلب، وإلا لقيل: مآلكة»[(١)] وليس ملائكة؛ لأن الهمزة متقدمة في أصل المادة. ثم قال: «وعن أبي عبيدة في الملك الميم أصلية، وزنه فعل كأسد، هو من الملْك بالفتح وسكون اللام، وهو الأخذ بقوة، وعلى هذا فوزن ملائكة فعائلة، ويؤيده أنهم جوزوا في جمعه: أملاك، وأفعال لا يكون جمعًا لما في أوله ميم زائدة»[(٢)].

والكلام حول هذه الكلمة كثير، يجعل طالبَ العلم يتعب في البحث عن أصل المادة في معاجم اللغة، فلا يدري في أي حرف، وفي أي مادة يبحث عن لفظة ملك في معاجم اللغة، وهذا الإشكال غير وارد في المعاجم التي ترتب على أواخر الحروف؛ لأن آخر الكلمة كاف، لكن الإشكال في المعاجم التي رتبت المواد فيها على أوائل الحروف، فيتعب الباحث في الوصول إليها؛ لأنه لا يدري هل أصل الحرف الأول ميم أو همزة، ومعاناة كتب اللغة تحتاج إلى شيء من الانتباه إلى أصل المادة، فأنت إذا بحثت عنها في «القاموس» أو في «لسان العرب» أو في «الصحاح» فستبحث من خلال آخر حرف في الكلمة؛ لأن هذه المراجع مرتبة بحسب أواخر الحروف، وإذا بحثت عنها في «أساس البلاغة»، وفي «المصباح المنير» فستبحث من خلال الحرف الأول؛ لأن هذه المراجع مرتبة باعتبار الحرف الأول، فمعرفة أصل الكلمة وكيفية ردها إلى أصلها مهم بالنسبة لمن يعاني كتب اللغة، فمثلا: كلمة: (التقوى) اختلف في أصلها هل هي من (وقى) من الوقاية، فالحرف الأول واو، والحرف الأخير حرف لين، وهل هو واو أو هو

---

(١) فتح الباري (٦/٣٠٦).

(٢) فتح الباري (٦/٣٠٦).

ياء من وقيته؟ والبحث في الحروف اللينة في آخر الكتب سهل، سواءً كان أصله واوًا أو ياءً أو ألفًا، وهناك معاجم أصعب من هذه المعاجم، منها قواميس مرتبة على المخارج، ولا يمكن الإفادة منها إلا بالفهارس، مثل: «العين»(١)، و«تهذيب اللغة»(٢)، و«المحكم»(٣) لابن سيده، وغيرها، وهذا يجعل الطالب يهتم بمثل هذا الكلام، وإن كان بعضهم يرى هذا من الفضول، وأنه تضييع للوقت، ولكن الأمر ليس كذلك، بل إنه من أهم المهمات.

♦ صفة الملائكة

مسكن الملائكة السماوات، وينزلون في مناسبات، أو لأمور وُكِلت إليهم، فينزلون ليلة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤]، وينزلون للقتال مع المسلمين، كما حصل في بدر(٤)، وجبريل ينزل على الرسل بالوحي، فالله جَلَّ وَعَلَا يكلفهم بما يشاء، وإلا فالأصل أن مسكنهم السماوات.

والملائكة عباد الله المكرمون، والسفرة بينه تعالى وبين رسله -عليهم الصلاة والسلام-، وهم كرام خلقًا وخُلقًا، وهم أيضًا بررة، طهَّرهم الله وقدَّسهم ذاتًا وصفةً وأفعالًا، مطيعون لله جَلَّ وَعَلَا، خُلقوا من نور، كما في الحديث الصحيح:

(١) اختلف الناس في مؤلفه، فقيل: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، وقيل: غيره، وقيل: صنف الخليل بعضه، وأكمله غيره، وهو مرتب بحسب مخارج الحروف.

(٢) مؤلفه: محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري (٣٧٠هـ)، وقد رتب مواده بحسب مخارج الحروف.

(٣) «المحكم والمحيط الأعظم» لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (٤٥٨هـ)، ورتبه بحسب مخارج الحروف.

(٤) دل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥].

«خلق الملائكة من نور، وخلق الجن من النار، وخلق البشر مما علمتم»(١)، يعني: من طين.

والملائكة ليسوا بناتًا لله عَزَّوَجَلَّ كما يقوله المشركون، ولا أولادًا، ولا شركاء، ولا أندادًا، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوًّا كبيرًا. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] ستكتب شهادتهم، ويسألون عن هذه الشهادة، وفي حكمهم من يتكلم بالأمور الغيبية من غير علم، فهذه أيضًا شهادة، وقول بغير علم، وسيُسأل عن هذا كله، وقال سبحانه: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾ أي: بزعمكم أن الملائكة بنات الله، ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، أي: ولكم الذكور؟! وقال سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال جمهور أهل الكلام من المسلمين: الملائكة أجسام لطيفة، أُعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السماوات»(٢)، ولطافتها من حيث الخفة والقدرة على التصرف بسرعة، إذ ينزل الملك من عند الله جَلَّوَعَلَا من فوق سبع سماوات إلى النبي في لحظة، وبين الأرض

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.
(٢) فتح الباري (٦/ ٣٠٦).

والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين الأولى والثانية خمسمائة عام، إلى أن يصل إلى جهة العلو التي فيها الرب جَلَّ وَعَلَا[(١)]، علمًا أن علماء الفلك المعاصرين يقيسون المسافات بين الكواكب بالسنوات الضوئية، ولكن سأقتصر في ذكر المسافة على ما ورد في النصوص، وهو ما سبق ذكره. ورغم هذه المسافات الشاسعة إلا أن جبريل ينزل بالوحي بلحظة! فلطافة أجسام الملائكة من حيث إن الملائكة تستطيع أن تقطع هذه المسافة في لحظة، وباعتبار أنها قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، فجبريل يأتي النبي ﷺ أحيانًا على صورة رجل، كما في الحديث الذي ذُكِر آنفًا، وكقوله ﷺ: «**أحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا**»[(٢)]، وكثيرًا ما يأتي في صورة دحية الكلبي[(٣)]، وإلا فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ له ستمائة جناح قد سد الأفق[(١)]، كما صحت

---

(١) دل على هذا المعنى عدة أحاديث منها: حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن رصاصة مثل هذه -وأشار إلى مثل الجمجمة- أرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل**». أخرجه الترمذي (٢٥٨٨) وقال: «هذا حديث إسناده حسن»، وصححه الحاكم (٣٦٤٠)، وأخرج أحمد في المسند (١٧٧٠)، من حديث العباس بن عبد المطلب أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة»، وأخرج نحوه الترمذي (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ولفظ الحديث: عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الحارث بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**». أخرجه البخاري (٢).

(٣) إشارة إلى حديث: «أن جبريل أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحية، فلما قام، قالت: والله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ يخبر خبر جبريل» أخرجه البخاري (٤٩٨٠)، ومسلم (٢٤٥١)، وأخرج أحمد في المسند (٥٨٥٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا: «وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي النبي ﷺ في صورة دحية».

بذلك السنة عن النبي ﷺ، بل قالوا: إن واحدًا من هذه الأجنحة سد الأفق(٢) وقد رآه رسول الله ﷺ على هذه الصورة مرتين: مرة في الأبطح بمكة، ومرة ليلة المعراج، ومنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، كما جاء في صدر سورة فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، وهذه لا شك أنها أمور مهولة تدل على عظمة الخالق وقدرته، وهنا يبحث بعض الشراح عن القدر الزائد ما بين الخلقة الأصلية كالستمائة جناح، وما بين مجيئه في صورة رجل، وقد أطال بعضهم في هذا البحث، ولا شك أنه بحث عقيم، لا يترتب عليه نفع لا في الدنيا ولا في الآخرة، والاسترسال فيه ضرب من العبث.

ومن الملائكة من جاءت تسميته، ومنهم من جاء ذكر عمله الموكل إليه، ومنهم من بقي في علم الغيب، وإنما أخبرنا عنه إجمالًا، فهذا نؤمن به إجمالًا، وأما ما أخبرنا عنه تفصيلًا فيجب علينا أن نؤمن به تفصيلًا، كما جاء في نظائره من الرسل والكتب، ذكر لنا بعض الرسل وبعض الكتب وحجب عنا بعض آخر من ذلك، فنؤمن تفصيلًا بما جاء ذكره تفصيلًا، ونؤمن إجمالًا بما جاء ذكره إجمالًا.

---

(١) إشارة إلى حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم، ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلقه ساد ما بين الأفق»، أخرجه البخاري (٣٢٣٤).

(٢) إشارة إلى رواية لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم». أخرجه أحمد (٣٧٤٨)، والتهاويل: الأشياء المختلفة الألوان.

♦ أعمال الملائكة

أعمال الملائكة متنوعة، فمنهم: الموكل بالوحي من الله جَلَّ وَعَلَا إلى رسله -عليهم الصلاة والسلام-، وهو: الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

ومنهم الموكل بالمطر وتصريفه إلى حيث أمره الله عَزَّوَجَلَّ، وهو ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وله مكانة علية، ومنزلة رفيعة، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في بعض الآثار: «ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض»(١)، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة(٢)، فإذا شرجة(٣) من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثًا وأرد فيها ثلثه»(٤).

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٤٦).
(٢) الحرة: أرض بها حجارة سود كثيرة. شرح النووي على مسلم (١٨/ ١١٥).
(٣) شَرْج: جمعها شِراج، وهي مسايل الماء في الحرار. المصدر السابق.
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٤).

والبشر لا حول لهم ولا طول ولا قوة ولا قدرة على إنزال المطر، إنما القادر عليه الرب جَلَّوَعَلَا، فهو وحده الذي عنده الخزائن، وكونهم يتطاولون عبثًا على الاستمطار، وما يزعمونه من أنهم يستطيعون أن يصنعوا شيئًا من ذلك فهذا كله من محادة الله ومعارضته: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ -٦٩]، لا ينزل المطر إلا الله جَلَّوَعَلَا.

وقيل: إن ميكائيل يكيل المطر(١)، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، والمطر آية من آيات الله وجودًا وعدمًا، فوجوده بقدر الحاجة هو الغيث الذي تحيا بسببه البلاد والعباد، ووجود قدر زائد على ما يحتاجه البشر هو الفيضانات المدمرة، وقِلَّته عن قدر حاجتهم هو الموت المحقق: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، إن المطر شأنه عظيم، فبه حياة كل شيء، لكن -للأسف- بعض الناس لا يعرف قدر هذه النعمة، وإذا أعلن عن صلاة الاستسقاء استخف بها، وهوّن من شأنها، ورأى أن الناس ليسوا بحاجة إلى مطر؛ لأن البحار المالحة ببعض التعديلات يسوغ شرب مائها واستعماله، ولا يدري أن قلة الأمطار تتسبب في نضوب المياه وغورها، وقد جاء في آخر سورة تبارك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

ومن الملائكة من هو موكل بالصُّوْر، وهو إسرافيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ينفخ فيه ثلاث نفخات أو نفختين على خلاف بين أهل العلم، وقد ورد في النفخ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وهذه يقال

(١) ينظر: شرح السيوطي على مسلم (٢/ ٣٧٧)، وفيض القدير (٢/ ١٠٢).

لها: نفخة الفزع، وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذه يقال لها: نفخة الصعق، وقوله سبحانه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذه نفخة للقيام. فهل هي ثلاث نفخات أو نفختان؟ خلاف بين أهل العلم، فهاتان الآيتان تدلان على أنها ثلاث نفخات وهي نفخة للفزع ونفخة للصعق ونفخة للقيامة، ومن ذهب إلى أنهما نفختان فقط قال: إن الفزع في بداية النفخة الأولى والصعق في نهايتها؛ لأن مدة النفخ تطول، فيفزعون في أول الأمر ثم يصعقون، فهي نفخة واحدة، ومنهم من قال: هما نفختان ولم يفصل.

وهذا الخلاف في النفخة الأولى، أما النفخة الأخيرة فلا خلاف فيها ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذه النفخة توجد فزعًا عظيمًا، ولا شك أنها تنبئ عن نتائج خطيرة، إن خيرًا فخير أو شرًّا فشر، فطوبى لمن عمل خيرًا، ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ النفخ، ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، نمر بهذه الآية، ولا تحرك فينا ساكنًا، ويُذكر عن زرارة بن أوفى التابعي الجليل[(١)] أنه سمع القارئ يقرأ هذه الآية فمات رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صلاة الصبح[(٢)]، وإن كان بعضهم يشكك في مثل هذه التصرفات؛ وذلك لأنه لا يجد في نفسه تجاه النصوص القرآنية أدنى إحساس، وقد وجد التشكيك في مثل هذا من القدم، فقد سئل ابن سيرين عمن يسمع القرآن فيصعق، قال: «ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط

---

(١) هو: زرارة بن أوفى العامري البصري، قاضي البصرة، توفي سنة ٩٣هـ. الوافي بالوفيات (١٢٨/١٤).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٩/٩٣).

فيقرأ عليهم من أوله إلى آخره، فإن سقطوا فهم كما يقولون»[١]، أي: يجعل هذا الشخص على جدار ويقرأ عليه القرآن، فإن سقط فهو صادق، أما كونه يُصعق أو يفزع وهو على الأرض فهذا قد يكون تمثيلًا، فيبدو أنه لا يرى مثل هذه التصرفات، ويستدل على ذلك بأن هذا لم يحصل من النبي ﷺ، وهو أعلم الناس بالله وأخشاهم وأتقاهم لله، فلو كان تأثير القرآن إلى هذا الحد لكان تأثُّر النبي ﷺ به أعظم من غيره، كما أنه لم يُعرف عن الصحابة أنه وصل بهم الأمر إلى هذا الحد، أن يصيبهم الغشي والصعق ويموتون، وهذا إنما وجد في عصر التابعين، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى مانعًا من وقوع مثل هذه الأمور، وأن الإنسان قد يصل به استشعار عظمة الله وعظمة كلامه إلى هذا الحد، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلما كان التابعون فيهم من يموت أو يصعق عند سماع القرآن فمن السلف من أنكر ذلك ورآه بدعة، وأن صاحبه متكلف، وأما أكثر السلف والعلماء فقالوا: إن كان صاحبه مغلوبًا، والسماع مشروعًا، فهذا لا بأس به، فقد صعق الكليم لما تجلى ربه للجبل، بل هو حال حسن محمود فاضل بالنسبة إلى من يقسو قلبه، وحال الصحابة ومن سلك سبيلهم أفضل وأكمل، فإن الغشي والصراخ والاختلاج إنما يكون لقوة الوارد على القلب، وضعف القلب عن حمله، فلو قوي القلب كحال نبينا ﷺ وأصحابه لكان أفضل وأكمل»[٢].

يقول: إن قلب النبي ﷺ بلغ من القوة بحيث يحتمل الكلام الثقيل الذي ألقي إليه، فلا يحصل له اختلال، مع أنه ﷺ حال التنزيل إذا أوحي إليه يحصل له

(١) سير السلف الصالح (ص: ٩٢٠).
(٢) جامع المسائل (١/ ٢٣٣).

شيء من ذلك، لكن إذا قرأه أو قرئ عليه يتأثر ويبكي كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قرأ على النبي ﷺ والتفت فإذا عيناه تذرفان[1]، أي: يبكي، وكان ﷺ إذا قرأ صار لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[2]، لكن ما يصل إلى حد الغشي أو حد الصعق والموت، ولا وجد هذا في عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن قلوبهم كانت قوية، تتحمل مثل هذا، ثم جاء من بعدهم واستشعروا عظمة النازل، وأنه كلام الله، لكن القلوب ضعفت عن التحمل، فليست بقوة قلب النبي ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فلم يحصل التوازن، ثم خلف خلوف لا يستشعرون عظمة النازل، وليس في قلوبهم قوة، والقرآن يقرأ عليهم وكأنما يقرأ عليهم كلام البشر، حتى وصل ببعضهم الأمر أن لا فرق عنده بين أن يقرأ في جريدة أو في المصحف.

وبعض الإخوان يستشكل في قصة زرارة رَحِمَهُ اللَّهُ أمرًا وهو: هل كان يسمع الآية لأول مرة أو لا؟ وإذا كان يسمعها ليس بأول مرة فلماذا لم يحصل له هذا الحال من قبل؟

أقول: هذا الاستشكال وارد على قول من يقول: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لكن الصواب المقطوع به أن الإيمان يزيد في بعض الحالات وينقص

---

(١) إشارة إلى حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ علي**»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «**نعم**»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قال: «**حسبك الآن**» فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٢) إشارة إلى حديث عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتيت النبي ﷺ، وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل»، أي: كصوت القدر عند غليانه. أخرجه النسائي (١٢١٤)، وأحمد (١٦٣١٧)، وصححه ابن حبان (٦٦٥).

أحيانًا، وهذا أمر ظاهر ومقرر عند أهل السنة والجماعة[(١)]، فوافقت هذه اللحظة زيادة في إيمانه فاستشعر عظمة النازل، وحصل له ما حصل، وتأثُّر الإنسان يختلف من وقت إلى آخر، وهذا يجده كل إنسان من نفسه.

وعودًا لموضوعنا أقول: هؤلاء الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل هم الذين يذكرهم النبي ﷺ في افتتاحه صلاة الليل، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بأي شيء كان نبي ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك»[(٢)].

ومن الملائكة: الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت وأعوانه، وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت بِعزرائيل. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في البداية والنهاية: «وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]»[(٣)]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

---

(١) والأدلة على هذا كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١].

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٣) (٤٧/١).

[الأنعام: ٦١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعلى كل حال الإيمان بملك الموت متعين كالإيمان بالثلاثة الذين جاءت تسميتهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل.

ومن الملائكة: من وكل إليه حفظ العبد في حله، وارتحاله، وفي نومه، ويقظته، وفي كل حالاته، وهم المعقبات الوارد ذكرهم في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدره خَلَّوا عنه»[١].

ومنهم: الموكل بحفظ أعمال العباد من خير وشر، وهم الكرام الكاتبون، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ - ١٨]، فالذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، وذكر بعض العلماء أخذًا من الآية أن اسمهما: رقيب وعتيد، والصواب أنهما وصفان لا اسمان، ومعناهما: أنهما حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد.

ومنهم: الموكل بفتنة القبر الذي صحت به السنة النبوية عن النبي ﷺ[٢]،

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٧١).

(٢) إشارة إلى حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**العبد إذا وضع في قبره، وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فأقعداه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد** ﷺ؟» الحديث. أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

وجاءت تسمية الملكَينِ الموكَّلين بها بمنكر ونكير[١]، واستفاض ذكرهما في سؤال القبر[٢]، لكن تسميتهما بهذا لا يثبتها كثير من أهل العلم.

ومن الملائكة: خزنة الجنة، وفي مقدمتهم رضوان عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول الحافظ ابن كثير في البداية: «وخازن الجنة مَلَكٌ يقال له: رضوان، جاء مصرحًا به في بعض الأحاديث»[٣].

ومنهم: خزنة جهنم -نعوذ بالله منها- وهم الزبانية، قال العلماء: ورؤوسهم تسعة عشر، ومقدمهم مالك، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧][٤].

ومن الملائكة: من وكل بالنطفة في الرحم، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعث إليه الملك فيؤذَن بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون**

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قبر الميت -أو قال: أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله...**». أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وصححه ابن حبان (٣١١٧).

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (٢/٥٧٨): «وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به». وينظر: شرح القسطلاني على البخاري (٢/٤٦٠).

(٣) (١/٥٠).

(٤) ينظر: السابق.

بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها»[(١)].

ومنهم: حملة العرش كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧] وقال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، ويورَد في بعض التفاسير عند تفسير هذه الآية حديث الأوعال[(٢)]، وهو ضعيف عند أهل العلم[(٣)].

ومن الملائكة: سياحون يتتبعون مجالس الذكر، وفي الحديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٤)].

ومنهم أيضًا: من يقف على أبواب الجوامع في الجمعة يكتبون من جاء إلى الجمعة الأول فالأول إلى أن يجلس الإمام، فإذا جلس طُويت الصحف[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٥٤).

(٢) لفظ الحديث: عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا ندري، قال: «**إن بعد ما بينهما إما واحد أو ثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك -حتى عد سبع سماوات- ثم فوق السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك**». أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣).

(٣) ينظر: العلل المتناهية (١/ ٢٣)، ذخيرة الحفاظ (٤٢٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) إشارة إلى ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب**

ومنهم: الموكل بالجبال، كما جاء في الحديث الصحيح في السيرة وغيرها أن النبي ﷺ لما جاء من عبد ياليل، بعد أن كذبوه ضاق بذلك صدره ﷺ، فقال له ملك الجبال: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين(١)، فهذا الملك موكل بالجبال.

وممن سمي من الملائكة في القرآن: هاروت وماروت، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذان الملكان أنزلهما الله جَلَّ وَعَلَا في فترة من الفترات فتنة للناس، ومن المفسرين من يقول: إنه امتحان لهما، وذُكرت في كتب التفسير قصص وحكايات حول قصة هذين الملكين، كثير منها مما تُلُقِّي عن بني إسرائيل ومما يُعلم بطلانه.

من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر، ومثل المهجر الذي يهدي البدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كالذي يهدي الكبش، ثم كالذي يهدي الدجاجة، ثم كالذي يهدي البيضة». أخرجه مسلم (٨٥٠).

(١) ولفظ الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زوج النبي ﷺ، حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا». أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٤).

♦ عدد الملائكة

الملائكة جمع غفير، وعدد كبير، لا يمكن إحصاؤهم ولا عدهم، فلا يعلم عددهم إلا الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فإذا كانت النار يجاء بها يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها[(١)]، فسيكونون أربعة مليارات وتسعمائة مليون، وهذا عدد الملائكة الذين يقودون النار فقط.

ومنهم زوّار البيت المعمور الذي أقسم الله تعالى به، وثبت ذلك في حديث المعراج، وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة، لو سقط لوقع عليها، وجاء في الأحاديث أن حرمة البيت المعمور في السماء كحرمة الكعبة في الأرض[(٢)]، وهذا البيت يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه منذ خلق الله السماوات والأرض[(٣)]؛ وأعداد هؤلاء مهولة أيضًا.

ومما يدل على أن عدد الملائكة لا يُحصى ولا يُعد الحديث المخرج عند أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد أو قائم، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) روي هذا عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أخرج ابن جرير في تفسيره (٤٥٥/٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩١) أن رجلًا قال لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما البيت المعمور؟ قال: بيت في السماء، وهو بحيال الكعبة، من فوقها حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كلّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة، ولا يعودون فيه أبدًا. وجاء نحوه عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) سبق تخريج الحديث الوارد في هذا المعنى (ص: ٤٠).

كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله...» الحديث[١]، وبعض أهل العلم يحسنه بطرقه، ومنهم من يضعفه وهم الأكثر[٢].

♦ واجب المسلم تجاه الملائكة

الملائكة لهم منزلة عظيمة عند الله جَلَّ وَعَلَا، وواجب على المؤمن تجاههم أن يتولاهم بالحب والتعظيم المناسب، بحيث لا يصرف لهم شيئًا من حق الله جَلَّ وَعَلَا، كما عليه أن يجتنب كل ما من شأنه أن يؤذيهم، ومن ذلك:

١- الذنوب والمعاصي.

٢- الصور واقتناء الكلب؛ لأن البيت الذي فيه كلب أو صورة لا تدخله الملائكة، فهم يتأذون من ذلك[٣].

٣- أكل الثوم والبصل؛ لأنه يتأذى به بنو آدم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وهذه العلة في منع هذا الطعام بالنسبة للمصلي[٤].

٤- البصاق عن جهة اليمين؛ تكريمًا للملك كما جاء في الحديث الصحيح[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦).

(٢) ينظر: مسند البزار (٣٩٢٥)، المستدرك للحاكم (٣٨٨٣)، مجمع الفوائد (١٥٦).

(٣) إشارة إلى أحاديث وردت عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، منها حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب، ولا صورة تماثيل». أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

(٤) إشارة إلى حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أكل من هذه البقلة الثوم- وقال مرة: من أكل البصل والثوم والكراث- فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم». أخرجه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٤) واللفظ له.

(٥) إشارة إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق أمامه،

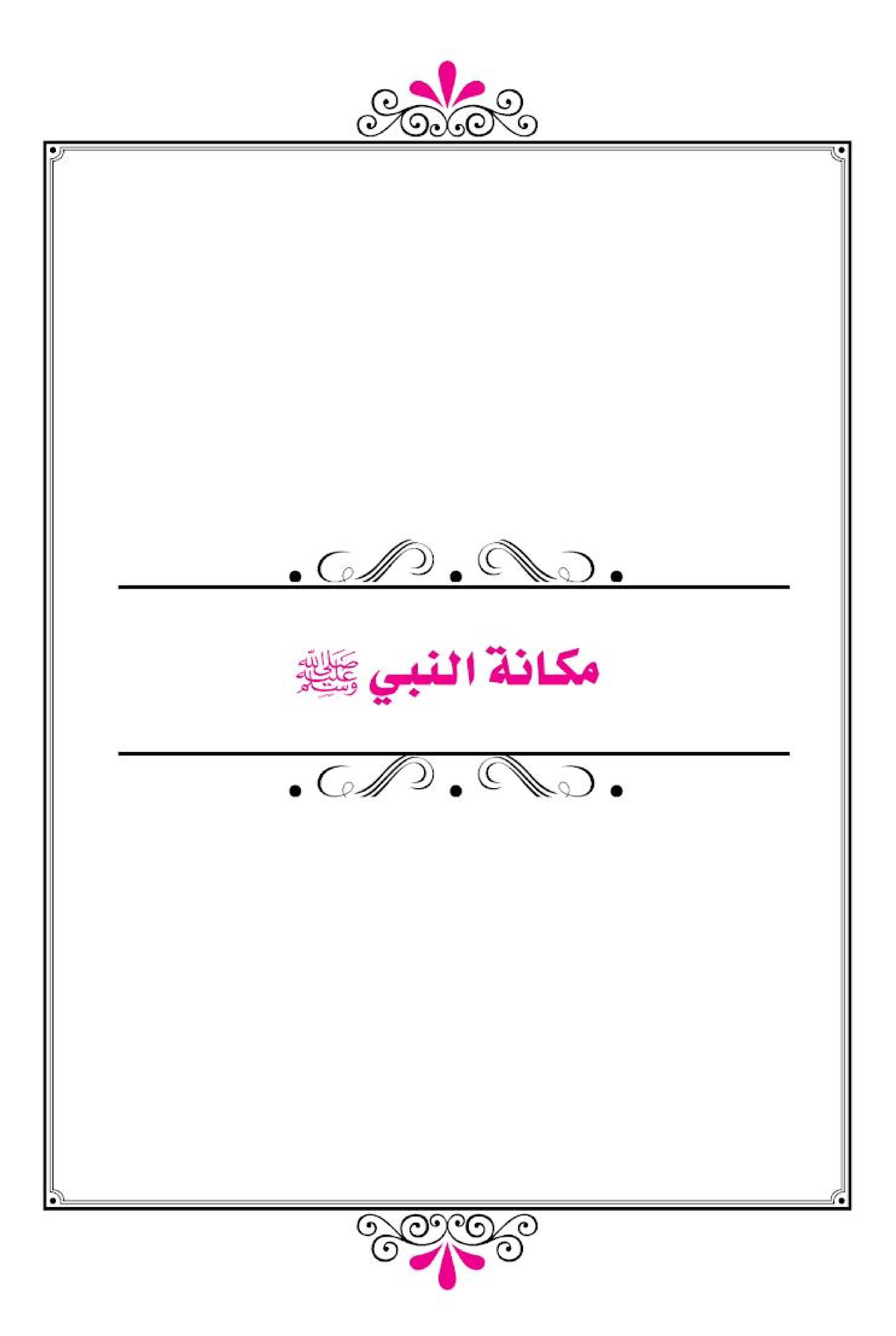
٥- الجرس، وهو نوع من الموسيقى، فآلاتُ التنبيه التي ليس فيها إطراب لا تدخُل في حكم الجَرس المنهي عنه[(١)].

وغير ذلك من حقوقهم التي ثبتت بها السنة، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه، فإن عن يمينه ملكًا، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه، فيدفنها». أخرجه البخاري (٤١٦).

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس». أخرجه مسلم (٢١١٣).



مكانة النبي ﷺ

مكانة النبي ﷺ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الكلام عن مكانة النبي ﷺ من السعة والانتشار في نصوص الكتاب والسنة بحيث لا يُستطاع جمع أطرافه في أسطر يسيرة، ولا الحديث عنه في صفحات قليلة، فهذا الموضوع عظيم تبعًا لعظمة المتحدَّث عنه، وهو سيد البشر، وأفضل الخلق، وأعلمهم وأتقاهم وأخشاهم لله عَزَّوَجَلَّ.

♦ الإيمان بالنبي محمد ﷺ ومتابعتُه

إن نبينا محمدًا ﷺ هو النبي العظيم، والرسول الكريم، وهو أكرم الخلق على الله جَلَّوَعَلَا، ولا نجاة لأحد كائنًا من كان إلا بعد معرفته ومعرفة ما جاء به، والإيمان به وبما جاء به، على مراده ﷺ. وليس المراد معرفة حفظٍ دون عمل؛ لأن الإنسان مهما بلغ من المراتب العليا في الدراسات الشرعية وغيرها، ولو كان تخصصه في السيرة النبوية، وصار أعرف الناس بها، لكنه لا يتبع، ولا يعمل بما علم لم يفده هذا العلم إذا سئل في قبره عن ربه، وعن دينه، وعن نبيه ﷺ، إنه لن يستطيع الجواب ما لم يكن متابعًا للنبي ﷺ، وكذا إن لم يكن مؤمنًا فلن يجيب؛ فالمنافق والمرتاب ولو كان في دنياه من أعرف الناس بالسيرة، فإنه لا محالة سوف يقول: «**هاه هاه لا أدري**»(١)، وفي رواية: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»(٢)، فالمعول على المتابعة، وليس مجرد المعرفة.

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إن الإيمان بالنبي محمد ﷺ أصل عظيم من الأصول الثلاثة التي هي:

١- معرفة الله جَلَّ وَعَلَا.

٢- معرفة دين الإسلام.

٣- معرفة النبي ﷺ.

واقتران معرفته ﷺ بمعرفة الله جَلَّ وَعَلَا، ومعرفة الدين الذي من أجله خلق الناس دليل على علو مكانته ﷺ، فبداية الامتحان الحقيقي إنما تكون بالسؤال عن الله عَزَّ وَجَلَّ وعن دينه وعن نبيه ﷺ.

هذا النبي العظيم قرنت الشهادة له بالرسالة بالشهادة لله عَزَّ وَجَلَّ بالألوهية، فلا يصح دين إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»(١)، ومن لازم صحة «لا إله إلا الله» الشهادةُ لهذا الرسول الكريم بأنه: عبد الله ورسوله، فالشهادة للنبي ﷺ بالرسالة أحد شِقَّي الركن الأول من أركان الإسلام، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**»(٢).

ومن مظاهر كون الإيمان به أحدَ شِقَّي الركن الأول من أركان الإسلام ما يلي:

أولًا: قرن الله جَلَّ وَعَلَا طاعته ﷺ بطاعته جَلَّ وَعَلَا فقال سبحانه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

ثانيًا: اشترط الله سبحانه لطاعته طاعةَ الرسول ﷺ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، والهدايةُ لا تحصل إلا لمن اتبعه وأطاعه: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

ثالثًا: طاعة الرسول واتباعه ﷺ هي السبب في محبة الله جَلَّ وَعَلَا لعبده، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

رابعًا: طاعته ﷺ تجعل المطيع رفيقًا لأعظم الخلق وأشرفهم وأكرمهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

♦ عموم رسالته ﷺ

بُعث الرسول ﷺ إلى الناس كافة، بل بُعث إلى الثقلين: الجن والإنس، فلا يسع أحدًا الخروج عن شريعته ﷺ، ولو تعبد بعبادة منزلة من الله جَلَّ وَعَلَا.

فمن نواقض الدين المعروفة عند أهل العلم زعمُ أحدٍ أنه يسعه الخروج عن ملة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فمن زعم ذلك فهذا لا شك في كفره، وأنه من أهل النار[(١)]، نسأل الله السلامة والعافية، والنبي ﷺ يقول: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي**

(١) قال شيخ الإسلام: «فإن ظن أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن من الأولياء من يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهذا كافر يجب قتله بعد استتابته؛ لأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم تكن دعوته عامة، ولم يكن يجب على الخضر اتباع موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بل قال الخضر لموسى: إني على علم من الله علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من الله علمكه الله لا أعلمه». مجموع الفتاوى (٢٧/٥٨-٥٩)، وينظر: كشاف القناع (٦/١٧١).

ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(١)؛ وذلك لعموم رسالته ﷺ إلى الثقلين، بخلاف غيره من الأنبياء، فقد كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، والنبي ﷺ بُعث إلى الناس عامة، كما في حديث الخصائص المشهور(٢)، وفي الحديث الصحيح: «**لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»(٣)، وجاء ما يدل على أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نزل في آخر الزمان إنما يحكم بشريعة محمد ﷺ(٤).

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، يقول ابن الجوزي: «فجعل الأنبياء كالأتباع له ﷺ، وألهمهم الانقياد، فلو أدركوه وجب عليهم اتباعه»(٥).

◆ نداء الله سبحانه لمحمد ﷺ بوصف النبوة والرسالة

خاطب الله جَلَّ وَعَلَا كل نبي باسمه، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، و﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، و﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦]،

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وللحديث شواهد.

(٤) إشارة إلى ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**». أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥). قال الحافظ العراقي في طرح التثريب (٧/٢٦٥): «المراد أنه ينزل حاكمًا بهذه الشريعة لا نبيًّا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة، فإن هذه الشريعة باقية إلى يوم القيامة لا تُنسخ، ولا نبي بعد نبينا كما نطق بذلك، وهو الصادق المصدوق، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة».

(٥) الوفا بتعريف فضائل المصطفى (١/٢٦٢).

و ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، و ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [ص: ٢٦]، و ﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ ﴾ [المائدة: ١١٠]، و ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾ [مريم: ٧]، و ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ [مريم: ١٢]، فالله خاطب الأنبياء بأسمائهم، ولم يخاطب النبي ﷺ بالاسم تعظيمًا له، بل قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [المائدة: ٤١]، فلما ذكر اسمه للتعريف قرنه بذكر الرسالة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فذَكَرَه ﷺ باسمه المجرد مقرونًا بما يدل على منزلته من الرسالة والنبوة.

♦ اقتران ذِكر النبي ﷺ بذكر الله تعالى

وقرن الله جَلَّ وَعَلَا ذكر اسمه بذكر نبيه ﷺ، فقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال: ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال: ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال مجاهد(١) في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]: «لا

(١) هو: أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، مفسر ومحدث وفقيه، توفي سنة (١٠٣هـ). ينظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٩٢).

أُذكَر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، وعن قتادة[(١)]: «رفع الله ذِكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهّد ولا صاحب صلاة إلا وينادي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، ذكر ذلك ابن جرير في تفسيره بأسانيده[(٢)].

وجاء من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت لك ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذُكِرتَ معي**»[(٣)].

وهذا الحديث لا يسلم من مقال؛ لأن في إسناده عند ابن جرير دراجًا -أبا السمح- عن أبي الهيثم، يقول ابن حجر في التقريب: «دراج، أبو السمح السهمي مولاهم المصري القاص، صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف»[(٤)].

وقال ابن كثير: «ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج»[(٥)]. وعلى كل حال الآية تشهد له.

قوله: «لا أُذكَر إلا تُذكر معي»، أي: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي، فهذا من رفعِ الله جَلَّ وَعَلَا لذكره ﷺ.

---

(١) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي البصري، من العلماء بالقرآن والفقه ومن حفاظ أهل زمانه، توفي سنة (١١٧ أو ١١٨ هـ). ينظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٥).

(٢) (٢٤/ ٤٩٤)، وينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢٤/ ٤٩٥)، وابن حبان (٣٣٨٢).

(٤) تقريب التهذيب (١٨٢٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٠).

وحكى البغوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره أن المراد بذلك الأذان، يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان بن ثابت:

أغـر عليـه للنبـوة خـاتم ** مـن الله مشـهود يلـوح ويشـهدُ

وضـم الإلـه اسـم النبـي إلى اسـمه ** إذا قـال في الخمـس المؤذن: أشـهدُ

وشـق لـه مـن اسـمه ليجلَّـه ** فذو العرش محمـود وهـذا محمـدُ[1]

وجاء في تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر ما تقدم، مما ذكر ابن جرير والبغوي: «وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوَّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شَهَرَ ذكره في أمته، فلا يُذكَر الله جَلَّ وَعَلَا إلا ذُكِر معه»[2].

ولكن هذا لا يعني أن يذكر اسم النبي ﷺ مقرونًا باسمه جَلَّ وَعَلَا بأن يذكر لفظ الجلالة «الله»، ويجعل بإزائه لفظ النبي ﷺ، سواء كان ذلك في محاريب المساجد أو ضمن زخارف البيوت.

ومن ينادي بمشروعية هذا العمل يُدخله في قوله: «لا أذكر إلا وتذكر معي» ويجعل هذا الحديث مبررًا لهذا الصنيع، وأن هذا من رفع ذكره ﷺ!

وهذا -مع الأسف- موجود بكثرة في مساجد المسلمين، وفي بيوتهم وفي منتدياتهم العامة والخاصة، وأشد من هذا أنه موجود من يذكر من المخلوقين غير النبي ﷺ مع الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/ ٤٦٤).

(٢) (٨/ ٤٣١).

أنا أقول: إن مثل هذه الكتابات والتعاليق على الستور وعلى الجدران مما تزخرف بها البيوت والمساجد، سواء كانت بأسماء الله جَلَّ وَعَلَا أم بأسماء نبيه ﷺ وأعظم من ذلك القرآن الكريم، هذا كله ليس عليه سلف هذه الأمة، وهو من الامتهان لآيات الله جَلَّ وَعَلَا، وقد صدرت الفتوى بمنع مثل هذا.

قد يقول قائل: أنا أجعل في المجلس آية الكرسي، ودعاء القيام من المجلس[(١)]؛ ليتذكر بها الغافل، فقد يكون بعض الناس ما حفظ آية الكرسي، فإذا علقناها وكثر تردادها لهم حفظوها، وكذلك دعاء كفارة المجلس يعلَّق ليتذكره الغافل أو ليحفظه الجاهل.

ولكن هل يكفي هذا التعليل لتسويغ مثل هذا العمل؟

نقول: كل عمل -لا سيما ما يتقرب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا- يحتاج إلى دليل يستند إليه في تشريعه.

♦ من مظاهر تكريمه وتعظيمه ﷺ

من مظاهر تكريمه وتعظيمه ﷺ ما يلي:

أولًا: الأمر بالصلاة والسلام عليه ﷺ، في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فهذا أمر، والأصل في الأمر الوجوب، لكن هل يقتضي هذا

---

(١) ويقال له: دعاء كفارة المجلس، وهو ما رواه أبو هررة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك**». أخرجه أبو داود (٤٨٥٨)، والترمذي (٣٤٣٣) وقال: «حسن صحيح».

التكرار بمعنى أنه كلما وجد السبب فذكر ﷺ يجب أن نصلي عليه، أو أن الوجوب والإثم يسقطان بمرة واحدة، ويبقى الأمر في الباقي ندبًا، فيستحب الصلاة عليه ﷺ كلما ذُكر بعد؟

هذا محل خلاف بين أهل العلم، ولا شك أن الأصل في الأمر الوجوب، علمًا أنه جاء ما يدل عليه من قوله ﷺ: «**البخيل مَن ذُكرت عنده فلم يصلِّ علي**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**رغِم أنفُ من ذكرت عنده فلم يصل علي**»[(٢)].

وأذكر هنا جملة من التنبيهات على أخطاء يقع فيها بعض الناس في الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

الأول: لا يتم امتثال الأمر إلا بلفظ الصلاة والسلام تامًّا، فإذا ذُكر تقول: «صلى الله عليه وسلم»، أو: «عليه الصلاة والسلام»، فلا تُختصر بحروف معينة أو بحرف مخصوص، ويقال: إن أول من كتب الرمز المختصر «صلعم» قطعت يده[(٣)]، ولا شك أن الاقتصار على الرمز -سواء كان هذا الاقتصار على الحروف الأربعة أو على حرف واحد- حرمان، ولا يتم به الامتثال.

الثاني: إن مما يؤسَف له أن تجد من الناس من يصلي على النبي ﷺ ولا يوضِّح بعض الحروف أو بعض الكلمات، ومثل هذا لا يتم به الامتثال، بل لا بد من تحقيق النطق بالصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٦) عن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان (٩٠٩)، والحاكم (٢٠١٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وأحمد (٧٤٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن خزيمة (١٨٨٨)، وابن حبان (٩٠٨)، والحاكم (٢٠١٦).

(٣) ينظر: تدريب الراوي (٢/٧٧).

الثالث: لا يتم الامتثال إلا بالجمع بين الصلاة والسلام، فتقول: «صلى الله عليه وسلم» أو «عليه الصلاة والسلام»، فلا يُكتفى بالصلاة دون السلام أو العكس، فبعضهم -أحيانًا- إذا طال الكلام ينسى السلام، فيقول مثلًا: «صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين»، وينسى: «وسلم»، كما فعل الإمام مسلم في صحيحه، ومنهم من يقتصر على قوله: «عليه السلام»، والامتثال لا يتم إلا بالجمع بينهما؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا أمر بهما جميعًا، فقال: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والنووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على صحيح مسلم أطلق الكراهة في الاقتصار على الصلاة دون السلام، أو السلام دون الصلاة[(١)].

والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الكراهة لا تتجه إلا بالنسبة لمن كان ديدنه ذلك، أي: أنه دائمًا وباستمرار يصلي ولا يسلم أو يسلم ولا يصلي، أما من كان أحيانًا يقتصر على الصلاة، وأحيانًا يقتصر على السلام، فهذا لا تتناوله الكراهة[(٢)]، وعلى كل حال الامتثال لا يتم إلا بالجمع بينهما.

هذا بالنسبة للصلاة والسلام عليه خارج الصلاة، وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة بعد التشهد فهو ركن من أركان الصلاة عند الحنابلة، لا تصح إلا به، فمن لم يصلِّ على النبي ﷺ فصلاته باطلة[(٣)].

---

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم (١/ ٤٤)، الأذكار (ص:١١٧).

(٢) ينظر: فتح الباري (١١/ ١٦٧).

(٣) وهو مذهب الشافعية أيضًا. ينظر: مغني المحتاج (١/ ٣٧٩)، المغني (١/ ٣٨٨).

ثانيًا: خصائصه ﷺ، فقد جعل الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه من الخصائص ما ليس لغيره من الأنبياء، والخصائص كثيرة، وصُنفت فيها المصنفات، وللسيوطي كتاب: «الخصائص الكبرى» في ثلاثة مجلدات، لكن كثيرًا منها لا يثبت، فقد اعتمد كغيره ممن ألف في الخصائص على أحاديث لا تثبت، وفيما ثبت عنه ﷺ الشيء الكثير مما يُستغنى به عما لا يثبت، وكذلك لأمته ﷺ ما ليس لغيرها من الخصائص من الأمم، مما جعلها خير أمة أخرجت للناس، فهذه الأمة المحمدية خير الأمم على الإطلاق، لكن شريطة أن تتصف بالأسباب التي من أجلها جُعلت خير أمة أُخرجت للناس، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن أهم الخصائص والمزايا التي جعلت هذه الأمة بهذه المثابة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا قُدمت في الآية على الإيمان ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير إيمان بالله جَلَّ وَعَلَا لا يصحان، بل من شرط صحتهما صدورهما ممن يؤمن بالله جَلَّ وَعَلَا، ولكن قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ للاهتمام بهما، والعناية بشأنهما، أما الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا فهو موجود في هذه الأمة وفي غيرها من الأمم.

ومن خصائصه ﷺ أن الله جَلَّ وَعَلَا جعل الناس يحشرون تحت لوائه فهو حامل لواء الحمد، والأمم تفزع إليه؛ لتفريج هَمِّ الموقف، فهم يتجهون أوَّلًا إلى آدم فيعتذر، ثم يتجهون إلى نوح فيذكر عذره، ثم يتجهون إلى إبراهيم ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون إلى النبي ﷺ لتخليصهم من هذا الموقف، فيقول ﷺ كما في

الحديث الصحيح: «**أنا لها**»[١]، ولا شك أن هذه مزية له، وشرف عظيم فاق به الأنبياء.

وهنا تأتي مسألة التفضيل بين الأنبياء.

هو ﷺ كما قال عن نفسه: «**سيد ولد آدم، ولا فخر**»[٢]، فهو أفضل الأنبياء وأشرف المرسلين، وأما ما جاء عنه ﷺ من النهي عن التفضيل بين الأنبياء في قوله ﷺ: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**»[٣]، وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[٤] إنما يتجه إذا اقتضى التفضيل تنقص المفضول، وإلا فالقرآن الكريم مصرح بالتفضيل كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وجاء في النصوص ما يدل على فضله ﷺ وهو أعلم الخلق وأتقاهم، وأخشاهم لله عَزَّوَجَلَّ وهو أشجع الناس، وهو أكرم الناس، كما جاء بذلك الأحاديث الصحيحة[٥]، وغير ذلك من الأخلاق والشمائل التي اجتمعت فيه

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٥)، ومسلم (٢٣٧٧) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) منها حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه وهي تسمع من وراء الباب فقال: يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم**»، فقال: لست مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى**». أخرجه مسلم (١١١٠).
وثبت أيضًا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس» أخرجه البخاري

ﷺ مما شمله قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا لما سئلت عن خلقه ﷺ: «كان خلقه القرآن»(١)، أي: أنه ترجمة عملية لما جاء في القرآن من امتثال تام للأوامر، واجتناب للنواهي.

ثالثًا: الله كافي رسوله من المستهزئين:

الله جَلَّ وَعَلَا كفى رسوله المستهزئين، وعصمه من الناس، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر الله، ولا تخف شيئًا سوى الله، فإن الله كافيك من ناصبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قومًا من قريش معروفين»(٢). ثم ذكر ابن جرير في تفسيره بأسانيده نفرًا منهم، وأن الله جَلَّ وَعَلَا كفاه شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، وأهلكهم الله تعالى، وهم من قومه من قريش، وهكذا على مر العصور تجد من لا يتدين بهذا الدين يحصل منه الاستهزاء بالدين وبشعائره وبرمزه الأعظم الذي هو النبي ﷺ، فوجد في عصره ﷺ من كان يسخر ويستهزئ، ويعتذر بأنه يلهو ويمزح: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وتجد من المستشرقين وغيرهم نبزًا وأحيانًا تصريحًا، ووجد من بعض الفساق ممن ينتسب إلى هذا الرسول العظيم -مع الأسف- بعض الاستخفاف به ﷺ أو بشيء من سنته، وشعائر دينه، وهؤلاء سلفهم الذين

(٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١) واللفظ له.

(٢) تفسير ابن جرير (١٧/ ١٥٣).

حكم عليهم الله جَلَّ وَعَلَا بالكفر؛ لأنهم منافقون، بل إن الكفار في عصره ﷺ وصفوه بأنه ساحر، وأنه كاهن، وأنه صابئ إلى أوصاف كثيرة جاءت بها النصوص، وفي أيامنا الأخيرة قام ثلة من عباد الصليب من النصارى بإعادة ما كفاه الله جَلَّ وَعَلَا إياهم، فنشروا صورًا مسيئة لشخصه ﷺ فهذه الصور أثارت حفيظة المسلمين وأغضبتهم وأعلنوا نكيرهم وشجبهم لهذا المنكر، والداعي لهذه التصرفات -في تقديري- ما أغاظهم وأثارهم من انتشار الإسلام، فضاقت عليهم دياره ، فقد صار الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، ولم يكن بأيدي أولئك إلا أن يشوهوا هذا الدين، وأن يشوهوا هذا النبي الكريم الذي جاء بهذا الدين، فالداعي لهذه التصرفات المشينة من تلك الطغمة المقيتة الانتشار الواسع للإسلام في بلادهم، فأرادوا بذلك الصد عن دين الله.

وهذا الحدث -وهو الصور المسيئة- وإن كان منكرًا يجب إنكاره، ولا يجوز إقراره، ولا يجوز لمسلم أن يرضى به، أو يسكت عن إنكاره وهو يقدر على ذلك إلا أنه وقعت به مصالح عظيمة للإسلام، وللمسلمين أنفسهم.

أما بالنسبة للإسلام فقد ازداد السؤال عن النبي ﷺ من قِبل الكفار أنفسهم، واطلعوا على شيء من سيرته، ما أدى في كثير من الحالات إلى دخول العقلاء منهم في الإسلام.

وأما بالنسبة للمسلمين فقد عرفوا عدوَّهم، وعرفوا ما يكنه الكفار لهم من العداوة والبغضاء والحنق على الدين وأهله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وأنهم مهما طنطنوا بالمساواة والعدالة والإخاء فهذا كله هباء لا قيمة له، وتبقى عداوة الدين مغروسة في النفوس.

وكان في هذا الحدث أيضًا إيقاظ للمسلمين أنفسهم؛ فكثير من المسلمين يقولون في كل لحظة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، ويزعمون اتباع النبي ﷺ ومع هذا يسيطر عليهم وعلى بيوتهم الجهل المطبق بالنبي ﷺ فلا يعرفون إلا اسمه، فدَفَعهم ذلك إلى أن يراجعوا أنفسهم، ويقرؤوا في سيرته وشمائله وخصائصه ويزدادوا منها؛ ليتسنى لهم الاقتداء به، وتتوفر محبته في قلوبهم، ولو لم يكن من ذلك إلا ما سمعوه عبر وسائل الإعلام المتنوعة والخطب والدروس وغيرها لكفى.

ومع الأسف تقلصت الدروس المتعلقة بسيرته ﷺ وشمائله وخصائصه حتى في دروس العلم ، فلا نكاد نسمع من يدرس السيرة إلا القليل النادر، وحتى في الدراسات النظامية ما أعطيت السيرة حقها من الدراسة، بل إن بعضهم يجعل السيرة جزءًا من أجزاء التاريخ، فلا يعتني بها الاعتناء المطلوب، ويزعم اعتناءه بأمور الشرع، وهذا خطأ؛ لأن السيرة جزء من السنة، فالسنة والحديث عبارة عن أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريره وأوصافه الخُلقية والخَلقية، فهذا جزء من السنة ولا بد من معرفته، وكيف يتسنى لنا أن نتبع، وأن نعمل، وأن نحب الرسول ﷺ ونحن لا نعرف عنه شيئًا؟! فلا بد إذًا من الاهتمام بهذا الجانب.

وبحمد الله حصل للمسلمين معرفةٌ بسيرة النبي ﷺ ضد ما قصده أولئك الأعداء؛ فمن خلال وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية، ومن خلال الخطب والدروس والمحاضرات وغيرها سمع المسلمون وقرؤوا عنه ﷺ الشيء الكثير، والتفت كثير من طلاب العلم إلى دراسة هذا الجانب من جوانب الشريعة المهمة المتعلقة بشخصه ﷺ.

رابعًا: وجوب محبة النبي ﷺ:

أوجب الله جَلَّ وَعَلَا محبة محمد ﷺ على عباده، وتقديمه على كل شيء، ففي الحديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١).

وفي الصحيح أيضًا من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال له النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(٢).

وهنا قد يستغرب البعض كون عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استثنى نفسه في أول الأمر، ومقتضى ذلك أن نفسه أحب إليه من الرسول ﷺ، ثم في ثوانٍ انقلب الأمر فصار النبي ﷺ أحب إليه حتى من نفسه، وقد يظن بعض من يسمع هذا الحديث أن هذا خلاف الواقع، أو أنه قال ذلك مجاملة قياسًا على عمل بعض الناس ممن يقسم لغيره أنه أحب إليه من كل شيء، والواقع خلاف ذلك.

وهذا كله لا يُظن بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمثاله من الصحابة، ويرُدُّ هذا الظن أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال هذا الكلام بحضرة المؤيد بالوحي ﷺ، فلو كان في هذه المحبة أدنى دخَل أو عدم مطابقتها للواقع لنـزل الوحي ببيان ذلك وكشفه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

يوضح هذا أن الزوجة مثلًا قد تجد من زوجها ما يحببه إليها، فتقسم له إنه أحب إليها من نفسها، والعكس صحيح، فقد يجد الرجل من زوجته ما يحببها إليه فيقسم لها إنها أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة إن كانت مبنية على مصالح دنيوية زالت بزوالها، بل قد تنقلب إلى عداوة، لكن محبة عمر للنبي ﷺ مبنية على شيء لا يزول وهو الدين، الذي هو رأس المال، فنحن ما عرفنا الله جَلَّ وَعَلَا، ولا عرفنا كيف نعبده سبحانه إلا بواسطته ﷺ وما جاء به عن الله جَلَّ وَعَلَا، وكل خير وصل إلينا ويوصلنا إلى مرضات الله جَلَّ وَعَلَا إنما هو من طريقه ﷺ فلا مصدر لنا غير ما جاء به من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ التي هي في الحقيقة وحي يوحى، فهو الذي أخذ بأيدينا، وهو الذي دلنا على هذا الصراط المستقيم الموصل إلى الله جَلَّ وَعَلَا نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن ييسره لنا، وأن يديمنا على سلوكه من غير غلو ولا تقصير.

إذا عرفنا هذا فالنبي ﷺ له حقوق عظيمة، فمحبته التي تقدمت لا بد أن تكون أعظم عند الإنسان من محبة نفسه، والمراد بذلك المحبة الشرعية، وهذه المحبة تترجم بتقديم مراده ﷺ وأمره على مراد غيره وأمره، فإذا طلبت الزوجة شيئًا مما منعه الرسول ﷺ ولبى الزوج الطلب وأحضر المطلوب هل هذا صادق في دعواه محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فدعوى محبة الرسول ﷺ يبطلها موافقة الشخص على طلب العمل المحرم، ويصدقها رفضه له.

وكذلك لا محبة إلا باتباع، فالمحبة المجردة عن الاتباع هي مجرد دعوى. فالذي يتخاشع بين الناس إذا ذكر النبي ﷺ؛ ليظهر لهم أنه محب للرسول ﷺ، وإذا جاءت المناسبات التي تذكِّر بالنبي ﷺ كموالد وغيرها، بذل من نفسه ما يبذل، مما يشق عليها ومما لا يشق، فهذا غير صادق في محبته.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ** هذا لعمري في القياس شنيعُ
لو كان حبك صادقًا لأطعته ** إن المحب لمن يحب مطيعُ(١)

♦ علامة محبة الرسول ﷺ

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمنا الله وإياهم أجمين-: «يصدق هذه المحبة أمران:

أحدهما: تجريد التوحيد، فإنه ﷺ كان أحرص الخلق على تجريده، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله، من جميع الجهات، حتى قال له رجل، ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله ندًا، بل ما شاء الله وحده**»(٢) ونهى أن يحلف بغير الله(٣)، فتعظيمه إنما يكون بمتابعته وموافقته لا بمناقضته ومخالفته.

الأمر الثاني: تجريد المتابعة له ﷺ وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه، والرضا بحكمه، والانقياد والتسليم والإعراض عما خالفه»(٤)، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) البيتان مشهوران، ونُسبا لأكثر من واحد، والأكثر على أنهما لمحمود الوراق المتوفى سنة ٢٣٠هـ تقريبًا، ينظر: الكامل للمبرد (٢/ ٤)، الإيجاز والإعجاز للثعالبي (ص: ١٧٩)، بهجة المجالس لابن عبد البر (١/ ٨٦). والمشهور فيهما: (بديع) مكان (شنيع).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٩).

(٣) ورد في هذا المعنى عدة أحاديث، منها: حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**». أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٦٣).

♦ الغلو في الرسول ﷺ

لقد جعلنا الله سبحانه أمة وسطًا، ومنهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط في جميع التصرفات، فهم وسط بين الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ولهذا كان علينا أن نتوسط في جميع أمورنا، ومن ذلك ما يتعلق بالنبي ﷺ، فقد عرفنا مما سبق مكانة الرسول ﷺ، وبما أننا أمة الوسط فإننا لا نغلو فيه ﷺ ولا نجفو عنه، فالرسول ﷺ أحب إلينا من أنفسنا، ومن جميع محبوباتنا، ومع ذلك لا يجوز أن نصرف له شيئًا من حقوق الله جَلَّ وَعَلَا كما نهانا عن ذلك هو ﷺ، ففي الصحيحين وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١).

والإطراء: «مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه» قاله ابن الأثير(٢).

وقال غيره: أي لا تمدحوني بالباطل، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي، كما غلت وجاوزت النصارى في عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فادَّعوا فيه الربوبية، وإنما أنا عبدالله فصِفُوني بذلك كما وصفني به ربي، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، فهو عبد لله جَلَّ وَعَلَا(٣).

وقد افترقت الأمة في هذه المسألة إلى طرفين ووسط: طرف غلوا فيه ﷺ وطرف جفوا، والوسط هم الذين عرفوا قدره وعظموه ووقروه وأحبوه أشدّ من أنفسهم ومن أي محبوب؛ من والد وولد ومن الناس أجمعين، لكنهم عرفوا حقوق الله جَلَّ وَعَلَا فلم يصرفوا لنبيه ﷺ شيئًا من حقوقه.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٢٣).
(٣) ينظر: شرح القسطلاني (٥/ ٤١٧).

فأبى الغلاة إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، وظنوا أنهم إذا وصفوه بأنه عبد الله ورسوله، وأنه لا يدعى ولا يستغاث به ولا ينذر له، ولا يطاف بحجرته ولا قبره وأنه ليس له من الأمر شيء، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ظنوا أنهم لم يقدروه قدره.

وظنوا كذلك أنهم إذا اعتقدوا أنه ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله جَلَّ وَعَلَا أن في ذلك هضمًا لجنابه ﷺ وغضًّا من قدره فرفعوه فوق منـزلته، وادَّعَوا فيه ما ادَّعتِ النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو قريبًا منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب!

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الاستغاثة عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالنبي ﷺ في كل ما يستغاث به الله جَلَّ وَعَلَا، وصنف في ذلك مصنفًا، وكان يقول: إن النبي ﷺ يعلم مفاتيح الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، وحكى شيخ الإسلام عن آخر من جنس هذا القائل يباشر التدريس وينسب إلى الفتيا أنه كان يقول: إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله جَلَّ وَعَلَا ويقدر على ما يقدر عليه الله تعالى، وأن هذا السر وهذا العلم وهذه القدرة انتقلت بعده إلى الحسن، ثم انتقل في ذرية الحسن إلى أبي الحسن الشاذلي، وقالوا: هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع[(١)].

وذكر شيخ الإسلام في منهاج السنة أنه وجد من أَلَّف في مناسك المشاهد، نسأل الله السلامة والعافية، فجعلوا هذه المشاهد بمثابة بيت الله، الكعبة المشرفة[(٢)].

---

(١) ينظر: الاستغاثة (ص: ٤٢٥) وما بعدها، مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٥).

(٢) قال شيخ الإسلام: «وقد صنف شيخهم -أي الرافضة- ابن النعمان المعروف عندهم بالمفيد - وهو شيخ الموسوي والطوسي- كتابًا سماه: مناسك المشاهد، جعل قبور المخلوقين تحج كما تحج الكعبة». منهاج السنة (١/ ٣٤١).

ولا يقال إن هذه الأمور انتهت، وإن هذه الفئة انقرضت كما انقرض غيرها من الطوائف، فلكل قوم وارث، فقد سمعت بأذني من يقول في أقدس البقاع: «يا أبا عبد الله، جئنا بيتك، وقصدنا حرمك، نرجو مغفرتك»، بل إن أحدهم ممن يشار إليه بالعلم اقتنى كتاب تلخيص الاستغاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية، فشطب كلمة «الإسلام» في لقبه ووضع مكانها كلمة: «الكفار»، فأصبحت: «شيخ الكفار»، لمخالفته له في كون الاستغاثة من أنواع العبادة التي لا تصرف إلا لله جَلَّ وَعَلَا، فهذه الفئة لا زالت موجودة إلى الآن.

ومن الأمثلة التي تذكر في هذا المجال وهو الغلو الذي يجاوز الحد بل يحكم على صاحبه بأنه صرف للنبي ﷺ: العبودية التي لا يجوز صرفها إلا لله جَلَّ وَعَلَا ونسب له علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ومن ذلك قول البوصيري في بردته الشهيرة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ** ومن علومك علم اللوح والقلم[1]

فجعل الدنيا والآخرة من جوده ﷺ، وجزم بأنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي حكاه شيخ الإسلام عن ذلك المدرّس، وكل ذلك كفر صريح، ومن العجب أن الشيطان أظهر ذلك لهم في صورة محبته ﷺ وتعظيمه ومتابعته، وهذا شأن اللعين إبليس، فهو لا يأتي مباشرة إلى المخالفة الواضحة ويأمر المسلم بارتكابها، بل يمزج الحق بالباطل ليروج على أشباه الأنعام أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، ولو جاء بالباطل مجردًا لما

(١) وقد رد عليه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين في رسالة لطيفة. ينظر: الرد على البردة (ص: ٢٨).

راج. فهذا ليس بتعظيم، فإن التعظيم محله القلب واللسان والجوارح، وهم أبعد الناس منه، فإن التعظيم بالقلب يتبع اعتقاد كونه ﷺ عبدًا رسولًا.

كذلك من يقرأ في الرحلات يجد فيها الشيء الكثير من هذا الغلو المخرج عن الدين، وهو صرف العبادة المحضة للنبي ﷺ ولغيره ممن يدعى فيه الصلاح، ففي رحلة ابن بطوطة مثلًا تجده يصرف الأيام والليالي في صعود الجبال لينظر إلى موضع قدم رجل صالح، والتقى بأناس ادعى فيهم الصلاح وأنهم يديرون الكون ويصرفونه، -نسأل الله السلامة والعافية-، والأمثلة من هذا كثيرة، حتى لو أن شخصًا يدرس كتاب التوحيد للإمام المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واحتاج إلى أمثلة لما يناقض هذا الكتاب لوجد في رحلة ابن بطوطة الشيء الكثير، ومع ذلك هي تدرس في بعض الجهات والله المستعان.

ومن مظاهر الغلو عناية بعض الجهات بالكتب التي فيها شيء من الغلو والإطراء للنبي ﷺ، ومن الأدلة على ذلك طباعة هذه الكتب بطريقة أعظم مما يطبع به المصحف الشريف، وقد وقعت في يدي نسخة من «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار»(١) طبعت بشكل لا يخطر على بال. ومع أنها صلوات على النبي ﷺ إلا أنه لم يرد بها نص، ولم يثبت في تحديدها وتحديد أوقاتها وأماكنها وزمانها دليل يعتمد عليه، فهي صلوات مبتدعة، ولذا يأمر أهل العلم بتحريق مثل هذا الكتاب.

وأيضًا «الشفاء» للقاضي عياض يطبع كطباعة المصحف، حتى الدوائر الزخرفية التي بين الآيات وضعت فيه نظيرًا لها بين الجمل، فكان في هذا مطابقة

(١) لمحمد بن سليمان الجزولي (٨٧٠هـ)، وهو كتاب مملوء بالمخالفات الشرعية.

تامة لطبع القرآن الكريم، ووقعت بيدي نسخة من «الشمائل النبوية» للترمذي طبعت طبعةً قريبة مما تقدم.

لا شك أن المبالغة في إخراج هذه الكتب يدل على شيء، وليس معنى هذا أننا ندعو إلى إهمال الكتب المتعلقة بسيرته ﷺ وشمائله وخصائصه كما يزعم بعضهم، فقد وقع في يدي قبل سنين كتاب اسمه: «جؤنة العطار»(١)، يرمي أئمة الدعوة وعلماء هذه البلاد بأنهم جفاة، وأن أحدهم يقول: «إن عصاه أنفع له من النبي ﷺ»، سبحانك هذا بهتان عظيم، ويستدل على ذلك بأننا لا نقرأ في الشفاء(٢)، والمواهب(٣)، ودلائل الخيرات ونحوها.

والحق أن العلماء في هذه البلاد يعنون بجانب التوحيد وسد الذرائع الموصلة إلى الشرك وإلى ارتكاب ما نهى عنه النبي ﷺ من الإطراء والغلو في المديح، وأن في الكتب السابقة الذكر شيئًا من ذلك، ففي بعض شروح الشفا تفضيل الحُجرة على العرش(٤)، وأما ما في هذه الكتب من الأدلة الصحيحة فهو موجود في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وما صح من سنته ﷺ.

---

(١) هو كتاب: «جؤنة العطار في طرف الفوائد ونوادر الأخبار»، لأحد المتأخرين.

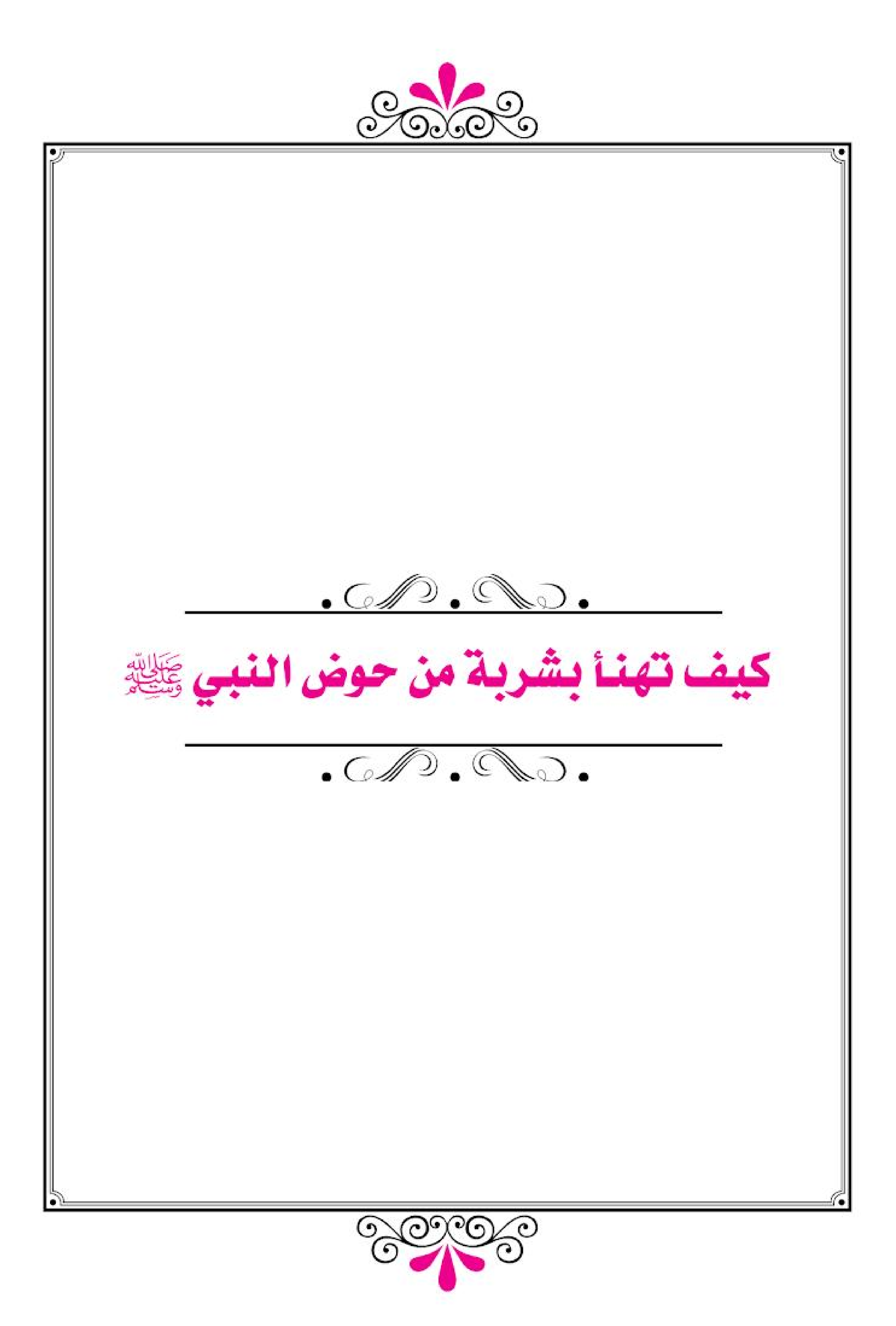
(٢) هو كتاب: «الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (٤٧٦هـ - ٥٤٤هـ).

(٣) هو كتاب: «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» لأحمد بن محمد القسطلاني (١٠٥٥هـ-١١٢٢هـ).

(٤) قال أحمد بن محمد الخفاجي (١٠٦٩هـ) في كتابه «نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض» (١٢١/٥): «(ولا خلاف) بين العلماء والمحدثين في (أن موضع قبره) أي الموضع الذي قبره فيه ﷺ، وضم جسده الشريف (أفضل من) سائر (بقاع الأرض) كلها، بل هي أفضل من السماوات والعرش والكعبة كما نقله السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لشرفه ﷺ، وعلو قدره».

ولا يعني هذا أننا لا نستفيد من هذه الكتب، بل نستفيد منها، ويُقر الحق ويُزيف الباطل، ونكون في جميع أمورنا متوسطين، لا نغلو ولا نجفو، فعلينا أن ننظر إلى مثل هذا الموضوع كغيره من الموضوعات بعيني البصيرة، بالعينيين كلتيهما، فلا ننظر من زاوية ونترك أخرى، بل ننظر إلى نصوص الكتاب والسنة الدالة على تعظيمه ﷺ فنقدره ونحبه أكثر مما نحب أنفسنا، ونعظمه، فلا نقصر في حق النبي ﷺ خشية أن نقع في الغلو وننظر إلى أدلة الكتاب والسنة التي بينت حقوق الله سبحانه، فكوننا نرى نصوصًا تدل على تعظيم النبي ﷺ لا يعني هذا أننا نصرف له شيئًا من حقوق الرب جَلَّ وَعَلَا، بل علينا أن نتوسط ونعمل بجميع ما جاءنا عن الله وعن نبيه ﷺ في هذا الباب، وفي غيره من أبواب الدين، ودين الله جَلَّ وَعَلَا بين الغالي والجافي، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، نبينا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين.



كيف تهنأ بشربة من حوض النبي ﷺ

كيف تهنأ بشربة من حوض النبي ﷺ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمن الموافقات أنْ كانت هذه المحاضرة في الوقت الذي تتايع[١] فيه الكفار على الإساءة لنبينا ﷺ بألوانٍ من الإساءات.

ولا ييتئس المسلمون في عموم الأقطار بهذه الأفاعيل، فإن هذه المحنة والنازلة التي تمثلت في سب النبي ﷺ، والنيل منه هي في حقيقتها وثمرتها خير، وإن كانت شرًّا في ظاهرها، فإذا كان الكلام في عرضه ﷺ -كما في قصة الإفك- جاء في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] مع أنّ الكلام في العرض أشد من الكلام في ذات الشخص، فإنّ الكلام في ذاته ﷺ خير في عاقبته من باب أولى، ومظاهر الخيرية في قضية سبه ﷺ -فداه أبي وأمي والناس أجمعين- ظاهرة جدًّا، فبيوت المسلمين فضلًا عن غيرهم في غفلةٍ شديدة عن معرفة سيرته ﷺ، بل كثير من المسلمين لا أبالغ إذا قلت: إنه لا يعرف عن النبي ﷺ إلا مجرد اسمه، فلا يعرفون عن سيرته أكثر مما درسوه في المراحل الأولى من التعليم، وهو شيء لا يفي ولو بجزء يسير من حقه ﷺ، فلا يوجد لدى الناس اليوم اهتمام بالسيرة والشمائل، ولا بالخصائص والمعجزات ودلائل نبوته ﷺ، وهو أكرم خلق الله على الله.

---

(١) التتايع في الشيء وعلى الشيء: التهافت فيه والمتابعة عليه والإسراع إليه، والتتايع في الشر كالتتابع في الخير. المحكم (٢/٢٢٧).

فمثل هذا الحدث الجلل هو شر -بلا شك- في ذاته وظاهره، ولا يرضي مسلمًا ولا يُفرحه، لكن إذا وقع فالواجب تلقيه بالرضا والتسليم بها قدر الله جَلَّ وَعَلَا، والنظر في نتائجه الحميدة، والجزم بأن العاقبة للمتقين، فمن ثمرات هذه الإساءة أنها أيقظت الحمية في نفوس أهل الإسلام في جميع أقطار الأرض؛ لأنها لامست أحاسيسهم ومشاعرهم، وباشرت قلوبهم فهبوا لنصرة النبي ﷺ، ورجعوا يقرؤون في سيرته ﷺ، ويتعرفون على صفاته وخصاله، ويتعلمون من سنته.

فرأينا وسمعنا مِن تعاضد المسلمين وتوحدهم، واتخاذ المشاريع الجبارة لنصرة نبيهم ﷺ والدفاع عنه، والذب عن شخصه، في الداخل والخارج ما يثلج الصدور، وبقي علينا أن نفهم ونعنى بسيرته وسنته ﷺ لنتمكن من اتباعه حق الاتباع، فإن مجرد الدعاوى لا تكفي، والعواطف دون عمل لا تغني، بل لا بد من العمل، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكل من ادعى محبته ﷺ وهو مقيم على مخالفته، كاذب في دعواه، يقول الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ** هذا لعمري في القياس شنيعُ

لو كان حبك صادقًا لأطعته ** إن المحب لمن يحب مطيعُ[١]

ومن طاعته ﷺ الاعتناء بسنته، والإيمان بما ثبت من خصائصه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وطاعته ﷺ من أسباب الحصول على نعمة من نعم الله على العباد يوم القيامة، وهي إذهاب العطش في هذا اليوم بشربة من حوض النبي ﷺ.

---

(١) البيتان مشهوران، ونُسبا لأكثر من واحد، والأكثر على أنهما لمحمود الوراق المتوفى سنة ٢٣٠هـ تقريبًا، ينظر: الكامل للمبرد (٤/٢)، الإيجاز والإعجاز للثعالبي (ص: ١٧٩)، بهجة المجالس لابن عبد البر(٨٦/١). والمشهور فيهما: (بديع) مكان (شنيع).

♦ الحوض من الأمور الغيبية التي لا بد من الإيمان بها

الحوض من الأمور الغيبية التي لا بد من الإيمان بها، وقد جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي صحيح مسلم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الطويل: «فسأله [أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ] عن الإيمان، فقال له: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**»[(١)] فذكر في تفسير الإيمان: الأركان الستة التي منها الإيمان باليوم الآخر، فلا يصح إيمان عبدٍ إذا لم يؤمن باليوم الآخر وكل ما فيه من الغيبيات، ومن هذه الغيبيات حوض النبي ﷺ، وقد أجمع على ثبوته واعتقاده كلُّ من يُعتدُّ بقوله من أهل الإسلام[(٢)]، وأنكرته الخوارج وبعض المعتزلة؛ لأنهم يقدمون العقول والآراء على ظواهر النصوص[(٣)].

وثبوت الحوض بأدلة قطعية متواترة على ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

♦ الإشارة إلى الحوض في القرآن الكريم

وقد جاءت الإشارة غير الصريحة إلى الحوض في القرآن الكريم، في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر]، ومن العلماء من يفسر الكوثر بالحوض، وأما الصراحة فقد جاءت في الأحاديث القطعية التي يزيد رواتها من صحابة النبي ﷺ على خمسين راويًا، ومن المناسب للظرف الذي نعيش فيه التعرض لتفسير سورة الكوثر بكاملها؛ لأهميتها واتصالها بما نحن فيه.

---

(١) حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم(٩)، وحديث عمر أخرجه مسلم (٨).

(٢) ينظر: الإقناع في مسائل الإجماع (١/ ٥٢).

(٣) ينظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٧).

♦ تفسير سورة الكوثر

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾ بضمير الجمع، والمتكلم واحد، هو الواحد الأحد، الصمد، الله جَلَّ وَعَلَا، والعرب -كما يقول البخاري في صحيحه في تفسير ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾- توكد فعل الواحد فتجعله بلفظ الجميع؛ ليكون أثبت وأوكد[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَٰكَ﴾ أعطاه الله جَلَّ وَعَلَا الكوثر وبشره به قبل وقته، ففي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بيْنا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي آنفًا سورة فقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

فالله جَلَّ وَعَلَا أعطاه الكوثر، ولا يقال: إن الكوثر لا حاجة إليه قبل يوم القيامة، كما تقول المعتزلة في الجنة والنار إنهما تخلقان عند الاحتياج إليهما بعد قيام الساعة[(٣)].

وهذا ضلال، مخالف للمقطوع من نصوص الكتاب والسنة، ويقال مثله في الحوض، فقد صحت به النصوص القطعية، فلا يتوقف وجوده وتبشير النبي ﷺ به على الحاجة إليه والشرب منه في العرصات.

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٧٥).
(٢) مسلم (٤٠٠).
(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٨).

﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ فَوْعَلٌ من الكثرة، واختلف العلماء في تفسير الكوثر، فقال بعضهم: هو نهر في الجنة أعطاه الله نبيه محمدًا ﷺ، وهذا روي عن ابن عمر وابن عباس وعائشة وأنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ومجاهد وجمع من التابعين.

وقال آخرون: هو الخير الكثير، وهذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير[(١)] وعكرمة ومجاهد، وقال عكرمة: «هو الخير الذي أعطاه الله النبوة والإسلام»[(٢)].

وقال آخرون: هو حوض أُعطِيَه رسولُ الله ﷺ في الجنة، وهذا روي عن عطاء[(٣)].

ورجح الطبري أنه اسم النهر الذي أعطيه رسول الله ﷺ في الجنة وصفه الله بالكثرة؛ لعظم قدره، ثم ساق بأسانيده إلى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «قال رسول الله ﷺ: «**لما عُرِجَ بي إلى السماء، أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك**»[(٤)].

وفي تفسير الرازي يقول: «ووجه التوفيق بين القولين -يعني ما جاء من أنه نهر وما جاء من تفسيره بالحوض- أن يقال: لعل النهر يصب في الحوض، أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض، فيكون ذلك الحوض كالمنبع لهذه الأنهار»[(٥)].

---

(١) أخرجه عنهما البخاري في صحيحه (٦٥٧٨).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٤٨).
(٣) ينظر هذه الأقوال: تفسير الطبري (٢٤/٦٤٦-٦٤٩).
(٤) ينظر: تفسير الطبري (٦٥١/٢٤) وحديث أنس هذا في سنن أبي داود (٤٧٤٨)، والترمذي(٣٣٦٠)، وهو في البخاري(٦٥٨١) بنحوه.
(٥) تفسير الرازي (٣٢/٣١٣).

وفي تفسير القرطبي يقول: «العرب تسمي كل شيءٍ كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا، قال سفيان[(١)]: قيل لعجوزٍ رجع ابنها من السفر: بما آب ابنك؟ قالت: بكوثر، أي بمالٍ كثير، والكوثر من الرجال السيد الكثير الخير»[(٢)]، ثم قال: «واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي ﷺ على ستة عشر قولًا»[(٣)] وقال: إن أصح تلك الأقوال قولان: أنه نهر في الجنة، والثاني: أنه حوض النبي ﷺ في الموقف.

فالكوثر نعمة للنبي ﷺ، ولأمته من بعده، ممَّن اقتدى به ﷺ، ولم يحد عن سنته ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أمرٌ بالصلاة، والصلاة شكر، ولذا لما قيل له ﷺ في صلاته، وقد قام حتى تفطّرت قدماه، وعوتب ﷺ ليخفف عن نفسه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!**»[(٤)]، فدل على أن الصلاة شكر للمنعم على ما أعطاه وأسداه من هذه النعم الجليلة التي منها الحوض.

ومن أهل العلم من حمل هذا الأمر بالصلاة على أنها صلاة العيد، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ أي: نسكك أو أضحيتك، فهذا أمر بالصلاة التي هي

---

(١) كذا في القرطبي وعمدة القاري للعيني، وفي تهذيب اللغة (١٠/ ١٠٣)، لسان العرب (٥/ ١٣١) وغيرهما: «قال عبد الكريم أبو أمية».

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٦).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٦).

(٤) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

صلاة العيد، ونحر الهدي والأضاحي، وصلاة العيد لهذا الأمر أوجبها من أوجبها من أهل العلم كالحنفية، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، فرجحوا هذا للأمر الوارد، ولأن النبي ﷺ داوم على صلاة العيد، ولم يذكر عنه أنه تركها، وكذلك داوم عليها خلفاؤه من بعده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولأنه ﷺ أمر النساء بالخروج إليها، فمثل هذه النصوص تقوي القول بوجوب صلاة العيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ المراد به الأضحية والهدي، فمن الهدي ما يجب، ومنه ما يستحب، أما الأضحية فقد اختلف فيها أهل العلم، والجمهور على أنها سنة، وليست بواجبة، ومن أهل العلم من أوجبها لهذا الأمر(٢).

وهذا الأمر بالصلاة والأضحية في هذه السورة إنما هو في عيد الأضحى، وأما عيد الفطر ففيه جاء قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، فقوله تعالى: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: دفع زكاة الفطر، ثم صلى صلاة العيد، وتقديم الزكاة في ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ على الصلاة فيه دليل على أن زكاة الفطر تؤدى قبل صلاة العيد، وبهذا جاءت النصوص الصحيحة عن النبي ﷺ، بخلاف ما في سورة الكوثر: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فالصلاة هنا قبل النحر، وبهذا جاءت السنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الشانئ: هو المبغض، يعني: من يبغضك يا محمد ويشنؤك هو الأبتر، أي: الأقطع المحوق بركة دنياه وأخراه، فالشنآن هو البغض، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦٢).

(٢) ينظر: ما سبق.

♦ الشك في وجود الحوض سبب للمنع من الشرب منه

ويوجد من يماري في الحوض، ومن ينكره، بل يسخر من بعض رواة هذا الحديث من الصحابة، ففي سنن أبي داود أن أبا برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل على عبيد الله بن زياد، فلما رآه عبيد الله قال: إنَّ محمديكم هذا الدحداحُ، -بهذا نسبه إلى النبي محمد ﷺ كأنه يزدريه ويتنقصه بصحبته للنبي ﷺ -، ففهمها الشيخ، فقال: ما كنت أحسب أني أبقى في قوم يعيروني بصحبة محمد ﷺ، فقال له عبيد الله: إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين، قال: إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض، سمعتَ رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئًا؟ فقال له أبو برزة: «نعم لا مرة، ولا ثنتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خمسًا، فمن كذَّب به فلا سقاه الله منه، ثم خرج مغضبًا»(١).

ومثل هذا الشكّ والتنقص من الإحداث والتغيير الذي يكون سببًا لحرمان صاحبه من الشرب من هذا الحوض، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي مصنف عبد الرزاق عن عبد الله بن بريدة الأسلمي قال: شك عبيد الله بن زياد في الحوض، وكانت فيه حرورية، فقال: «أرأيتم الحوض الذي يذكر ما أراه شيئًا...»، ثم ذكر معنى القصة السابقة(٢).

وسمع أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قومًا يتذاكرون الحوض ويتمارون فيه يعني: كل واحد منهم يأتي برأيٍ يخترعه من عنده، فقال: «ما كنت أرى أن أعيش حتى

---

(١) (٤٧٤٩).

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٢٠٨٥٢). والدحداح: القصير السمين، وهكذا كان أبو برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ»[(١)].

والأصل في هذه المسائل أنها مسائل تسليم؛ لأنها مما لا يدرك بالرأي، فلا بد من الرضا والتسليم، والمقرر عند أهل العلم: أن قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم، ومن أراد أن يعرض ما صحت به الأخبار على عقله فإن عقله سيقوده -ولا بدَّ- إلى الضلال، وما انحرف من انحرف من المبتدعة إلا لما تركوا الاعتصام بالكتاب والسنة، واعتمدوا على الآراء وأقوال الرجال.

وقد يقول قائل: الحديث الذي صح عن النبي ﷺ في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، ذكر النبي ﷺ أول الحديث ثم دخل إلى بيته فتذاكر الناس: يعني أخذوا يتوقعون، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ، وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يدركوا الجاهلية، وقال بعضهم: لعلهم ولعلهم، فخرج النبي ﷺ فأخبرهم عن هؤلاء السبعين أنهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[(٢)]، فلم ينكر عليهم اجتهادهم والتماسهم تعيين السبعين!

والجواب عن هذا الإيراد أنه لم ينكر عليهم؛ لأنهم لم يجزموا بهذا القول، بل أتوا بحرف الترجي: (لعلّ)، فإذا كان الإنسان يبدي ما لديه من رأي بحرف

(١) أخرج القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢١٨)، وأخرج أبو يعلى (٣٣٥٥) عن ثابت عن أنس أن عبيدالله بن زياد قال: «يا أبا حمزة، هل سمعت النبي ﷺ يذكر الحوض؟» فقال: «لقد تركت بالمدينة لَعجائزَ يكثرن أن يسألن الله أن يوردهن حوض محمد ﷺ». قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٦٨): «وسنده صحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الترجي فلا يلام، لكن إذا كانوا في مجلس فلا بد ألَّا يتفرقوا إلا عن بينةٍ من أمرهم، ولا بد من الوصول إلى الحقيقة قبل التفرق، ولذا جاء النبي ﷺ وهم مجتمعون فأخبرهم بالمراد.

ويقال مثل هذا فيما ورد من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي، فإذا قيل: لعل المراد بالآية كذا، فيرجى أن يكون فيه سعة، وهذا الأمر ليس متروكًا ومباحًا لعامة الناس الذين لا يفهمون النصوص، بل المراد بالسعة أنه لطلاب العلم، فإذا أبدوا مثل هذه التساؤلات مصدرةً بحرف الترجي ووصلوا إلى الحقيقة بسؤال من هو أعلم منهم قبل التفرق، أو بالرجوع إلى المصادر الموثوقة، فإن ذلك لا يضيرهم - إن شاء الله تعالى- استدلالًا بحديث السبعين ألفًا السالف.

وأهل البدع من المعتزلة والباطنية وغيرهم عدوا على الغيبيات الحسية فتطلبوا لها أنواعًا من التأويلات، وضروبًا من المجازات الغريبة، فقالوا عن الميزان: إنه مجاز عن العدل، وليس بحقيقي، وتفاسير الباطنية والرافضة وغلاة الصوفية كلها مليئة بهذا النوع من التحريف والتعطيل، يحرفون الأمور المحسوسة التي جاءت بها النصوص الشرعية إلى أمور معنوية لا حقيقة لها، وبهذا ضلوا ضلالًا مبينًا، نسأل الله السلامة والعافية.

♦ هل الحوض قبل الميزان والصراط أو بعدهما؟

يَرَى بعض أهل العلم أن الحوض قبل الميزان والصراط، ومنهم من يرى أنه بعدهما، قريبًا من باب الجنة، حيث يحبس أهل الجنة من أمة النبي ﷺ ليتحللوا من المظالم التي بينهم، وهو ظاهر اختيار البخاري، وعلى هذا يكون الصراط في

الأرض المبدلة التي قال الله عنها: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قال القرطبي: «اختلف في الميزان والحوض، أيهما قبل الآخر، فقيل: الميزان قبل، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: الصحيح أن الحوض قبل، قلت: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، فيقدم قبل الميزان والصراط، والله أعلم»(١).

ومن أهل العلم من يرى أن للنبي ﷺ حوضين، حوضًا قبل الصراط وحوضًا بعده، ويسمى كل منهما كوثرًا.

وقد ردَّ الحافظ ابن حجر -وهو من أهل الاطلاع الواسع والاستقراء- على القرطبي ترجيحه السابق بأن الحوض ينصب فيه الماء من النهر الذي داخل الجنة، فلو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من الكوثر فيه(٢).

وقال: «وقد استشكل كون الحوض بعد الصراط بما سيأتي في بعض أحاديث هذا الباب أن جماعة يدفعون عن الحوض بعد أن يكادوا يَرِدُون ويُذهَب بهم إلى النار، ووجه الإشكال أن الذي يمر على الصراط إلى أن يصل إلى الحوض يكون قد نجا من النار فكيف يُرَدُّ إليها؟ ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون الجنة، فيدفعون في النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط»(٣).
يعني: قبل أن يتجاوزوا الصراط، بل هم في أثنائه إذا قربوا من الحوض ورأوه دفعوا.

---

(١) التذكرة (ص: ٧٠٣).
(٢) فتح الباري (١١/ ٤٦٦).
(٣) فتح الباري (١١/٤٦٦).

ولا شك أن لفظ: الورود يدل على القرب الشديد من الحوض، ودفعهم قبل هذا القرب لا شك أنه أقل في النكاية من دفعهم إذا قربوا منه قربًا شديدًا، بحيث كانوا على قربٍ منه، فإذا دفعوا عنه وهم على حافته، أو على مقربةٍ منه، يكون هذا أشد نكايةً لهم.

وقال السيوطي: «وقد ورد التصريح في حديثٍ صحيحٍ عند الحاكم وغيره بأن الحوض بعد الصراط[(١)]، فإن قيل: إذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلم يحتاجوا إلى الشراب منه؟ فالجواب: بل يحتاجون إلى ذلك؛ لأنهم محبوسون هناك لأجل المظالم، فكان الشرب في موقف القصاص، ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقومٍ، ويقع تأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار، حتى يهذبوا منها على الصراط، ولعل هذا أقوى. قال الشيخ: مرعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بهجته: وهذا في غاية التحقيق جامع للقولين، وهو دقيق»[(٢)].

---

(١) سبقه بهذا شيخه في الفتح (٤٦٧/١١)، والحديث المقصود حديث لقيط بن عامر الطويل وفيه: «ثم ينصرف نبيكم وينصرف على إثره الصالحون، فيسلكون جسرًا من النار يطأ أحدكم الجمرة فيقول حس فيقول ربك- أو أنه، قال- فيطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة ما رأيتها قط، ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع على قدح»، أخرجه الحاكم (٦٠٥/٤) وقال: «هذا حديث جامع في الباب صحيح الإسناد كلهم مدنيون ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي فقال: «يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري ضعيف». وأخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (١٢١/٢٦)، وقال ابن القيم في الزاد (٦٧٧/٣): «هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة».

(٢) هكذا في لوامع الأنوار البهية (١٩٥/٢)، وهو كلام السيوطي بالتصرف من البدور السافرة (ص: ٢٢٣).

وقد يقال: إن الحوض ممتد -وسيأتي في تحديد مساحته نصوص كثيرة ثابتة عن النبي ﷺ-، ويكون الصراط أقصر منه بحيث يكون طرف الحوض الأول قبل بداية الصراط، وطرفه الثاني بعد نهاية الصراط، فيحتمل أن يشرب منه أناس قبل الصراط وأناس بعده، وعلى هذا ينزل كلام السيوطي الذي أيده الشيخ مرعي.

وقال ابن القيم: «فإذا كان بهذا الطول والسعة: «طوله شهر وعرضه شهر»، فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده؟! فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق. والله أعلم»[(١)].

ومن الغرائب ما ذكره الألوسي في تفسيره قال: «رأيت في بعض الكتب أن الكوثر هو النهر الذي ذكره الله جَلَّ وَعَلَا، وهو الحوض، يقول: وهو على ظهر ملكٍ عظيم، يكون مع النبي ﷺ حيث يكون فيكون في المحشر، إذ يكون ﷺ فيه، وفي الجنة إذ يكون ﷺ فيها، ولا يعجز الله تعالى شيء»[(٢)]. يعني: أينما يوجد النبي ﷺ يتبعه هذا الملك الذي على ظهره هذا النهر، ولا شك أن في هذا نكارة وغرابة شديدة، وإن كانت القدرة الإلهية صالحة لمثل هذا، والله تعالى لا يعجزه شيء.

♦ هل الحوض من خواصه ﷺ أم أنَّ لكل نبي حوضًا؟

جاء في الترمذي: «إن لكل نبيٍّ حوضًا، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردًا، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردًا» وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، وقد روى

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٨٣).

(٢) تفسير الألوسي (٢٣/ ١٥٢).

الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلًا، ولم يذكر فيه عن سمرة، وهو أصح»[(١)]، فالصواب أنه ضعيف؛ لأنه مرسل[(٢)].

ولكن التباحث في مثل هذه المسائل فائدته العملية المسلكية التي تعود إلينا قليلة، وفائدته نظرية، فالذي يهم كل مسلم ويعنيه تحقيق الاتباع، والحذر من الابتداع؛ لأن الإحداث -كما سيأتي في الأحاديث ومنها: «ما أحدثوا بعدك»- أصل أسباب الذود عن هذا الحوض.

♦ بعض ما جاء في وصف الحوض

جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «**والذي نفسي بيده، لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية** -أي: التي لا غيم فيها ولا سحاب-، **آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يَشْخَبُ فيه ميزابان من الجنة** -يعني: يسيل في هذا الحوض ميزابان من الجنة- **من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله: ما بين عمان إلى أيلة**[(٣)]**، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**»[(٤)].

---

(١) الترمذي (٢٤٤٣).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٦٧): «والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن. وذكر له شواهد مرفوعة لا يخلو واحد منها من لين في سنده».

(٣) أَيْلَةُ: بفتح الهمزة وإسكان المثناة تحت وفتح اللام، وهي مدينة معروفة في عراق الشام على ساحل البحر متوسطة بين مدينة رسول الله ﷺ ودمشق ومصر. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٥/ ٥٧)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٨٣)، مطالع الأنوار على صحاح الآثار (١/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده**» كثيرًا ما يقسم النبي ﷺ بهذا، وكثير من شراح الحديث، يقولون: معناه: روحي في تصرفه. فإذا كان هذا الشارح ممن ينفي الصفات عن الله جَلَّ وَعَلَا بما في ذلك اليد كان هذا التفسير منه فرارًا من إثبات اليد لله جَلَّ وَعَلَا على ما يليق بجلاله وعظمته، وإذا كان عرف بأنه يثبت اليد لله جَلَّ وَعَلَا على ما يليق بجلاله وعظمته، وقال معنى: «**والذي نفسي بيده**» روحي في تصرفه، كان كلامه صحيحًا، إذ ليس هناك روح ليست في تصرف الله جَلَّ وَعَلَا، ففي الحديث إثبات اليد لله كما هو المحقق المقرر عند أهل السنة والجماعة.

وفي هذا الحديث أن مساحة الحوض «**ما بين عَمّان إلى أيلة**» وعَمّان بفتحٍ وميم مشددة مفتوحة، وقيل: بضم وميم مخففة مفتوحة، وهما فيما يظهر البلدان المعروفان بهذا الاسم اليوم(١).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**ما بين ناحيتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة**»(٢)، وفي رواية: «**ما بين المدينة وعمّان**»(٣) وفي رواية أخرى: «**إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن**»(٤) وفي مسلم من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إني فرط لكم على الحوض** -أي: متقدم أمامكم على الحوض- **وإن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة**»(٥) وفي

---

(١) ينظر: معجم البلدان (٤/ ١٥٠-١٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٤١- ٢٣٠٣)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨)، عن حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٤٢-٢٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٣٩- ٢٣٠٣)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٤٤- ٢٣٠٥).

الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدًا**»(١) وجاء التحديد بأماكن أخرى،(٢) ولا شك أن هذه المسافات متفاوتة تفاوتًا كبيرًا إلا أنها كلها مسيرها نحو شهر، وهذه الأحاديث كلها صحيحة.

فما بين عمّان إلى أيلة أقصر بكثير مما بين أيلة وصنعاء اليمن، وما بين صنعاء والمدينة أقصر، ولهذا ظن بعضهم أن هذا يعدُّ اضطرابًا، والاضطراب يضعف الحديث، فالحديث المضطرب هو الذي يروى على أوجه مختلفة متساوية بدون ترجيح.

وهل الاضطراب متحقق في هذا الحديث؟ لا؛ فقد روي على أوجه مختلفة، لكنها غير متساوية، فمنها ما هو في الصحيحين، ومنها ما تفرد به البخاري، ومنها ما تفرد به مسلم، وعلى هذا إذا قلنا: إن بعضها أرجح من بعض لننفي الاضطراب، قلنا: يقدم ما في الصحيحين، هذا إذا تعذر الجمع، أما إذا أمكن الجمع فلا يُلجأ إلى مثل هذا التعليل للأحاديث الثابتة في الصحيح، والجمع هنا ممكن فلا اضطراب.

يقول القرطبي في التذكرة: «ظن بعض الناس أن هذه التحديات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك، وإنما تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطبًا لكل طائفة بما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).
(٢) ينظر: فتح الباري (١١/ ٤٧٠- ٤٧١).

كانت تعرف من مسافات مواضعها، فيقول لأهل الشام ما بين أذرح وجربا[١]، ولأهل اليمن من صنعاء إلى عدن. وهكذا، وتارةً أخرى يقدر بالزمان، فيقول: مسيرة شهر، والمعنى المقصود أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا، فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها، والله أعلم»[٢].

فإذا قدرنا هذا الحوض بالمسافات المختلفة المتفاوتة في هذه الأحاديث، فيمكن الجمع بما قاله القرطبي، بأنه خاطب كل أناس بما يفهمونه، وليس المراد التقدير الدقيق، فيخاطب الشامي بما يناسبه مما يعرفه من بلاده، واليمني بما يعرفه من البلدان، وهكذا.

وأيضًا يمكن أن يجاب عن هذا الاختلاف في تحديد المسافة بأن هذه المسافات تختلف من حيث الطول لكنها تتحد من حيث الزمان، فالسير يختلف من شخصٍ إلى آخر، ومن وسيلةٍ إلى أخرى، فإذا قلنا: بسير الإبل حملناه على أطول المسافات، وإذا قلنا: بسير الجواد المضمر حملناه على أقل المسافات.

وكذلك لا يمنع أن يكون النبي ﷺ أخبر عن الحوض أولًا بأقل المسافات، ثم بعد ذلك زيد في مساحة الحوض؛ زيادةً لشرفه ﷺ إلى أن بلغ أكبر المسافات، فصارت مساحته أوسع مما كانت عليه، وهذا يمكن أن يقال في مثل هذا الموضع للجمع والتوفيق بين هذه الأحاديث[٣].

---

(١) أخرجه الحديث البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهما قريتان بالشام.

(٢) التذكرة (ص: ٧٠٦) وينظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٣/ ٢٩٦).

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٥/ ٥٨)، تحفة الأحوذي (٧/ ١١٧).

♦ أول من يرد على الحوض

جاء في الترمذي وابن ماجه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، ذكر الحديث مطولًا وفيه: «**وأول من يرد عليّ حوضي فقراء المهاجرين، الدنس ثيابًا، الشعث رؤوسًا، لا ينكحون المنعمات ولا يفتح لهم السدد**»(١) وقال الترمذي: «حديث غريب»، وهو قابل للتحسين بطرقه، ولذا قواه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

فأول من يرد الحوض فقراء المهاجرين، ومعروف ما جاء في الفقراء، وأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام(٣)، وفي بعض الروايات: بأربعين عامًا(٤)، وكلها صحيحة، وهذا الاختلاف كسابقه، ليس من الاختلاف الذي يلزم منه الاضطراب، بل هذا التقدير يختلف باختلاف الأغنياء والفقراء، فأشد الناس فقرًا يدخل قبل أغنى الناس بخمسمائة عام، ومن دونه في الفقر، يدخل قبل من دون ذلك الغني بأربعين عامًا، وبمثل هذا يوفق بين النصوص التي يرد فيها مثل هذه التقادير(٥).

وبعض أهل العلم يسلك مسلكًا آخر في مثل هذه الأحاديث فيقول: إن العدد لا مفهوم له، وإنما يذكر لمجرد بيان عظم الأمر.

---

(١) الترمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣)، والحاكم (٧٣٧٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وله شاهد عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند أحمد (٦١٦٢).

(٢) ينظر: الصحيحة (١٠٨٢).

(٣) الترمذي (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وأحمد (٩٨٢٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وعند أحمد (١١٦٠٤)، والترمذي (٢٣٥١)، عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) مسلم (٢٩٧٩)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وجاء عن غير واحد من الصحابة أيضًا.

(٥) ينظر: شرح المشكاة للطيبي (١٠/٣٣١٣).

♦ الإحداث في الدين أعظم سبب مانع من ورود الحوض والشرب منه

جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني** -يعني: اقتطعوا دوني وردوا عن الحوض- **فلأقولنَّ: أي ربِّ أصيحابي أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(١)، وفي رواية: «**فأقول: سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي**»(٢).

فالإحداث والتبديل أعظم سبب مانع من ورود الحوض والشرب من هذا الحوض الذي من شرب منه لم يظمأ بعده أبدًا. وعكسه -وهو التمسك بما كان عليه ﷺ- من أعظم أسباب ورود الحوض والشرب منه.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله**» قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: «**نعم، لكم سيما ليست لأحدٍ غيركم، تردون عليّ غرًّا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم فلا يَصِلون، فأقول: يا ربِّ هؤلاء من أصحابي، فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟**»(٣).

وفي التذكرة للقرطبي: «قال علماؤنا -رحمهم الله-: «فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض،

---

(١) البخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤)، والسياق له.

(٢) البخاري (٧٠٥٠)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ومسلم (٢٤٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه عن غيره من الصحابة أيضًا.

(٣) مسلم (٢٤٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المبعدين عنه»[(١)]. وقد نعرف أنه حصل بعد موته ﷺ ردة عن الإسلام من بعض من أسلم وصحب النبي ﷺ لم يقر الإيمان في قلوبهم، ولكن هذا أمر وقع من أفرادهم، وأما أكثر الصحابة وخيارهم فلا، خلافًا لما يزعمه ضلال المبتدعة من الروافض والخوارج وأضرابهم، فمن ارتد من هؤلاء الذين لم يقر الإيمان في قلوبهم هم الذين يذادون عن الحوض، أما أصحابه ﷺ الذين خالط الإيمان بشاشة قلوبهم، وآمنوا به ظاهرًا وباطنًا وصدقوه وصحبوه صحبةً بحيث آثروه على أنفسهم، فمثل هؤلاء لا يُعرف أن واحدًا منهم شك في دينه أو ارتاب قط، فضلًا عن الردة- حاشاهم من ذلك-، وإنما ارتد بعض من لم يقر الإيمان في قلبه.

فعلى العبد أن يكون على حذرٍ شديد من الإحداث والابتداع في الدين؛ لئلا يذاد عن هذا الحوض، ويكون أيضًا مهتمًا ومعتنيًا بالنظر إلى العاقبة، وحسن الخاتمة، وسؤال الله جَلَّ وَعَلَا في كل لحظة أن يميته مسلمًا غير محْدِثٍ ولا مبدِّل، ولا زائغٍ عن هذا الدين، يقول القرطبي: «وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والبدع والأهواء»[(٢)].

فكلهم أحدثوا في الدين ما ليس منه إما اعتقادًا أو عملًا، وليحذر المسلم أن يتعبد لله جَلَّ وَعَلَا بأي عبادةٍ لم يكن عليها الأمر الأول، أي: لم يسبق لها شرعية من

---

(١) التذكرة (ص: ٧١٠).

(٢) التذكرة (ص: ٧١١-٧١٢).

كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ومقتضى الإيمان الصحيح بالنبي ﷺ أن لا يعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلا بما شرع.

فعلى الإنسان أن يقتفي الأثر، ويكتفي بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»(١)، ولا شك أن الشيطان يزين للناس هذه البدع، ويشرب حبها في قلوبهم.

وقال السفاريني في نظمه المسمى بـ: (الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية):

كذا الصراط ثم حوض المصطفى ** فيا هنا لمن به نال الشفا (٢)

وقال في شرحه(٣) لها: «كذا اجزم بعد البعث والنشور وأخذ الصحف والمرور بثبوت حوض النبي ﷺ، فإنه ثابت بإجماع أهل الحق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

يقول السيوطي في كتابه: (البدور السافرة): ورد ذكر الحوض من رواية بضعةٍ وخمسين صحابيًّا، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون، وحفّاظ الصحابة المكثرون -رضوان الله عليهم أجمعين- ثم ذكر الأحاديث عنهم واحدًا واحدًا»(٤).

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٥)، والبيهقي في الشعب (٢/٤٠٧)، وأخرجه من وجه آخر أبو خيثمة في العلم (٥٤)، وابن بطة في الإبانة (١٧٤)، والخرائطي كما في المنتقى من مكارم الأخلاق للسلفي (ص: ٩٦).

(٢) البيت رقم (١١٧) (ص: ٧٧).

(٣) واسمه: (لوامع الأنوار)، كما في طبعته الثانية، أما في الطبعة الأولى التي طبعت في مطبعة المنار القديمة فاسمه (لوائح الأنوار).

(٤) لوامع الأنوار البهية (٢/١٩٥).

فالحوض ثابت بالأحاديث المتواترة، ومعلوم أن منكر القطع عند أهل العلم يكفر؛ لأن القطع مفيد للعلم الضروري الذي يجد الإنسان نفسه مضطرًا إلى تصديقه.

ثم يقول السفاريني في عقيدته:

عنه يذاد المفتري كما ورد ** ومن نحا سبل السلامة لم يُرَد[١]

وقوله: «**عنه**» أي: عن حوض النبي ﷺ وعن الشرب منه «**يذاد**» أي: يطرد ويدفع، «المفتري» والمفتري من الفرية وهي الكذب، فيقال: افترى افتراءً إذا كذب: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾ [الممتحنة: ١٢].

يقول السفاريني في شرحه: «الحاصل أن من الذين يُذادون عن الحوض جنس المفترين على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ من المحدثين في الدين من الروافض والخوارج وسائر أصحاب الأهواء والبدع المضلة، وكذلك المسرفون من الظلمة المفرطون في الظلم والجور وطمس الحق، كذلك المتهتكون في ارتكاب المناهي، والمعلنون في اقتراف المعاصي»[٢].

فالمقصود أن السبب في الذود وعدم الشرب من هذا الحوض هو الإحداث في الدين، والإحداث في الدين كما يكون في الاعتقاد يكون في الأعمال، فمن ابتدع في الدين واخترع شيئًا أدخله وأدرجه في دين الله جَلَّ وَعَلَا مما ليس منه فلا شك أنه داخل فيمن يذاد عن الحوض على ما تقدم.

---

(١) البيت رقم (١١٨) (ص: ٧٧).

(٢) (١٩٧/٢) وهو نقل حرفي أو بتصرف يسير لكلام القرطبي.

ثم يقول السفاريني في شرح منظومته ناقلًا عن القرطبي: «ثم الطرد قد يكون في حالٍ ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وقد يقال: إن أهل الكبائر يردون ويشربون وإذا دخلوا النار بعد ذلك لم يعذبوا بالعطش»(١)؛ لأن من شرب من هذا الحوض لم يظمأ بعده أبدًا، فيردون الحوض ويشربون منه؛ لأنهم لم يحدثوا في الدين، ولم يبتدعوا فيه.

♦ البدعة وحكمها

لا ضير من أن نستطرد في الحديث عن البدع؛ لأن البدع هي الإحداث الذي جاء التنصيص عليه في حديث الذود عن الحوض؛ لنعرف من يهنأ من هذا الحوض بشربةٍ لا يظمأ بعدها أبدًا.

فالابتداع في اللغة: ما عمل على غير مثالٍ سابق(٢)، وفي اصطلاح أهل العلم: ما تعبد به مما لم يسبق له شرعية من الكتاب أو من السنة(٣)، فمن تعبد بعبادةٍ لم يسبق لها شرعية من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة نبيه ﷺ فهو مبتدع، والنبي ﷺ أخبر أن أمته ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة(٤)، فليحرص المسلم كل الحرص أن يكون من هذه الفرقة الناجية، التي هي على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه -رضوان الله عليهم-، أما من أحدثوا وغيروا

---

(١) (٢/٢٠٠).

(٢) ينظر: تاج العروس (١/١٤١).

(٣) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/٤٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وجاء عن غير واحد من الصحابة، وعده بعضهم متواترًا، ينظر: نظم المتناثر للكتاني (ص: ٤٥)، ورسالة: «افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة» للصنعاني.

وبدلوا وتنكبوا الطريق، وعدلوا عن الجادة، وحادوا عن الصراط المستقيم فإن هؤلاء قد يفتَنون في الدنيا ويفتَنون عند الموت ويذادون عن الحوض، نسأل الله السلامة والعافية.

ومن أهل العلم من قسّم البدع إلى بدع محمودة وبدع مذمومة، ومنهم من قسمها على الأحكام الخمسة.

وهذه مصادمة لقول النبي ﷺ: «**وكل بدعةٍ ضلالة**»[(١)]، فالرسول ﷺ يقول: «كل البدع ضلالة»، ثم يأتي من يأتي ويقول: هناك بدع ليست بضلالة، بل هداية! هذه محادة لرسول الله ﷺ، فهذا القول ضعيف، وقد ردّه الشاطبي في الاعتصام، وقوّض دعائمه، وقال: «هذا التقسيم أمر مخترع، لا يدل عليه دليل شرعي، بل هو نفسه متدافع؛ لأن من حقيقة البدعة أن لا يدل عليها دليل شرعي؛ لا من نصوص الشرع، ولا من قواعده»[(٢)].

والمقسمون يتشبثون بقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاة التراويح: «**نعم البدعة هذه**»[(٣)].

قالوا: فقد مدحها عمر مع تسميتها بدعة، فدلّ على أنّ من البدع ما يُمدح.

وقد أجاب عن هذا الأثر ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية، وذلك أن

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) ينظر: الاعتصام (١/ ١٨٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٠).

البدعة في اللغة تعم كل ما فُعِلَ ابتداءً من غير مثال سابق، وأما البدعة الشرعية فكل ما لم يدل عليه دليل شرعي.

فإذا كان نص رسول الله ﷺ قد دل على استحباب فعل أو إيجابه بعد موته، أو دل عليه مطلقًا ولم يعمل به إلا بعد موته، ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صح أن يُسمى بدعة في اللغة؛ لأنه عمل مبتدأ، كما أن نفس الدين الذي جاء به النبي ﷺ يُسمى بدعة، ويسمى محدثًا في اللغة، كما قالت رسل قريش للنجاشي عن أصحاب النبي ﷺ المهاجرين إلى الحبشة: «إن هؤلاء خرجوا من دين آبائهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين محدث لا يُعرف»، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة»[(١)].

فالنبي ﷺ صلى صلاة التراويح بأصحابه ليلة، فاجتمع إليه فئام من الناس، ثم صلى بهم الثانية، وهم أكثر من العدد السابق، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة حتى غصّ بهم المسجد، فلم يخرج إليهم؛ خشية أن تُفرض عليهم[(٢)]، وهذا من رأفته ورحمته ﷺ بأمته، واستمر الأمر على ذلك بقية عهده ﷺ، وجميع خلافة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم بعد أن أمن من فرضية صلاة التراويح بموته ﷺ جمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الناسَ على إمامٍ واحد، ثم خرج في ليلةٍ من الليالي وهم يصلون مجتمعين متراصين، فأعجبه ما رأى فقال ما قال.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٩)، ومسلم (٧٦١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجاء من حديث زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

وأجاب الشاطبي في الاعتصام بأن المراد بدعة على سبيل المجاز، لا على سبيل الحقيقة[(١)].

وهذا عند من يقول بالمجاز لا إشكال فيه، والمجاز هو: استعمال اللَّفظ في غير ما وضع له، ولا يتم هذا الجواب على رأي الذي لا يرى المجاز، وهو المرجح عند أئمة التحقيق، ونصره شيخ الإسلام وابن القيم[(٢)].

وأما كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أنها بدعة لغوية، ففي تقديري أنه غير متجه؛ لأن البدعة لغةً: ما عمل على غير مثالٍ سابق، وصلاة التراويح التي جمع عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الناس عليها عملت على مثالٍ سبق في عهد النبي ﷺ، ولذا لا يقال: إنها بدعة لغوية؛ لأنها عملت على مثالٍ سبق، وليست بدعة شرعية قطعًا؛ لأنها ثبتت من فعله ﷺ.

وبعض الشرّاح ممن عاشوا في بعض البيئات المتأثرة بالمبتدعة أساؤوا إلى أمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقالوا: البدعة قبيحة، ولو كانت من عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ!

لكن هذا لا يتجه؛ لأن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرى أن هذا الفعل غير مصادم لقول الرسول ﷺ: «**كل بدعةٍ ضلالة**» فلا يظن بعمر مخالفة الرسول ﷺ، وقد شهد له النبي ﷺ بالجنة، وأمرنا بالاقتداء به في قوله: «**اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكرٍ**

---

(١) الاعتصام (١/ ٥٣).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٨٧ وما بعد)، مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٢٨٥).

وعمر»[1] وقوله: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[2]، فالكلام المتقدم لا شك أن فيه إساءة إلى عمر رضي الله عنه، ومن زكّاه.

وقد وجد من بعض الشراح الذين يتصدون لشرح السنة من يسيء إلى النبي ﷺ من حيث لا يشعر، ففي حديث: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة**»[3] قال بعض الشراح: «في هذا الحصر نظر»[4] فمثل هذا الأسلوب في كلام النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، لا شك أنه إساءة في العبارة.

فليحذر المسلم أن يتكلم بكلامٍ غير موزون، بحيث لا يحسب له حسابًا؛ لأنه مؤاخذ بما ينطق به.

فعودًا إلى توجيه كلام عمر رضي الله عنه نقول: شيخ الإسلام يرى أن البدعة في كلام عمر رضي الله عنه هي بدعة لغوية، وقلنا: إنها في الحقيقة ليست ببدعة لغوية فضلًا عن أن تكون شرعية، وليست بمجاز كما هو قول الشاطبي؛ لأنه لا مجاز في النصوص، أو لا مجاز مطلقًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وقال: «حسن»، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٢٣٢٤٥)، والحاكم (٤٤٥١) وصححه ووافقه الذهبي، عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٢) و(٤٣)، وأحمد (١٧١٤٢)، وله طرق كثيرة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) نقله الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٠)، والعيني في عمدة القاري (١٦/ ٣٠) من قول القرطبي. وقال العيني: «قلت: ليس من الأدب أن يقال: في كلام النبي ﷺ نظر، بل الذي يقال فيه: إنه ﷺ ذكر الثلاثة قبل أن يعلم بالزائد عليها».

فإن قيل: إذن كيف نتصرف في هذا اللفظ الذي يوحي بأن البدع تكون ممدوحة ومحمودة؟

نقول: إن إطلاق البدعة على هذه الصلاة التي سبقت شرعيتها من فعله ﷺ من باب المشاكلة، والمجانسة في التعبير، كأن قائلًا، لا سيما إن كان ممن لم يدرك الصلاة مع النبي ﷺ، ومنذ أن وجد وهو يصلي بمفرده صلاة التراويح، ثم عمر جمع الناس عليها بعد انقطاع الوحي، ولم يبلغه أن النبي ﷺ جمع، فكأنه قال له: ابتدعت يا عمر، فقال: نعمت البدعة.

ولهذا الأسلوب نظائر وأمثلة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، فالسيئة الأولى جناية وظلم فلا شك أنها سيئة، لكن معاقبة الجاني بمثل جرمه حسنة وليست بسيئة، وأطلق عليها سيئة من باب المشاكلة والمجانسة في التعبير.

ومنه قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئًا نجد لك طبخه ** قلت اطبخوا لي جبةً وقميصا[(١)]

والجبة والقميص يخاطان، ولا يطبخان، لكن لما قيل له: اقترح شيئًا نجد لك طبخه؛ لأنهم توقعوا أنه جائع، بيّن لهم أنه لفحه البرد، فيحتاج إلى تدفئة، فبدلًا من أن يطلب الأكل قال: اطبخوا لي جبةً وقميصًا، وكان مراده: خيطوا لي جبةً وقميصًا، فأطلق على الخياطة طبخًا من باب المشاكلة والمجانسة في التعبير، ونحن

(١) البيت لأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي، كما في معاهد التنصيص (٢/٢٥٢)، ونسبه أبو هلال العسكري لجحظة البرمكي كما في جمهرة الأمثال (ص: ٢٢٧).

نقول هذا الكلام؛ لئلا يتذرع من يتلبس بالبدع، ويبرر لتلبسه بمثل مقولة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالخلاصة أن من نهج منهج الحق وسلك طريق السنة وسلم من البدعة وكبائر الذنوب فإنه يرد على حوض النبي ﷺ ويشرب منه. وأن الابتداع أمره خطير، وشأنه عظيم، فهو مشاركة لله جَلَّ وَعَلَا في تشريعه، فالذين يبتدعون ويتبعهم هؤلاء المبتدعة على ضلالهم هؤلاء شركاء لله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فاختراع شيء في الدين وأمر الناس بالعمل بهذا المخترع وهذا المُبتَدع في الدين لا شك أنه شرك في التشريع.

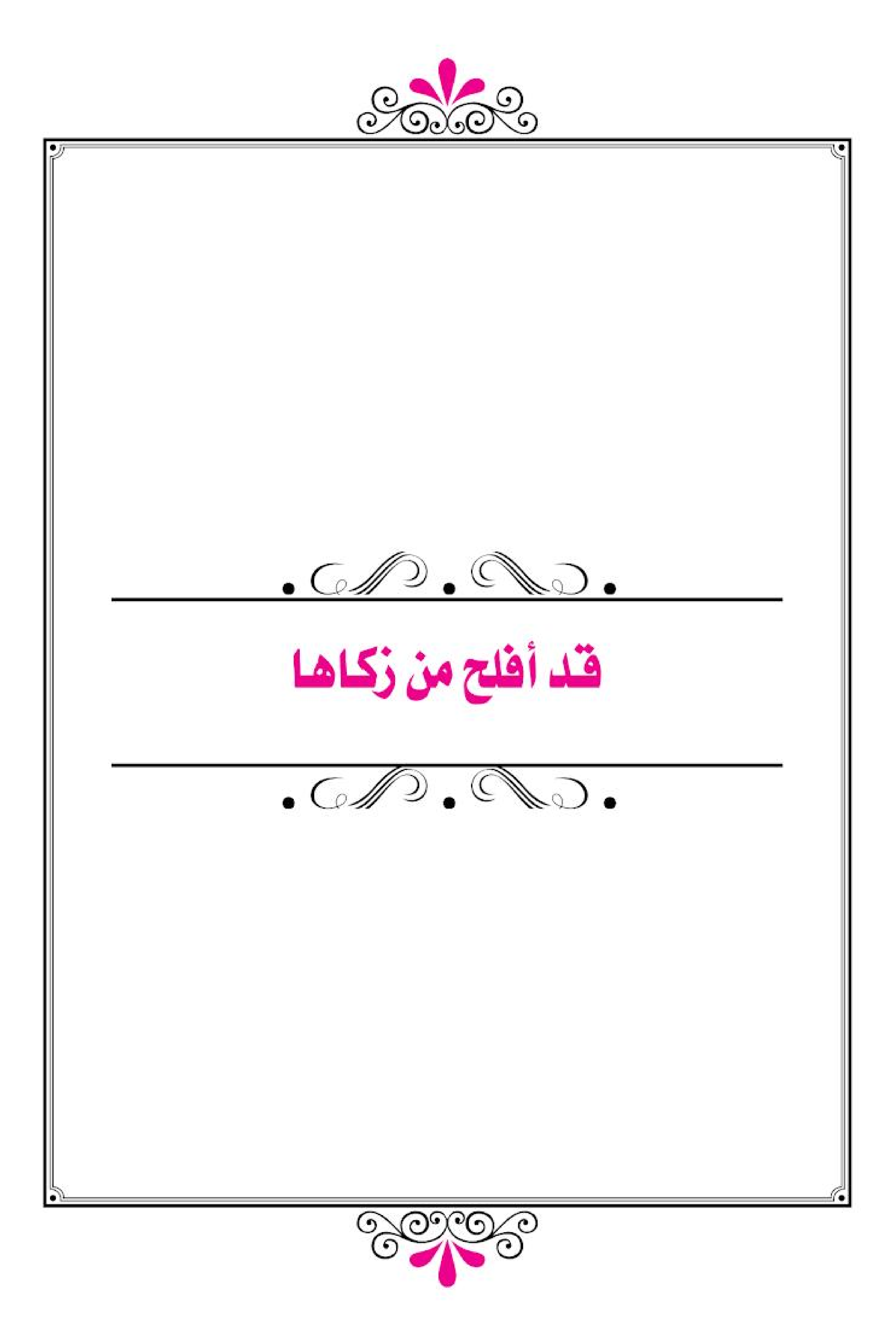
فليحرص المسلم ذكرًا كان أو أنثى على الاقتداء بالنبي ﷺ، وألا يعمل عملًا يتقرب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا إلا أن يكون لديه فيه دليل يتمسّك به، وقد جاء عن بعض السلف قولهم: «إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»(١)، وفي هذا مبالغة في الاتباع، وتنفير من الابتداع.

والإنسان لو يعمل طول عمره في تحقيق ما خلق من أجله، وهو العبودية لله جَلَّ وَعَلَا مقتصرًا في ذلك على ما جاء عنه في كتابه، وما صح من سنة نبيه ﷺ لما كفاه العمر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة جدًّا، فعلى الإنسان أن يعمل بجميع ما بلغه عن النبي ﷺ؛ لأن العمل هو الثمرة المرجوة من العلم، فعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر.

(١) أخرجه الخطيب في الجامع (١/١٩٧) عن الثوري.

وبالمقابل إذا جاء الأمر بالعمل يأتي أيضًا التنفير والتحذير من عملٍ لا علم معه، فلا شك أن العلم قبل القول والعمل، فيكون الإنسان على بصيرةٍ من أمره، فلا يقدم على أمرٍ يتديّن به، ويتقرب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا إلا أن يُسبق له شرعية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ ليتحقق له ما وعد من الشرب من هذا الحوض الذي لا يظمأ بعده أبدًا، وليهنأ بشربةٍ من حوضه ﷺ ومن يده الشريفة.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين.



قد أفلح من زكاها

قد أفلح من زكاها

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أهل العلم اعتنوا بتزكية النفس عناية فائقة، وتكلموا وأفاضوا فيها، كابن رجب وابن القيم وغيرهما من أئمة التحقيق، فهذا الموضوع في غاية الأهمية، وجدير بالعناية، وهذه الرسالة تأتي في إطار قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩].

ابتدأ الله جَلَّ وَعَلَا سورة الشمس بأحد عشر قسمًا، ولله جَلَّ وَعَلَا أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لكن ليس للمخلوق أن يقسم بغير الله جَلَّ وَعَلَا، قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»(١)، وأما إقسام الله تعالى بشيء من مخلوقاته فبيانٌ لشأن ومكانة المُقْسَمِ به.

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١-١٠].

وجواب هذه الأقسام في هذه السورة العظيمة عند كثير من المفسرين قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، وأجابوا عن كون جواب القسم لم يقترن باللام

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٥٣٧٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذ لم يقل: (لقد أفلح) -كما هي العادة والمطَّرِد في لغة العرب- بأن طول الفصل يغني عن هذه اللام(١)، ونازع في هذا بعض أهل العلم ممن له عناية باللغة، كالزمخشري -وهو معتزلي المعتقد- فقال: إن قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ ليس جواب القسم، وإنما الجواب ما يفهم من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشمس: ١٤]، أي تقديره: ليدمدمنَّ الله على أهل مكة بشركهم، كما دمدم على ثمود قوم صالح(٢)، والجواب هذا مفهوم من سياق قصة الناقة، وقتل قوم صالح لها، ومعاقبتهم بالدمدمة.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ الفلاح الظفر والفوز بالخير التام في الدنيا والآخرة، ويقول أهل العلم: إنه لا يوجد كلمة يمكن أن يعبَّر بها عما يجمع خيري الدنيا والآخرة مثل كلمة الفلاح.

قوله تعالى: ﴿ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ الضمير يعود على صاحب النفس -ولعل هذا قول الأكثر-، فيكون المعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه(٣)، ومن أهل العلم من يرى أنَّ فاعل زكّى ضمير يعود إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وعلى هذا يكون المفلح من زكَّى الله نفسه بهدايته إلى الطريق المستقيم.

فإن قيل: كيف يكون الفلاح لمن زكَّى نفسه، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]؟

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٤/٤٥٦، روح المعاني للألوسي ١٥/٣٦٠.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/٧٦٠، تفسير القرطبي ٢٠/٧٦.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥/٤٨٨، تفسير ابن كثير ٨/٤١٢.

فالجواب: أنَّ قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ معناه: لا تمدحوا أنفسكم وتثنوا عليها على سبيل الإعجاب[١].

والتزكية هي الثناء والمدح[٢]، ومنه تزكية الرواة والشهود، يعني: مدحهم والثناء عليهم بما يستحقون به لقبول شهادتهم وروايتهم، فالشاهد لا بد له من تزكية، ممن يعرفه معرفة باطنة، والراوي لا بد له من يزكيه، قال الحافظ العراقي:

..........................ومــــن ** زكــاه عــدلان فعــدلٌ مــؤتمنْ

وصُــحِّحَ اكتفــاؤهم بالواحــدِ ** جرحًــا وتعــديلًا خــلاف الشــاهدِ

وصحَّحوا استغناء ذي الشهرة عــن ** تزكيــةٍ كمالــك نجــم السُّــنن[٣]

أما من استفاضت واشتهرت عدالته، ونبغ في الناس ذكره، كالإمام مالك مثلًا، فلا يحتاج إلى تزكية.

والنفس تتشرَّف وتشرئبُّ إلى المدح، فإن وُجد من غيرها فرحتْ به، وإن لم يوجد مدح نفسه، فبعض الناس لا يصبر فيمدح نفسه إذا لم يُمْدَحْ، وهذا من الضعة بمكان عظيم؛ لأنَّ الناس ينفرون من تزكية النفس، ومع ذلك يقدم بعض

---

(١) قال الراغب الأصفهاني: «وتزكية الإنسان نفسه ضربان: أحدهما: بالفعل، وهو محمود، وإليه قصد بقوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، وقوله: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾. والثاني: بالقول، كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾، ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلًا وشرًعا، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسُن وإن كان حقًّا؟ فقال: مدح الرّجل نفسه». المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٨١).

(٢) قال ابن الأثير: «وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكلُّ ذلك قد استعمل في القرآن والحديث». النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٣٠٧.

(٣) ينظر: ألفية العراقي (ص: ١١٧).

الناس بكل صفاقة يمدح نفسه، ويثني عليها، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقد يحتاج الإنسان إلى ذكر بعض محاسنه، لاسيما إذا ظُلم، فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما وُصف بالعِيِّ قال: «فإن من جمع كتاب الله فليس بِعَيِيٍّ»(١).

وقد يحتاجون للمدح أحيانًا في مقابلة الذم بغير حق؛ دفاعًا عن النفس، لا لذات النفس وحظها، إنما ليُقبل ما يصدر عن هذه النفس، بل لو أن عالمًا ذُم فعلى الجميع أن يدافع عنه، وعليه أيضًا أن يبين ما يبطل هذا الذم، ولو كان في فحواه ما يقتضي المدح، فمثل هذا لا يدخل في النهي، والله تعالى يقول: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

وبعض الناس يحب أن يُمدح ويُزكَّى ويُثنى عليه، فإن كانت محبته للثناء عليه بما ليس فيه، وما لم يفعله فهو مذموم قولًا واحدًا، قال تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أما إذا كان يحبُّ أن يُمْدَح ويُثنى عليه بفعله فهذا محل خلاف بين أهل العلم: فمنهم من يطَّردُ، ويقول: حبُّ الثناء مذموم على كلِّ حال، ومنهم من

---

(١) أخرج الطبراني في الكبير(١٣٠٤٨) وأبو نُعيم في الحلية ٢٩٣/١ عن المُطْعَم بن المقدام الصنعاني قال: كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن عمر: بلغني أنك طلبت الخلافة، وإنَّ الخلافة لا تصلح لعَيِيٍّ، ولا بخيل، ولا غيور، فكتب إليه ابن عمر: «أما ما ذكرتَ من الخلافة أني طلبتها فما طلبتها، وما هي من بالي، وأما ما ذكرتَ من العِيِّ، والبخل، والغيرة، فإن من جمع كتاب الله فليس بعَيِيٍّ، ومن أدى زكاة ماله فليس ببخيل، وأما ما ذكرت من الغيرة، فإن أحق ما غرت فيه ولدي أن يشركني فيه غيري»، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٤٧/٩: (رجاله ثقات إلا أنَّه مُرسل، المُطْعَم لم يسمع من ابن عمر).

يفهم من آية آل عمران من القيد ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أنه لا يدخل في الذم[(١)].

مدح النفس ومحبة الثناء خدش في الإخلاص، وقد تقضي عليه كليًّا، ولذا يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الفوائد: «فإذا حدَّثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أوَّلًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهدْ فيهما زهدَ عشّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلتَ: وما الذي يسهِّل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلتُ: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يُؤتى العبد منها شيئًا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمي شين، فقال: ذلك الله عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

وحال المسلمين اليوم من الكبير أو الصغير، والشريف أو الوضيع -مع الأسف- الفرح بالمدح. ولو قيل لفلان من الناس: إن الملك أو الأمير أو الوزير ذكرك البارحة، وأثنى عليك، لعله لن ينام ليلته فرحًا بهذه المدحة، فما الظنُّ إن كان الذي يذكرك ينفع مدحه ويضر ذمه، ألا وهو الله جلَّ جلاله؟ جاء في الحديث الصحيح: «**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منه، ومن تقرب إليَّ شبرًا، تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا، تقربت إليه باعًا، ومن**

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، (ص: ١٦٠).
(٢) (ص: ١٤٩).

جاءني يمشي جئته هرولةً»(١).

وتزكية النفوس تتحقَّق بالعلم النافع، والعمل الصالح، واشتُرِط العلم للتزكية؛ لأنَّ الجاهل قد يجتهد في تزكية نفسه فلا يصيب لجهله، ونصوص الوحيين هما السبيل إلى تحصيل العلم النافع، ويتبع ذلك ما يعين على فهمهما مما كتبه أهل العلم المحققون.

فلا تزكية للنفس إلا عن طريق الرُّسل، ولا يمكن أن يجتهد الإنسان ليوجد سبيلًا لتزكية نفسه من غير طريق الرسول ﷺ.

فلدى بعض الطرقية من الصوفية طرقٌ يربُّون بها المريدين، لا يعتمدون فيها على نصوص الكتاب والسنة، فيُذكرُ أن شيخ طريقة جاءه مريد وقت صلاة الجمعة، فحان وقت الصلاة ولم يخرجا إلى المسجد، فلما نُوقش وعُوتب، قال: فقهاؤكم يقولون: إذا خشي الإنسان على ضياع ماله يترك الجمعة والجماعة، وأنا أخشى على ضياع قلب هذا المريد.

أين عمل شيخ تلك الطريقة من سنة النبي ﷺ؟ والنبي ﷺ يقول: «**من ترك الجمعة ثلاثًا من غير ضرورةٍ، طبع الله على قلبه**»(٢)، وأهل العلم يقولون: إن ترك الجمعة من باب تيسير العسرى -أي: النار- نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (١٣٦٩)، من حديث أبي الجعد الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليعلم أنَّ نصيب وفرض عوام المسلمين ممن لم يتيسر لهم طلب العلم أن يسألوا أهل العلم عن الطريقة والوسيلة لتزكية النفوس، فهم سيدلونهم على الطريق، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وأما العمل الصالح، فيشمل عمل القلب واللسان والجوارح، وكل الأعمال الصالحة لا تُقبل إلا بشرطين:

الأول: الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥].

الثاني: المتابعة للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، يقول الفضيل بن عياض: «العمل الحسن هو: أخلصه وأصوبه» قيل: يا أبا علي ما أخلصه؟ وما أصوبه؟ قال: «إن العمل إذا لم يكن خالصًا لله جَلَّ وَعَلَا لم يُقبل، وإذا لم يكن صوابًا على سنة النبي ﷺ لم يُقبل»(١).

فالإخلاص والمتابعة لا بد منهما في كل عبادة، وعلى رأس هذه العبادات الإيمان بالله جَلَّ وَعَلَا بأركانه الستة المذكورة في حديث جبريل(٢)، فلا بدَّ من الإيمان، ولا بُدَّ من تحقيق التوحيد، وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي؛ ليتم الأمن ويتحقَّق في الدنيا والآخرة: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النـور: ٥٥]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين ١/ ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليحرص المسلم على أن يكون إيمانه كاملًا، أو يقرب من الكمال بقدر الاستطاعة، وليحذر مِن أن يأتي بما يضعف هذا الإيمان، بل ليحرص على تقويته في القلب، وذلك بالأعمال الصالحة التي تزكي النفس، وليحذرْ من ارتكاب ما يضعف الإيمان من المعاصي والذنوب، وعلى رأسها الشرك، الذي يقضي على الإيمان بالكلية ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فمن أعظم وسائل تحصيل التزكية للنفس الإيمان الخالص لله جَلَّ وَعَلَا، والتوحيد المحقق النقي من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

ومن الأعمال الصالحة التي أوجبها الله جَلَّ وَعَلَا على عباده، والتي تزكي النفوس وتطهرها: الركن الثاني من أركان الإسلام، ألا وهي الصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينها إذا اجتُنِبت الكبائر**»[(١)]، فهذه الصلاة إذا أُديت على الوجه المطلوب، وأُقيمت على ضوء قوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٢)] فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يندفع سؤال يلقيه كثير من الناس، حول من يصلي ويواظب على الصلاة، لكنَّ صلاته لم تنهه عن الفحشاء والمنكر.

فالجواب أنَّ هذه الصلاة ليست التي يُمتثل فيها قولُه ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣١)، وابن خزيمة (٣٩٧)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما تكفيرها للذنوب فالمصلون ليسوا على وتيرةٍ واحدةٍ من حيث الأجر، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجل لينصرف وما كُتِبَ له إلا عُشْرُ صلاته تُسْعها ثُمُنُها سُبْعُها سُدْسُها خُمْسُها رُبُعُها ثُلُثُها نِصْفها**»[١].

فعلى العبد أن يجاهد، ويُري الله من نفسه خيرًا، ويَصدُقَ في ذلك، وإذا علم الله جَلَّ وَعَلَا منه صدق النية أعانه، وإلا فكثير من الناس يقول: (حاولنا جاهدين أن نخلص في صلاتنا، ونستحضر ونخشع، لكن لم نستطع)، فمن الناس من يدخل المسجد، ويخرج منه كأنه لم يدخل بيتًا من بيوت الله، بل مجتمعًا بشريًّا كمدرسة أو ما أشبه، وتراه يعود إلى سابق عهده من مزاولة المنكرات، وكأنَّ الصلاة لم تُحدِث فيه أثرًا إيمانيًّا، فمن كان هذه حاله فعليه بمراجعة النفس، والبحث عن الخلل الذي تَطَرَّق إلى الصلاة، بحيث لم تظهر عليه آثارُها.

وقد يقول سائل: هل صلوات الناس بهذه الكيفية صحيحة أو باطلة؟

فالجواب: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والذي لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، وهو يزاول المنكرات، ويترك الواجبات فهذا ليس من المتقين، والحصر في القبول إنما هو لأهل التقوى، لكننا لا نقول: إنَّ الفساق تجب عليهم إعادة صلواتهم، فهذا القول لم يقلْ به أحد من أهل العلم، فصلواتهم صحيحة، لكن القبول المرتَّب على هذه الصلاة، ونفي القبول هو بالنسبة للمتقي؛ فالأسلوب أسلوب حصر: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ومفهومه أن الفساق لا يتقبل الله منهم، والمراد بهذا نفيُ الثواب المرتَّب على هذه

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (١٨٨٩٤)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العبادة، ليخرج منها بغير شيء، أو بالعشر أو بأقل أو أكثر، فلينتبه الإنسان لمثل هذا الأمر.

ومن الأعمال الصالحة التي تزكي النفوس وتطهِّرها: زكاة المال، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فهي تطهِّر المال من الشوائب التي قد تشوبه، ومن الشبهات التي تدخل عليه، وتطهِّر صاحبها من أدران الشح والبخل.

ومن الأعمال الصالحة التي تزكي النفوس وتطهرها: الصيام؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فإذا كانت الزكاة تزكي الإنسان في نفسه وعمله وماله، فإن الصيام الذي يقع على مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ يحقِّق التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وأهل العلم يقولون: لعل من الله واجبة.

وحتى تتحقَّق آثار الصوم على المسلم فلا بُدَّ من حفظه عمَّا يخدشه، قال ﷺ: «**الصومُ جُنةٌ**»[1]، وفي رواية: «**ما لم يخرقها**»[2].

أما من يرتكب المحرمات أثناء الصيام، ولا يحفظ صيامه عن قول الزور والعمل به، فإن هذا الصيام فيه خللٌ ولا يورث التقوى، ومع ذلك لا يؤمر

(١) أخرجه النسائي (٢٢٢٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجها النسائي (٢٢٣٣)، وأحمد (١٦٩٠)، والدارمي (١٧٧٣)، من حديث أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بإعادته، فالصوم -والحال هذه- صحيح عند أهل العلم مسقط للطلب، لكن الآثار المترتبة عليه لا توجد، ويعاقَب على ما ارتكبه حال صيامه من محرم بأعظم مما يعاقب به عليه حال فطره.

ومن الأعمال الصالحة التي تزكي النفوس وتطهّرها: حج بيت الله الحرام، قال ﷺ: «**من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، أي: ارتفع عنه الإثم، ومعنى الآية -كما قال ابن رجب وغيره-: هو معنى قوله ﷺ: «**رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه**».

قد يفهم البعض من القيد في الآية: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أنها مدح للتأخر؛ لاقترانه بالتقوى، لكن الصواب أنَّ القيد للأمرين معًا، فالتقوى لمن تعجَّل أو تأخَّر، وأما ترجيح التأخُّر وتفضيله على التعجُّل فيؤخذ من فعل النبي ﷺ إذ تأخر ﷺ ولم يتعجَّل.

فلا بدَّ من التقوى؛ لتكون الآثار المترتبة على هذه الأعمال الصالحة محقَّقة، وبالتقوى تتمُّ تزكية النفس، فلا يمكن أن تتم تقوى من غير تزكية، أو تزكية من غير تقوى.

ومن الأعمال الصالحة التي تزكي النفوس وتطهّرها: قراءة القرآن، قال ﷺ: «**اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»[(٢)]، وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٩٣)، من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[١].

والختمة الواحدة لا تكلف الإنسان حمل أثقال أو نحو ذلك، ولو أنَّ شخصًا اعتاد على القراءة بعد صلاة الصبح في المسجد إلى أن تنتشر الشمس، لقرأ القرآن في سبع، كما قال الرسول ﷺ لابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«فاقرأه في سبعٍ، ولا تزدْ على ذلك»**[٢]، وبهذا يحصل في كل أسبوع على ثلاثة ملايين حسنة، وهذه الملايين مضبوطة ومحفوظة في سجل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، اللهم إلا إذا تسبب القارئ في تضييع هذه الأجور العظيمة، فهذا شيء يعود إليه، كما في حديث المفلس، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟»**، قالوا: «المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع»، قال رسول الله ﷺ: **«المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقتصَّ ما عليه من الخطايا أُخِذَ من خطاياهم، فطرح عليه ثم طُرِحَ في النار»**[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٣١)، وابن منده في (الرد على من يقول الم حرف) (ص: ٥٤) رقم (١٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٨٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٤١١)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وفي الغالب أن من ينشغل بالمنكرات لا يُوفَّق لقراءة القرآن، لاسيما على الوجه المأمور به، فما يودعه العبد في صحائف أعماله مضبوط محفوظ، لا خوف عليه من لصٍّ أو عابث مِنْ أَنْ يتصرف فيه أو يتحكم، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن الأعمال التي بفعلها يزكي العبد نفسه:

• **قراءة القرآن**: ففيها تزكيةٌ للنفوس بلا ريب، والذي يفعل ما أُمر به من قراءة القرآن على الوجه المأمور به بالتدبر والترتيل فهذا من أعظم وسائل تقوية الإيمان، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقينًا، وطمأنينةً وشفاءً»(١)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى ** فالعلم تحت تدبر القرآنِ(٢)

• **ومن الأعمال الصالحة التي تزكي النفوس وتطهرها: ذكر الله تعالى**، قال ﷺ: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**»(٣).

ومن استغل وقته بذكر الله، وأنس بالله جَلَّ وَعَلَا لا يضيق صدره ولا يملُّ من طول الانتظار إن كان يحتاج لشيءٍ ما؛ لأنَّ وقته مصروف في عبادة، فغراس الجنة

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٣.

(٢) نونية ابن القيم، (ص: ٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأحمد (١٧٦٨٠)، والحاكم (١٨٢٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

الباقيات الصالحات[(١)] قول أحدهم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما جاء في الحديث الصحيح أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنَّ الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[(٢)]، أجور عظيمة لا تكلِّف الإنسان شيئًا، فلنا أن نتأمل أنَّ «سبحان الله وبحمده» مائة مرة تقال في دقيقةٍ ونصف، و«**من قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»، والحديث متفق عليه[(٣)].

ولا يقال: إنَّ هذا ثواب عظيم على أمر يسير، ففضل الله واسع يؤتيه من يشاء، والله يضاعف لمن يشاء من عباده، إلى سبعمائة ضعف، وفضل الله أعظم، لذا لما قال ﷺ: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم**»، فقال رجل من القوم: إذًا نُكْثِرْ، قال: «**الله أكْثَر**»[(٤)].

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه أحمد (١١٧١٣)، وأبو يعلى (١٣٨٤)، وابن حبان في صحيحه (٨٤٠)، والحاكم في المستدرك (١٨٨٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الملة»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الملة»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوة إلا بالله». حسَّن الهيثمي إسناد أحمد وأبي يعلى في مجمع الزوائد ١٠/٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، والطبراني في الأوسط (٤١٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٧٣)، وأحمد (١١١٣٣)، وقال الترمذي: «حديث حسنٌ صحيحٌ غريب».

وإذا كان آخر من يدخل الجنة له عشرة أمثال مُلْكِ مِلِكٍ من ملوك الدنيا كما في الحديث[(١)]، فكيف بالسابقين المسارعين إلى الخيرات، فعلى الإنسان أن يعمل ويبذل، وأن يكون على الجادة؛ لأن العمل الصالح لا يُرفع إذا حاد عن الجادة يمينًا وشمالًا، فالعمل لا قيمة له بغير المتابعة والإخلاص.

• **من أعظم وسائل التزكية: حفظ المسلم نفسه من فضول الكلام والنظر والأكل والخلطة.**

أما فضول الكلام، فمع الأسف أنه أصبحت وظيفة كثير من الناس اليوم «القيل والقال»، لاسيما بعد وجود هذه الفتن، التي ماجت بالناس وماجوا بها، تجد مجالسهم معمورة بأقوال بعض الناس، وما تناقلته وسائل الإعلام المختلفة من مرئية ومسموعة ومقروءة، كما أنَّ بعض الناس تجده لا يكفُّ عن الخوض في أعراض المسلمين، يقدح لأدنى مناسبة، وتجد لسانه على كتفه -كما يقال- يقع في الناس كافة، أخيارهم وغير الأخيار، وتجد مثل هذا النوع -وهذا أمر مجرّب- مَن وظيفتُه «القيل والقال» لا يستطيع أن يملك لسانه في المواطن التي جاء الحث فيها على حفظ اللسان، كما أنّه لا يطيق الجلوس مع الأخيار الذين يحفظون ألسنتهم وأسماعهم من «القيل والقال»، فتجد أثقل مجلس عنده شخص يتحرَّى في الكلام الذي يُقال، ويُذكِّر في الله ويعظ في شأن الغيبة، ومن هذا شأنه وديدنه تَرِد عليه مواسم الطاعات كالعشر الأواخر من رمضان، وعشر ذي الحجة، والحج، ويوم عرفة، والمواسم الفاضلة التي تضاعف فيها الأجور، ويريد أن يحفظ نفسه، ويجتمع قلبه على كتاب الله جَلَّ وَعَلَا مثلًا، ثم لا يستطيع.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩)، والترمذي (٣١٩٨)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومدة أداء فريضة الحج لا تزيد عن أربعة أيام، ومع ذلك لا يستطيع ولا يوفَّق مَن ديدنه الخوض في «القيل والقال» أن يحفظ نفسه في هذه الأيام المعدودة؛ لأنه ما تعرّف على الله في الرخاء، ليعرفه في الشدة، فمثل هذا لا يُعان على اغتنام هذه الأوقات الفاضلة، وتراه إذا قيل له: إن السلف يختمون كل ليلة في العشر الأواخر، استبعد هذا وعدَّه ضربًا من الخيال؛ لأنه يقيس الناس على نفسه.

فعلينا أن نحرص على ألا نتكلم إلا بعد محاسبة للنفس، هل هذه الكلمة تنفعني يوم القيامة حين ألقى الله جَلَّوَعَلَا أو تضرني؟ فإنْ كانت مما ينفع أقدَم، وإن كانت تضر أحْجَم، وإن كان لا هذا ولا هذا، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه(١).

ويدخل في الكلام الكتابة، فبعض الناس مغرم بها، ويكتب كثيرًا، فلا تكتب إلا ما ينفعك يوم القيامة.

فــلا تكتــبْ بكفــك غــيرَ شيءٍ ** يــــسرُّك في القيامـــةِ أن تـــراه

أما فضول النظر، فالبصر نعمة من نعم الله -جلا وعلا- لا يعرفها إلا من فقدها، وإذا استُغلت فيمَ لا يرضي الله جَلَّوَعَلَا صارت نقمة، فمن وهبه الله بصرًا فليستعمله في قراءة القرآن، أو قراءة العلم، أو في مصالحه الدنيوية، التي يتخذ

(١) إشارة إلى حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٩)، قال ابن رجب في جامع العلوم والحِكَم ٢٨٧/١: «وقد حسّنه الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ رجال إسناده ثقات، وقرة بن عبد الرحمن بن حيويل وثَّقه قوم وضعَّفه آخرون، وقال ابن عبد البر: هذا الحديث محفوظ عن الزهري بهذا الإسناد من رواية الثقات، وهذا موافق لتحسين الشيخ له، وأما أكثر الأئمة، فقالوا: ليس هو بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنما هو محفوظ عن الزهري، عن علي بن حسين، عن النبي ﷺ مرسلًا».

منها طريقًا وسبيلًا إلى الجنة، لكن إن استعمله فيما حرّم الله عليه كالنظر إلى ما لا يجوز النظر إليه، سواء كان ذلك نظرًا مباشرًا، أو بواسطة آلات أو قنوات، أو مواقِع، أو برامج، أو صور أو مجلات، أو ما أشبه ذلك، فكلّ هذا يحرم عليه النظر فيه.

والسمع من أعظم نعم المولى جَلَّ وَعَلَا على الإنسان، بل فضَّله جمهور أهل العلم على البصر(١)، فإذا كان السمع بهذه المنزلة فلا بد أن يُؤدى شكر هذه النعمة، فلا يُستعمل إلا فيما يرضي الله جَلَّ وَعَلَا، والحذرَ الحذرَ من سماع ما يحرم سماعه، واليوم الأبواب مفتوحة لرؤية وسماع ما يحرم حتى الشرك الأكبر، وباتت قنوات السحر تشاهَد في بيوت عوام المسلمين وتسمع.

شر مستطير لا بد من أن يقف المسلم منه وقفة حازمة، ويقي نفسه، ومن ولّاه الله أمرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، ثم إذا تيسّر للمرء أن يُعدِّيَ هذا النفع خارج بيته: إلى جاره وأخيه وقريبه والأمة بكاملها، فلا يحرم نفسه الأجر العظيم؛ لأن هذا الغزو خطير جدًّا، فقد غزت القنوات الماجنة بيوت المسلمين بالشهوات، ثم بعد ذلك بالشبهات التي تزلزل العقائد، ثم بعد ذلك بالشرك الأكبر.

كيف يزكي نفسه من أتاح الفرصة لمن ولّاه الله أمرهم بمشاهدة هذه الأمور؟! فمن العصمة أن يحسم الإنسان مادة هذه الأمور بالكلية، ويستغني بما ينفعه، أما أن يجعل هذه الأمور في متناول يدِه ويدِ مَن ولّاه الله عليه ممن لا يدرك

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ١٦/ ٦٨، بدائع الفوائد ١/ ٧٠.

المصلحةَ من المفسدة -كحال كثير من البنين والبنات- ثم بعد ذلك يلوم القناة، أو يلوم من تسبَّب في هذا، والحال أنك المتسبِّب. فكما قيل:

ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له ** إياك إياك أن تبتلَّ بالماءِ

فكيف تترك هذه الفتن لمراهق أو مراهقة، ولا حسيب ولا رقيب، ثم تزعم طلب صلاحهم: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]؟! كيف يجاب مثل هذا الدعاء وأنت تركتَ لهم أسباب ووسائل الفساد، ويسرتها لهم؟!

واعلم يا من أعطاك الله الذرية أنَّك إن ربَّيتَ أولادك على الخير والفضل، وحب الخير وأهله، والعلم النافع والعمل الصالح فأبشر بصلاحهم؛ لأنَّك ربيتهم على مراد الله جَلَّ وَعَلَا، لكن إن ربيتهم على خلاف ذلك فلا تتوقع هذه النتيجة، إلا برحمة أرحم الراحمين.

أما فضول الأكل، فهو أيضًا عائق عن الطريق الموصلة إلى الجنة؛ لأن الإنسان إذا أكل كثيرًا نام كثيرًا، وأصيب بالبطنة، والبطنة تورث عدم الفطنة -كما قال أهل العلم-، يكسل ويخمل ويتبلد وتجتمع وتتراكم الدهون في مجاريه وعلى قلبه، ومثل هذا يصعب عليه أن يشمِّر لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أكل كثيرًا نام عن قيام الليل، وقد ينام عما هو واجب عليه مثل صلاة الصبح، وقد يُصاب بأمراض تعوقه عن الأعمال الصالحة، وقد يدفعه نهمه إلى أن يطلب الطعام من غير حلِّه، وكل هذه الأمور عائق عن تزكية النفس.

أما فضول الخلطة فالإنسان لا بد له من أن يجتمع بغيره؛ لأنه كما قال ابن القيم وابن خلدون وغيرهما: «الإنسان مدني بالطبع»(١)، فقد تكون حاجته بيد غيره، وحاجة غيره بيده، فيحتاج إلى أن يجتمع بغيره، فهذه الخلطة لا بأس بها، وليحرص الإنسان -بقدر الإمكان- على تقليلها، وما أوتي كثير من طلبة العلم إلا من قِبَلِ الخلطة، حيث تذهب عليهم الساعات الطوال، ويسهرون الليل كله، فإذا حاول أحدهم وجاهد نفسه على صلاة الوتر ففي حال غلبته لنفسه يوتر بشيء يسير، ولا يحضر فيه قلب، وقد تغلبه نفسه فلا ينشط للطاعة، وهذا سببه الخلطة التي لا فائدة منها.

ومسألة الخلطة والعزلة اهتمَّ بها أهل العلم، وألّفوا فيها الكتب، ومن خير ما أُلِّف في هذا الشأن كتاب: (العزلة) لأبي سليمان الخطابي، من علماء القرن الرابع، المتوفَّى سنة (٣٨٨ هـ)، ذكر فيها النصوص التي تحثُّ على العزلة، من مثل قول النبي ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال يفرُّ بدينه من الفتن**»(٢).

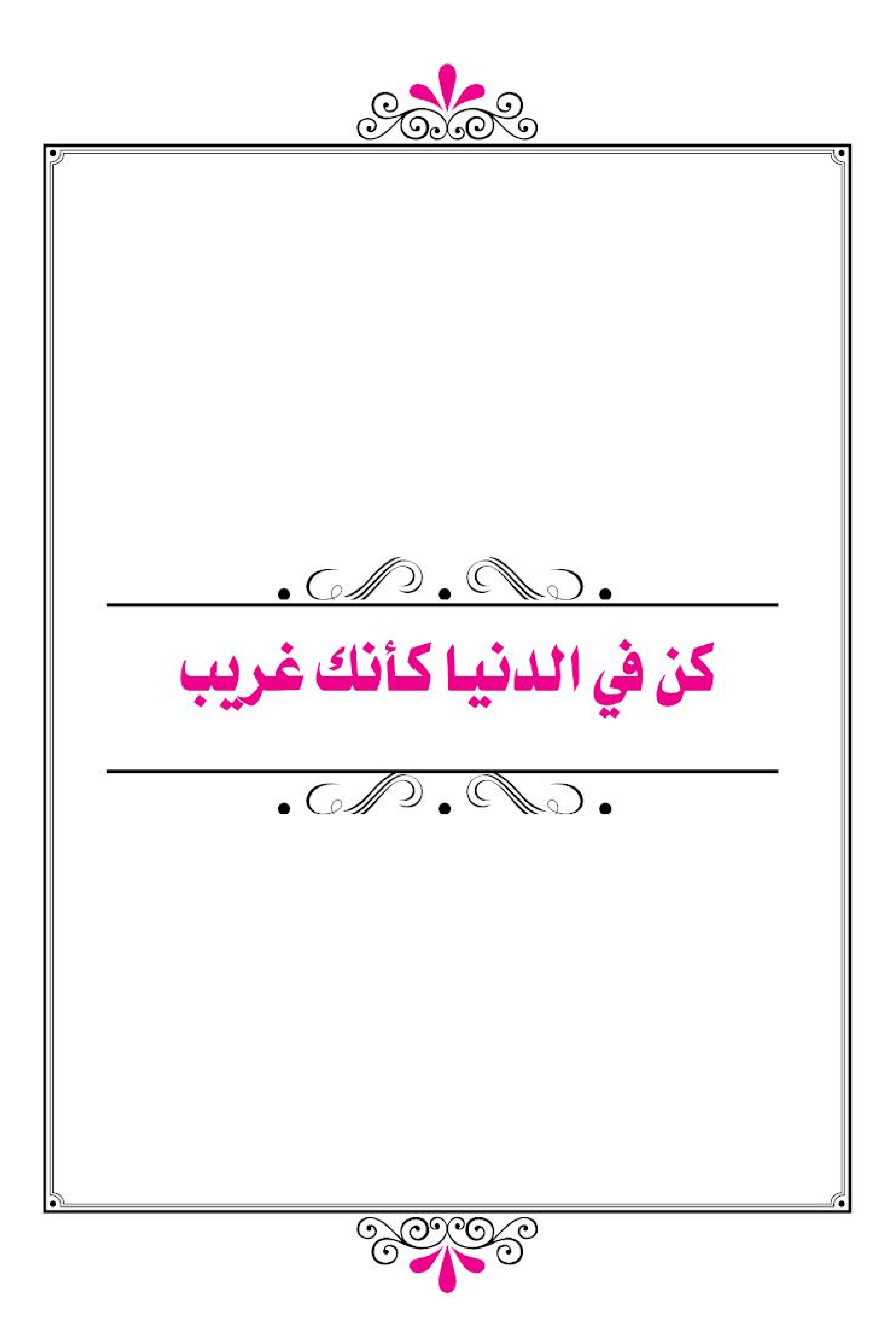
وليعلم أنَّه جاء الأمر أيضًا بالخلطة، والتحذير من ترك الجمع والجماعات، والحث على نفع الناس، ولذا الإنسان في هذا الباب إما أن يكون مؤثِّرًا في غيره غيرَ متأثِّر، أو العكس، فإن كان ممن يؤثِّر في الناس ولا يتأثر بما عندهم من مخالفات فهذا يتعين في حقه الخلطة، وإن كان ممن يتأثَّر بما عند الناس من مخالفات

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١١، مقدمة ابن خلدون (ص: ١٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٩)، وأبو داود (٤٢٦٧)، والنسائي (٥٠٣٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يستطيع أن يؤثِّر فيهم بخير، فإن مثل هذا يتعين في حقه العزلة، وعلى نصوص العزلة يتنزل حال مثل هذا.

وهناك بعض الناس يؤثِّر ويتأثَّر، حيث ينتفع به غيره، ولديه شيء من البذل والنفع المتعدي، ومع ذلك يتأثر بغيره، فهذا يؤمر بما يغلب عليه من طبعه، مع مجاهدة نفسه بعدم التأثر؛ فإذا غلب على ظنه التأثير وتأثره يسير فإنه يجاهد هذا اليسير، ويخالط الناس، أما إذا كان تأثره كثيرًا وتأثيره أقل فمثل هذا العزلة علاجه؛ لأنَّ درء المفاسد عند أهل العلم مقدم على جلب المصالح، وأهم وأولى ما يُعنى به الإنسان إصلاح نفسه، إذ بعض الناس يكون مثل السراج يضيء للناس، لكنه يحرق نفسه، فإصلاح النفس أولى من إصلاح الغير، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



كن في الدنيا كأنك غريب

كن في الدنيا كأنك غريب

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالدنيا في الميزان الشرعي ممر، وليست بمقر، والجن والإنس إنما خلقوا لتحقيق هدف سامٍ هو إقامة عبادة الله جَلَّ وَعَلَا على هذه الأرض، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذا هو الهدف الحقيقي من خلق الجن والإنس، وما جاء من النصوص الآمرة بعمارة الدنيا فذلك من أجل تحقيق هذا الهدف السامي، لا لأجل أن يتخذوها وطنًا ويكونون من أبنائها، بل لأجل أن يستخدمها المسلم فيما يرضي الله جَلَّ وَعَلَا، ويتخذها مزرعة للآخرة، وأما قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]، فهذا خطاب للمسلم الحق الذي يُخشى منه أن ينسى الدنيا في غمار تحقيق الهدف الأسمى -عبادة الله-، فمثل هذا يطالب بالحرص على حظه ونصيبه من الدنيا، الذي به يستعين على عبادة ربه، وهذا بخلاف ما عليه اليوم كثير من المسلمين، وقد يكون من جملتهم -مع الأسف الشديد- بعض من ينتسب إلى طلب العلم، ينسون الآخرة؛ بسبب الانغماس في الدنيا، ويحتجون بالشطر المذكور من الآية، فعكسوا الحال، وجعلوا الوسيلة غاية، والعبد خُلق للآخرة، وأوصي بألا ينسى الدنيا، فصار أمره بالعكس كأنه خلق للدنيا فاحتاج إلى أن يقال له: «ولا تنس نصيبك من الآخرة».

وقد أوصى النبي ﷺ أحد أصحابه الأجلاء بوصية عظيمة؛ ليجعلها نصب عينيه في عيشه في هذه الحياة الدنيا.

فأخرج البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه قال: حدثنا علي بن عبد الله - وهو الإمام الحافظ ابن المديني- قال حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو المنذر الطفاوي عن سليمان الأعمش قال: حدثني مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(١)].

وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما صحابي جليل عابد، ذاع الثناء عليه في عهد النبي ﷺ، واشتهر بالاقتداء بالنبي ﷺ، قال النبي ﷺ فيه: «**نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل**»، فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلًا[(٢)]. فصار هذا دأبه وشأنه أصبح لا ينام من الليل إلا قليلًا؛ ليتحقق فيه المدح النبوي: «نعم الرجل عبدالله».

والوصية النبوية لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وصية لكل مسلم؛ لأن خطاب الشرع للواحد خطاب للجماعة، فعلى كل مسلم أن يمتثل هذه الوصية التي تضمنها هذا الحديث العظيم، وهو من الأحاديث الجوامع التي أودعها النووي كتابه النافع المختصر: «الأربعون»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).
(٢) أخرجه البخاري (١١٢٢)، ومسلم (٢٤٧٩).
(٣) هو الحديث الأربعون منها.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدثنا وكيع عن سفيان عن ليث -هو ابن أبي سليم- عن مجاهد عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «**يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل واعدد نفسك في الموتى**»[(١)].

وأخرجه الترمذي من طريق سفيان عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك في أهل القبور**» كرواية الإمام أحمد وزاد: فقال لي ابن عمر: «إذا أصبحت فلا تُحدِّثْ نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تُحدِّث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك؛ فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدًا»[(٢)].

وأخرج ابن ماجه كذلك من طريق حماد بن زيد عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[(٣)].

وأخرجه النسائي في سننه الكبرى من طريق الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «اعبدِ الله كأنَّك تراه، وكُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابرُ سبيل»[(٤)].

---

(١) المسند (٤٧٦٤).

(٢) الترمذي (٢٣٣٣).

(٣) ابن ماجه (٤١١٤).

(٤) ذكره المزي في تحفة الأشراف (٥/ ٤٨١)(٧٣٠٤) وقال: «ليس في الرواية، ولم يذكره أبو القاسم»، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣/ ١١٢٤).

وما تضمنه هذا الحديث من الوصايا هو في عرف كثير من الناس -حتى بعض الخيِّرين منهم- رهبانية وتحريمٌ لما أحل الله من الطيبات، وليس هذا صحيحًا، فالمسلم إذا احتاط لنفسه وترك الشبهات وبعض المباحات، واكتفى ببعض ما في هذه الدنيا بالبُلغة التي توصله إلى دار القرار من غير أن يحرّم على الناس ما أحله الله لهم، فهذا حسنٌ -ما لم يفضِ إلى الضعف عن واجب، أو الوقوع في حرام-، وهذا هو الحزم والعزم، وهذه طريقة السلف وسبيلهم.

قوله في رواية أحمد: «عبدَ الله، كن كأنك غريب أو عابر سبيل» عبدَ الله: منادى، أي: يا عبد الله، فحذف حرف النداء قبله، وهذا كثير مشهور.

وفي رواية النسائي: «اعبدِ الله كأنك تراه وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وهذه منزلة الإحسان، فالإحسان كما فسَّره النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)] وهي منزلة المراقبة، ومرتبة الإحسان فوق مرتبة الإيمان، وتكون لمن استحضر معنى اسم الله الرقيب والشهيد، ومن استحضر مراقبة الله له وشهادته عليه لن يقدم على ذنب، ولن يترك واجبًا؛ لأنه يستشعر أن الله جَلَّ وَعَلَا يراه، ولكن فوق مرتبة استشعاره كون الله جَلَّ وَعَلَا يراه، المرتبة التي يعبد الله فيها كأنه يرى الله جَلَّ وَعَلَا فإذا وصل إلى هذه المنزلة العظيمة، وإذا استشعر أنه يرى الله جَلَّ وَعَلَا فمثل هذا لا يستطيع أن يفعل ما منعه الله منه جَلَّ وَعَلَا بحضرته، ومثل هذا لا يتصور منه وقوع الذنب، فإذا كان الإنسان بحضرة مخلوق لا يستطيع أن يفعل ما لا يرضي هذا المخلوق لا سيما إذا كانت له سطوة بحيث يخاف منه، فكيف بالواحد القهار العزيز الجبار، والله المستعان؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضمن حديث جبريل المشهور.

قوله: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبِيْ» بالإفراد، وفي بعض الأصول ضبط بالتثنية «بمنكبَيّ»[١]، والمنكب: مجتمع رأس الكتف مع العضد[٢]، وفي رواية أحمد والترمذي السالفة: «ببعض جسدي» وهذا مبهم، عيّنته الرواية المتقدمة، فتبين أن بعض الجسد الذي أبهم في بعض الروايات هو المنكب.

وفي أخذه ﷺ بمنكب ابن عمر تنبيه وحث له على وعْي ما يلقى عليه في هذه الحال، فإنه إذا احتف بالقول فعل كان أدعى إلى ثبوت هذا القول ورسوخه في قلب السامع، ففيه التنبيه على أن هذا أمر مهم ينبغي الحرص عليه. وإخبار ابن عمر بذلك وقوله: «أخذ بمنكبِيْ، وقال: ...» يدل على أنه ضبط الخبر وأتقنه؛ لأن الراوي إذا أتى برواية، وفيها قصة أو حادثة وقعت له أثناءها، أو كانت سببًا للقول، فهذا يدل على ضبطه الخبرَ وإتقانه إياه؛ إذ كيف يضبط القصة والحادثة وهي قليلة الفائدة، ويترك الرواية المرفوعة التي هي بيت القصيد ومحط الفائدة؟! فأهل العلم يستدلون بذلك على أن الراوي أتى بالخبر بعُجَرِه وبُجَرِه[٣].

«**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» «أو» هذه ليست للشك، وإنما هي للتخيير والإباحة، فأنت مخير بين أن تكون في هذه الدنيا غريبًا، أو تكون عابر سبيل. وكذلك تأتي «أو» للإضراب[٤]، فتكون بمعنى بل، يقول ابن حجر: «والأحسن أن

---

(١) ينظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

(٢) ينظر: المحكم لابن سيده (٧/ ٦٧).

(٣) أصل العجر والبجر: «نتوء في الظهر والسرة، ثم نقل ذلك إلى الهموم والعيوب الباطنة، يُضرب في إطلاع الرجل صاحبه على غامض سره وهمه؛ لثقته به، ويطلق على الإخفاء في كل شيء، وذكره برمته». ينظر: المستقصى للزمخشري (١/ ٩٣).

(٤) وعليه خرج قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وينظر: مغني اللبيب لابن هشام (١/ ٩١).

تكون بمعنى بل»[(١)]، فيكون معنى الحديث: كن في الدنيا كأنك غريب، ثم أضرب عن الكلام الأول، فقال: بل كن فيها أشد من ذلك كأنك عابر سبيل.

وقد أدركنا بعض العباد كأنهم لا يعرفون أحدًا، فإذا سألته عن حاله وأولاده أجابك بقدر الحاجة وانصرف، وأدركنا من أهل العلم من تجده يقرأ القرآن فتسأله عن المسألة الشرعية فيجيبك بقدر الحاجة، ثم ينصرف إلى ما هو بصدده من التلاوة، والخير في أمة محمد إلى قيام الساعة، ولكنهم -مقارنة بالسابق- قلة، فقد تجد الآن بعض طلاب العلم في الأوقات الفاضلة عشرَيْ رمضان وذي الحجة مثلًا، والأماكن الفاضلة في المسجد الحرام أو النبوي، وقد يكون قطع مسافات طويلة؛ رغبة في الخير والثواب، فتراه يصلي العصر ويمسك المصحف فيقرأ بضع دقائق، ثم يلتفت لعله يرى أحدًا ممن يعرفه يحدثه إلى الإفطار، فإن جاءه أحد وإلا قام يبحث عما يشغل به وقته من كلام أو نظر للذاهب والآيب، تخونه سابقته العملية؛ لأنه لم يتعوّد على الحزم، وليس له ورد يومي من كتاب الله لا يخل به سفرًا ولا حضرًا، بل ربما كان طول عامه لم يفتح المصحف، لم يتعرف على الله في السعة بالتقرب إليه بالطاعات، والنبي ﷺ يقول: «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[(٢)]، فكيف يُوفَّق لاستغلال الوقت الفاضل ولاغتنام المواسم المباركة من شَغَل وقته طيلة عامه بالقيل والقال، والاستراحات والطلعات، والتنزه والرحلات؟!

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٠٣) ٥/ ١٨، ١٩، والبيهقي في الشعب (١٠٧٤) ٢/ ٢٧، من طريق حنش به، وعبد بن حميد بشطريه (٦٣٦) عن عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٤٢، والطبراني في المعجم الكبير (١١٢٤٣) ١١/ ١٢٣، (١٠٠٠١) ٧/ ٢٠٣، وغيرهم من طرق.

فمثل هذا لا يُوَفَّق لاغتنام الفرص ولا إلى استباق الخيرات، ومثل ذلك ما يقع لكثير من المخلطين الذين لا يحتاطون لمنطقهم، فإذا حجَّ أحدهم -وقد علم قوله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[(١)]- يقول: الحج أربعة أيام فقط، والصبر عن اللغو والرفث والفسوق مدة أربعة أيام سهل، لكن هل يُوفَّق لمثل هذا؟! كلا؛ لأنه اعتاد على القيل والقال، ولا تطاوع نفسه إذا أراد الصبر عما اعتاد.

وقوله ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» قال ابن حجر فيه: «فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة، بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة، وقطاع طريق، فإن من شأنه ألا يقيم لحظة، ولا يسكن لمحة»[(٢)].

فتصور شخصًا ليس له بيت يسكنه، ولا ولد له ولا متاع له، وهو في مكان لا يعرف فيه أحدًا هل سيرتاح؟ كلا، لن يرتاح، بل يبقى قلِقًا مستوفزًا، لا يلوي على شيء مما يهتم به أهل البلد المقيمون، فإذا تصور الإنسان نفسه بهذه الصورة دعاه هذا التصور إلى أن يزهد في الدنيا، ويتخفف من كثير من أعبائها، ويعمل للآخرة.

والغريب استقراره أكثر من عابر السبيل؛ لأن الغريب قد يقيم في البلد، ويسكن بيتًا ويركب سيارة ونحو ذلك، لكنه لا يَعرف ولا يُعرف، فيقل اهتمامه بأحوال من لا يعرف، ولا يكترث بكثير مما يتنازع عليه المقيمون، وكذلك من

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠) واللفظ للبخاري.
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

أنزل نفسه في الدنيا منزلة الغريب يحدوه هذا الشعور إلى قلة الاكتراث بالدنيا، وإلى شدة العناية والحرص على العمل الصالح.

فإذا ترقى من حال الغربة، وتصور نفسه عابر سبيل، كرجل أتى من أقاصي الشرق أو الغرب للحج، ومر ببلاد كثيرة خلال سفره، فهل سيطيل الأمل، ويتعلق من تلك البلاد التي مر بها بأكثر مما يبلغه ما سافر لأجله؟ هل سيزرع؟ هل سيعمر المباني، ويُجري الأنهار؟ كلا، لا يفعل من ذلك شيئًا، بل هو مقتصر على ما لا بد له منه من قوتٍ له ولمركوبه، فإذا تصور الإنسان أنه في دنياه كلها منذ ولد إلى أن يموت «عابر سبيل»، وأن الدنيا كلها ممر فحسب -كأنما دخل من باب وخرج من باب آخر-، فلن يطيل الأمل -، وطول الأمل رأس كل بلية-ولن يهدأ له بال، ولا يرتاح له ضمير حتى يصل إلى الموضع الذي يريده ويقصده، وفي سفرنا إلى الآخرة أمور مهولة، وفتن كقطع الليل المظلم، وبعض الفتن أشد فتكًا بالناس من قطاع الطريق، وأشد من السباع الضارية، وما الذي يؤمن العبد أنه لن يفتن في دينه ويرتد عن الإسلام -نسأل الله السلامة والعافية -؟!

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا في شرح هذا الحديث معناه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله»[١].

(١) رياض الصالحين (ص: ٥٨١).

ومثل هذا الكلام يقبَل من مثل النووي الذي صدق فعله قوله، فعاش على الماء والملح والخبز، الذي لم يأكل فاكهة دمشق تورعًا؛ ولما سئل عن علة امتناعه قال: لغلبة الأوقاف وأملاك من هم تحت الحجر شرعًا، والتصرف في ذلك لا يجوز إلا على وجه الغبطة، والمعاملة فيها على وجه المساقاة، وفيها خلاف بين العلماء[(١)]. ومن يطيق ما أطاقه النووي؟! فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب عبادة، وصاحب علم غزير، وصاحب التحري والتورع، وصاحب تأليف مبارك، نفع الله به في جميع أقطار الدنيا على ما عنده من خلل في الاعتقاد، لكنه في هذا الباب فرد لا يكاد يشبهه أحد.

ولا يعني ذلك أن يشق العبد على نفسه أو يكلفها ما لا تطيق، ولكن على العبد أن يتوسط في أموره.

قال ابن حجر في نقله عن بعض العلماء: «عابر السبيل» هو المارّ على الطريق طالبًا وطنه، فالمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه، ولا يتعلق بشيء غير ما هو فيه»[(٢)]. والسيد يعرف كم تأخذ المسافة من الوقت، فلو تأخر العبد يومًا واحدًا عرف السيد وحاسبه، فإذا أنزل المرء نفسه هذه المنزلة -وكلنا عبيد لله جَلَّ وَعَلَا- خلقنا

---

(١) ينظر: المنهل العذب الروي للسخاوي (ص: ٢٨) وقال عقبه: «ثم إن ما تقدم في تركه الأكل من الفاكهة، هو المنقول المستفيض، ولكن يُحكى -كما بلغني- أنه أكل مرة نصف حبة من بعض الفواكه؛ لكون بعضهم علّق عتق عبد له على أكل الشيخ منها، وبلغه ذلك، ففعله؛ لما ينشأ منه من فك رقبة مؤمنة، ولعله يتقيأه بعد استقراره، كما فعل الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إنه لم يغتفر هذا القدر اليسير».

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٤).

لعبادته جد وشمر، فالله سائلنا عن أعمارنا وأوقاتنا كيف وفيمَ أبليناها؛ «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع...»[(١)].

والسنون حُجَجٌ على العباد، فمن أمهله الله جَلَّ وَعَلَا ستين سنة فلا عذر له، وفي الحديث «**أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة**»[(٢)].

ومن سار نحو الدار ستين حجة ** فقد حان منه الملتقى وكأنْ قدِ[(٣)]

وليس هذا عذرًا لمن دون الستين! فلو دخلت المقابر وجدت الصغار أكثر من الكبار، لا سيما مع كثرة حوادث السيارات، وضحاياها الشباب في الغالب، فلا يسوِّف الشاب ويقول: ما زال في العمر فسحة. وما يدريك؟! فأعد للأسئلة أجوبةً صحيحةً تنجيك من عذاب الله جَلَّ وَعَلَا.

فعابر السبيل مسافر، والسفر طبيعته المشقة، والألم وعدم الاستقرار وراحة البال، قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المخرَّج في الصحيح: «**السفر قطعة من العذاب**»[(٤)].

---

(١) أخرجه هنادٌ في الزهد (٧٢٤)، والطبرانيُّ في الكبير (١١١)، والبيهقيُّ في الشعب (١٧٨٥)، عن معاذ بن جبل، وأخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٥٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/١٠)، من حديث أبي برزة، وأخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٤٧)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وجاء أيضًا من حديث ابن مسعودٍ وأبي الدرداء وابن عباس وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) من نظم ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ المسمى: «عِقد الفرائد وكنز الفوائد» (٤٠٣/١).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧).

وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تنفيذًا لوصية النبي ﷺ يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» ومع بالغ الأسف ندر من يطبق هذه الوصايا، فاختبر أبناء الزمان بأدنى شيء وقت الطعام إذا قدم له الغداء هل يقول: قد لا أدرك العشاء؟! واقعنا بعكس ذلك تمامًا. نسأل الله أن يخلِّصنا من طول الأمل، والله المستعان.

وأما ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيقول من عنده، بعد وصية رسول الله: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»، فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كغيره من الصحابة في سرعة المبادرة إلى قبول التوجيهات النبوية والوصايا الشرعية يطبق ذلك على نفسه، ويرشد غيره إلى تطبيق تلك الوصية، بأن لا سبيل إلى تطبيق الوصية النبوية إلا بقصر الأمل المفسر بـــكلامه السالف، وهذا الخطاب من ابن عمر وإن توجه لشخص فالمراد به كل من يتأتى خطابه، كما قيل في خطاب النبي ﷺ: هو له ولغيره.

وقد كان ابن عمر -كما سلف قريبًا- لا ينام من الليل إلا قليلًا، ومن اعتبر نفسه عابر سبيل وعلى جنح سفر فهذا لا ينام من الليل إلا قليلًا؛ لأنّ صلاة الليل وقود للمسافر توصله إلى مراده بإذن الله جَلَّ وَعَلَا، وهي «دأب الصالحين»[1] ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧] ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾

---

(١) كما روي في حديث بلال مرفوعًا: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم»، أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) وفيه متروك، ولكن له طريق أمثل من هذا عن أبي أمامة أخرجه ابن خزيمة (١١٣٥)، و الحاكم في المستدرك (١١٥٦) وصححه، وعنه البيهقي في الكبرى (٤٨٣٢)، وله شاهد عن سلمان أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٥٤).

[السجدة: ١٦]، وأما من ركن إلى الدنيا، وسوّف ومنى نفسه بأن ما عند الله ملحوق عليه، بحجة أنه ما زال في الثلاثين أو الأربعين، فليس من هذا ولا هذا منه في شيء، وإن تعجب فاعجب لشخص بلغ الستين، وقد ابيضت لحيته، ولا يشهد الصلاة مع الجماعة! فلما نصح وكلم -وكان يوم جمعة- قال: ما زلت في الستين، وقد مات أبي عن عشرين ومائة سنة، وجدي عن عشر ومائة، وخالي عن كذا! فتوفي في الجمعة التي تليها. وهذه حادثة واقعية ليست افتراضية.

فينبغي على المسلم إذا سمع عن الله عَزَّوَجَلَّ أو عن رسوله ﷺ أمرًا أو نهيًا أن يبادر إلى التنفيذ، ولا يسوف ويتأخر في ذلك؛ لأنه لا يدري متى يَبْغَتُه الأجل.

«إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» هذا المعنى مقتضب من الحديث؛ لأن الغريب لا يدري متى يتوجه إلى وطنه مساءً أم صباحًا، فإذا أمسى في بلد غربة، فإنه لا يهتم بالصباح ولا ينتظره لاشتغاله بسفره، فكذلك الإنسان في هذه الدنيا مشبه بالغريب في حلِّه وترحاله، فتصور شخصًا مسافرًا من بلد إلى بلد له فيه معاملة في دائرة من الدوائر، والموظف يقول له: اليوم تأخر المدير، فيطلب منه الحضور من الغد، وقد يمتد الأمد إلى أسبوع، فهذا حال انتظاره لا يبالي بكبير شيء ولا يتعلق بما يتعلق به المستوطنون، والإنسان إذا صور نفسه بهذا الواقع عمل وجدّ.

«وخذ من صحتك لمرضك» أي: خذ من زمن صحتك لزمن مرضك، وفي رواية: «لسقمك» والمعنى: اشتغل حال الصحة بالطاعة بحيث لو حصل تقصير في المرض انجبر بذلك العمل في الصحة، وفي الحديث الصحيح: «إذا مرض

العبد، أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا»[١]، فإذا كان في حال صحته يصلي في اليوم كذا ركعة، ويصوم أيام التطوع المرغب في صيامها، ويقرأ كذا جزءًا من القرآن، ثم مرض كتب له عمله الصالح الذي كان يعمله حال صحته؛ لأنه ما أقعده عن هذه الأعمال إلا المرض، وكذا لو سافر وكان معتادًا لعمل صالح فيكتب له إذا منعه السفر منه.

فعلى الإنسان أن يستكثر في حال الصحة والفراغ من أنواع العبادات والطاعات اللازمة والمتعدية؛ ليستمر العمل ولا ينقطع إذا اعتراه ما يعوقه عنه.

«ومن حياتك لموتك» أي: خذ من عمرك حال حياتك زادًا يصحبك بعد موتك، وخير الزاد التقوى، قال ابن حجر: «قوله «خذ من صحتك» أي: اعمل ما تلقى نفعه بعد موتك وبادر أيام صحتك بالعمل الصالح فإن المرض قد يطرأ فيمنع من العمل فيُخشى على من فرَّط في ذلك أن يصل إلى المعاد بغير زاد»[٢]، والحياة كلها دروس وعبر، فكم من شخصٍ يصابُ بحادثٍ فيفقد الوعي ويُسمع يتلو القرآن واضحًا جليًا كما كان يقرأ في حال الصحة، وفي المقابل آخر يغمى عليه فيردد: «لعنك الله يا فلان» و«أين أنت يا ملعون؟» ونحو هذا السباب والفحش، وبعض هذه الوقائع شهدتها بنفسي، فمن اعتاد شيئًا في حال السعة ظهر على لسانه حال الاضطراب والشدة؛ لأن الأول تعود على قراءة القرآن، والثاني تعود على السبِّ والشتم -نسأل الله السلامة والعافية-، وكما يقال في المثل: «على نفسها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦)، وأحمد (١٩٦٧٩).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٥).

جنت براقش»[(١)].

وهناك شخص اعتاد الجلوس في المسجد بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ستين سنة، فكانت خاتمته أن توفي والمصحف بحجره يقرأ القرآن ينتظر طلوع الشمس!

يختم للإنسان بما عاش واعتاد عليه، ويبعث على ما مات عليه ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

والمريض والمسافر يُكتب لهما ما كانا يعتادانه من العمل الصالح حال خلوِّهما من الموانع، ومَنْ لم يكن له عادة من عمل صالح، وحصل له سفر أو مرض أو غيرهما، فلا يكتب له شيء، وماذا يكتب له وليس له رصيد سابق؟! فهذا إذا مرض ندم على تركه العمل، ولات ساعة مندم.

وكم نرى من كبار السن على حال غير مرضية فيلام، ولكن هيهات، يريد أن يعمل وأن يقدم شيئًا فلا يستطيع؛ لأنه لم يتعرف على الله في حال الرخاء، فلم تعرفه الصالحات في حال الشدة، وفي مستدرك الحاكم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[(٢)].

---

(١) **براقش**: اسمُ كلبةٍ جنت على أهلها فدلت عليهم العدو بنباحها، يضرب مثلًا لمن لقي شرًّا وآفته من نفسه. ينظر: مجمع الأمثال (٢/ ١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (١١١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: «على شرطهما»، ووافقه الذهبي، وحسنه العراقي في المغني(٢/ ١٢٠٦) وقال

«**شبابك قبل هرمك**»؛ لأن الشباب وقت القوة والنشاط والحيوية، وإذا كبر العبد عجز عن كثير مما كان يسهل عليه حال شبابه، ومع هذا هل يُصَدَّق أنه وجد من الشباب في سن الثلاثين من لا يستطيع القيام في صلاة التهجد أكثر من خمس دقائق، فإن زادت كاد يغمى عليه!! وفي المقابل أعرف شخصًا جاوز المائة، وإذا صلى القيام وقف خلف الإمام الذي يقرأ جزءًا كاملًا في الركعة!! فهل بدن هذا الشيخ أقوى؟ كلا، فليس بينهما نسبة، لكن قلبه متعلق بالله، والبدن تبع له!

«**وغناك قبل فقرك**» ابذل في حال الغنى، وأنفق في وجوه الخير قبل أن يفوت المال وأنت لم تقدم شيئًا.

«**وفراغك قبل شغلك**» الفراغ نعمة، وفي الصحيح مرفوعًا: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[(١)]، هل الصحيح مغبون، والفارغ مغبون؟ نعم، مغبونان إذا أضاعا الصحة والفراغ في غير ما يرضي الله جَلَّ وَعَلَا.

فإذا كان الذي يبيع السلعة بنصف قيمتها مغبون في عرف الناس، فكيف بمن يبيع نفسَه بدون مقابل؟! والنفَس هو الساعات التي تعيشها، فإذا فرطت فيها فأنت مغبون.

والناس الآن يعيشون -ولله الحمد- في رغد من العيش، وكثير منهم فارغ أكثر من نصف وقته، تمر عليه خمس ساعات أو أكثر أو أقل وهو جالس إما

البيهقي في الشعب (١٢/٤٧٦): «وهو غلط»، وأشار إلى أن الصواب ما أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٧٧)، والنسائي في الكبرى (١١٨٣٢)، عن عمرو بن ميمون الأودي به مرسلًا.

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بملحق بيته أو في استراحة واضعًا رجلًا على أخرى، يقلب قنوات تلفازه، أو الجوال، أو صفحات الجرائد فارغًا عاطلًا من عمل الآخرة، فهذا لا يستحق أن يسمى عمرًا، فالموت والحال هذه أفضل منه!

وهذا فيمن ضيعه فارغًا عاطلًا من خير الآخرة، فكيف بمن ضيعه في محرمات -نسأل الله السلامة والعافية-؟

«**وحياتك قبل موتك**» قدم في حال الحياة قبل أن تموت، فتتمنى ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم -يعني يبتلى بنفسه بشواغل مقلقة-، أو أمر العامة**»[١]، بأن يأتيك ما يشغلك من أمر الناس كلهم، وهي أيام الفتن والحوادث[٢]، ولا يخفى على أحد وضع الأمة اليوم، وما تعيشه، وما يكاد لها ويُحاك ضدها، فعلى الإنسان أن يبادر بالعمل في وقت الرخاء ووقت السعة، حتى إذا أدركه وقت الضيق تداركه الله جَلَّ وَعَلَا بلطفه، وأنجاه من هذه الفتن والحوادث ببركة مبادرته إلى الطاعات أيام الفراغ والسِّعات، وفي صحيح مسلم أيضًا: «العبادةُ في الهرج كهجرةٍ إليّ»[٣]، ففي أوقات الفتنِ والقتلِ الواجبُ على المؤمن أن ينزوي ويعبد الله جَلَّ وَعَلَا، يكثر من نوافل الصلاة والصيام، وتلاوة القرآن، والذكر، وثواب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٧).

(٢) ينظر: شرح المشكاة للطيبي (٣٤٤٩/١١)، والتنوير للصنعاني (٥٢٧/٤)، وقيل: خاصة أحدكم: الموت، وأمر العامة: القيامة. ينظر: شرح النووي (٨٧/١٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٨)، عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العمل الصالح في هذه الأوقات مثل ثواب الهجرة إلى النبي ﷺ، فكأنّ العامل فيها -لعسر العمل وقلة المعين- هاجر إلى النبي ﷺ، وفي الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنظرون إلا فقرًا مُنْسِيًا، أو غنى مُطْغِيًا، أو مرضًا مفْسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدجال فشَرُّ غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأَمَرُّ**»[(١)].

«**فقرًا مُنْسيًا**» يُنسيك الطاعة من الجوع والعري والتردد في طلب القوت، ويلهيك عن نفسك فضلًا عن ولدك وعبادتك، وقد روي: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[(٢)]، قال الطيبي: «لأنه -يعني: الفقر- يحمل المرء على ركوب كل صعب وذلول، طالبًا إزالته، وربما يؤديه إلى الاعتراض على الله والتصرف في ملكه»[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال عقبه: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث محرر بن هارون، وقد روى بشر بن عمر وغيره عن محرر بن هارون هذا، وقد روى معمر هذا الحديث عمن سمع سعيدًا المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه». وهكذا رواه منقطعًا بين معمر وسعيد ابن المبارك في الزهد (٧)، وعنه هناد في الزهد (ص: ٢٨٩). وعلق الحاكم في المستدرك (٣٥٦/٤) صحته على سماع معمر من سعيد المقبري. وقد أخرجه الطبراني في الأوسط (١٩٢/٤) من طريق معمر عن ابن عجلان عن سعيد به، ولكنه من طريق محمد بن حميد الرازي وهو واهٍ. ومحرر -ويقال بالزاي- الوارد في رواية الترمذي منكر الحديث، كما قال غير واحد، وينظر: الضعفاء للعقيلي (٢٣٠/٤)، ميزان الاعتدال (٢٩/٦). تنبيه: نقل النووي في الخلاصة (٨٩٢/٢)، وفي الرياض (ص: ٨٧)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (ص: ١٨٣٧) عن الترمذي أنه قال: «حسن».

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٢/٩) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٠٥/٢): «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ويزيد الرقاشي لا يعول على ما يروي». والطبراني في الدعاء (ص: ٣١٩) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعله العقيلي بمعمر بن زائدة، وقال: «لا يتابع على حديثه»، الضعفاء (٢٠٦/٤).

(٣) شرح المشكاة (٣٢٢٠/١٠).

«**أو غنى مطغيًا**» كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦ – ٧].

«**أو مرضًا مفسدًا**» يفسد الجوارح، بحيث لا تستطيع أن تزاول ما كانت تستطيع مزاولته حال الصحة.

«**أو هرمًا مفنّدًا**» أي: موقعًا في الفنَد وهو: الخرف[(١)].

«**أو موتًا مُجْهِزًا**» مسرعًا يجهز عليك، فينهي كل طموحاتك وتخطيطاتك للمستقبل.

«**أو الدَّجالِ فشرٌّ غائب ينتظر**» الدجال الذي يفتن الناس عن دينهم شر غائب منتظر؛ ولذا أُمِرْنا بالاستعاذة منه في آخر كل صلاة[(٢)].

«**أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ**» أفظع وأَمَرُّ من كل ما يكابده العبد في الدنيا من الشدائد[(٣)].

يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في شرح الأربعين المسمى «جامع العلوم والحكم» -وهو كتاب نفيس لا يستغني عنه عالمٌ ولا متعلم-: «والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة وخروج

---

(١) ينظر: التنوير للصنعاني (٤/٥٢٩).

(٢) كما في مسلم (٥٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربعٍ يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال**».

(٣) شرح الطيبي (١٠/٣٢٨٤).

الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث آخر: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم**»[(١)]، وبعض هذه الأمور العامة لا ينفع بعدها عمل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانًا لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[(٢)(٣)]، وما يؤمنك أن تخرج لعملك صباحًا فترى الشمس قد خرجت من مغربها؟ وحينئذ تتمنى أن لو كنت عملت وفعلت، لكن لا ينفع.

فالواجب على المسلم المبادرة بالأعمال الصالحة قبل ألا يقدر عليها، وأن يحال بينه وبينها إما بمرض أو موت، أو بأن يدركه بعض هذه الآيات التي لا يُقبل معها عمل، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبقَ إلا الحسرة والأسف والندم وتمني الرجوع إلى حالة يتمكن فيها من العمل، فلا تنفعه حينئذٍ الأماني، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] وفي

(١) أخرجه مسلم (١١٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩).
(٣) جامع العلوم والحكم (٣/١١٣٨-١١٤٠).

الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**ما من ميت يموت إلا ندم**»، قالوا وما ندامته؟ قال: «**إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد**» هذا محسن، وهو من يأتي بالفرائض، ويجتنب النواهي، ويفعل المندوبات، ومع ذلك يندم؛ لتمنيه أن يكون ازداد من الصالحات، فبدلًا من أن يصوم في الشهر ثلاثة أيام يصوم عشرة أيام، وبدل أن يختم كل سبع يختم كل ثلاث، وهكذا في باقي الأعمال، يتمنى أن يزداد، «**وإن كان مسيئًا ندم ألا يكون نزع**»[(١)] يعني: راجع نفسه وتاب، قال بعضهم:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ** فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقم ** ذهبت نفسه الصحيحة فلتة[(٢)]

فموت الفجأة كثير وظاهر.

يقول الطوفي عن حديث الباب: «هذا الحديث أصل في الفراغ عن الدنيا والزهد فيها والرغبة عنها والاحتقار لها والقناعة فيها بالبلغة»[(٣)].

فهذه الدنيا بجميع ما حوته من متع وملذات لا تزن عند الله جناح بعوضة، لكن من الذي يعي ويُقدر هذا الكلام قدرَه؟ فهاك مثالًا من حال سلف هذه الأمة يبين لك حقارة الدنيا في أعينهم، فهذا سعيد بن المسيّب كانت عنده بنت في

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٣) وقال عقبه: «هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، ويحيى بن عبيد الله قد تكلم فيه شعبة، وهو: يحيى بن عبيد الله بن موهب مدني»، ويحيى هذا ضعيف جدًّا كما يُعرف من ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري (٨/ ٢٩٥).

(٢) جامع العلوم والحكم (٣/ ١١٣٨ - ١١٤٣) بتصرف. والبيتان من شعر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، قال ابن حجر في مقدمة الفتح (ص: ٤٨١): «وكان من العجائب أنه هو وقع له ذلك أو قريبًا منه».

(٣) التعيين في شرح الأربعين (١/ ٣٢٩).

غاية الجمال والأدب والعلم، خطبها ابن عبد الملك بن مروان، وابن الخليفة في عُرْفِ الناس: الدنيا بحذافيرها، فقال سفير الخليفة لسعيد: جاءتك الدنيا بحذافيرها: ابن الخليفة جاء يخطب ابنتك. فقال سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، فماذا تُرى أن يقص لي من هذا الجناح؟» وزوَّجها أحدَ طلابه فقيرًا بدرهمين(١).

فيلاحَظ مع الأسف الشديد على كثير من طلاب العلم فضلًا عن عامة الناس التقصير في حق الله جَلَّ وَعَلَا لاسيما فيما يتعلق بكتابه الذي هو كلامه المتعبَّد بتلاوته، وقد جاءت النصوص الكثيرة التي تبين فضل هذا الكتاب، وتعلم هذا القرآن وتعليمه، وأن للقارئ بكل حرف عشر حسنات، وبإمكان الإنسان في ساعة واحدة أن يحصل على نصف مليون حسنة. والماهر يقرأ القرآن في ست ساعات على أقل تقدير بثلاثة ملايين حسنة، فإذا أُضيف إلى أجر الحروف أجر التدبر وأجر التفقّه وأجر التعلم تضاعفت الأجور إلى أضعاف كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء، وفضل الله جَلَّ وَعَلَا لا يُحدّ، فقد جاء في المسند حديث فيه مقال، ولكن سعة فضل الله جَلَّ وَعَلَا تشهد له: «إن الله ليضاعف لبعض عباده إلى ألفي ألف حسنة»(٢) أي: مليوني حسنة.

والذكر -ومن أعظمه قراءة كتاب الله جَلَّ وَعَلَا- فيه من الفوائد والمنافع الخاصة اللازمة والمتعدية، وله مساهمة كبيرة في دفع الشرور وتخفيف الأوزار ورفع الدرجات ما لا يوجد لغيره، فهذا القرآن إذا قرأه الإنسان كأنما يخاطب الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) ينظر: حلية الأولياء ٢/ ١٦٧.
(٢) المسند (٧٩٤٥).

هو الكتاب الذي من قام يقرؤه ** كأنما خاطب الرحمن بالكلم

جاء في الحديث الصحيح: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(١)]، ماذا يطلب الإنسان فوق هذا الخير في عمل لا يكلفه شيئًا؟ يجلس من صلاة الفجر إلى انتشار الشمس يقرأ نصيب اليوم كاملًا إذا أراد أن يقرأ القرآن في سبع، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**فاقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك**»[(٢)]، فإذا فعل ذلك ختم القرآن في كل أسبوع وحصل -مع الإخلاص- على ثلاثة ملايين حسنة، فلا يفرّط بمثل هذا إلا محروم، والحرمان ظاهر لدى كثير من الناس، تجد الإنسان يضرب موعدًا مع آخر، فإذا تأخر خمس دقائق ضاقت به الأرض بما رحبت؛ لأنه ما عوّد نفسه على الذكر، ولا تلذذ بمناجاة الله جَلَّوَعَلَا، ولا تلذذ بقراءة كلامه، وإلا لو تأخر صاحبه أمدًا طويلًا أشغل نفسه بقوله: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، ومن قالها مائة مرة حُطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر[(٣)]، وهذه بالإمكان أداؤها في دقيقة أو في دقيقة ونصف، وهاتان الكلمتان: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»[(٤)].

ولا توجد في مثل هذه الأعمال أدنى مشقة، لكن ينظر الإنسان ماذا قدم؟ فإن قدم في حال السعة مثل هذا وجدها في حال الضيق، وإن قدم القيل والقال

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، عن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٤) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والغيبة والنميمة والكذب والبهت والكلام فيما لا ينفع والكلام فيما لا يعني فلن يجد شيئًا.

فعلى الإنسان أن يحرص على ما يقدمه مما يكون له زادًا يوم القيامة، فالحرص الحرص على كلام الله جَلَّ وَعَلَا، وليجعل الإنسان له وردًا يوميًّا لا يفرط به سفرًا ولا حضرًا في صحته ولا في سقمه؛ لأن مثل هذا لا يكلف شيئًا.

وإذا كان الإنسان المريض لا يستطيع حمل المصحف، ويشق عليه قراءة القرآن، نقول له: استمع إلى القرآن المسجل، ويُكتب لك أجرك إن شاء الله؛ لأن المستمع مثل القارئ.

وقد يقول قائل: إنه لا يعرف أن يقرأ القرآن. وبعض العوامّ شُغلوا بأمور المعيشة في أول أعمارهم، وصعب عليهم تعلم القرآن في الآخر.

نقول له: عليك أن تحرص وتبذل الأسباب لحفظ ما يتيسر لك من القرآن والبيوت- ولله الحمد- مملوءة بمن يقرأ إلا القليل النادر، فهذا الشخص الذي لم يتعلم من القرآن شيئًا؛ بسبب انشغاله بالمعيشة، فبإمكانه أن يطلب من أولاده أو من بناته تعليمه سورة الفاتحة ثم قصار السور وهكذا. ومثل هذا إذا تعلم هذه القصار، وزاد عليها ما يستطيع حفظه هذا ينفعه في آخر عمره، ويتلذذ به، ويناجي به ربه جَلَّ وَعَلَا.

وأما إذا لم يستطع أن يتعلم مع طول الوقت فهذا يكفيه أن يموت وهو في صدد تعلم القرآن وهو يسلك الطريق إلى تعلم العلم، ومن أفضل العلوم تعلم القرآن وما يتعلق بكلام الله جَلَّ وَعَلَا: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له**

به طريقًا إلى الجنة»[١].

فالله الله؛ الحرصَ الحرصَ على كتاب الله جَلَّوَعَلَا، ليكن ديدنَ المسلم.

والمسلمون -ولله الحمد- يوجد فيهم أخيار، ويوجد فيهم عبَّاد، ويوجد زهّاد، لكن مع إطلالة الفتن ووجود المنكرات والجرائم بين المسلمين لا بد أن يحصِّن المسلم نفسه بالعبادة؛ لكي يقيَه الله جَلَّوَعَلَا شر هذه الفتن، وينجو بنفسه، ولا مخرج من الفتن إلا بالقرآن، فهو الذي يخرج الإنسان والأمة بكاملها من هذا المأزق الذي تعيشه، والله المستعان.

فلا يخفى ما ورد من النصوص في الكتاب والسنة من فضل القرآن الكريم، وأن فضله على سائر الكلام كفضل الله جَلَّوَعَلَا على خلقه، كما أنه لا يخفى ما ورد من الحث على تعلمه وتعليمه، ففي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر: ٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، فالذي في صدره القرآن من أهل العلم ولو لم يدرك من العلوم الأخرى إلا الشيء اليسير فهو من أهل العلم.

وقراءة القرآن على الوجه المأمور به بالتدبر والترتيل ومحاولة الفهم والاستنباط والعمل تجعل المتدبر والقارئ من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. والنساء مطالَبات بما يطالَب به الرجال من هذا، ولهن من الوعد ما وُعد به الرجال، فالنصوص للجميع، وخطاب الرجال يدخل فيه النساء،

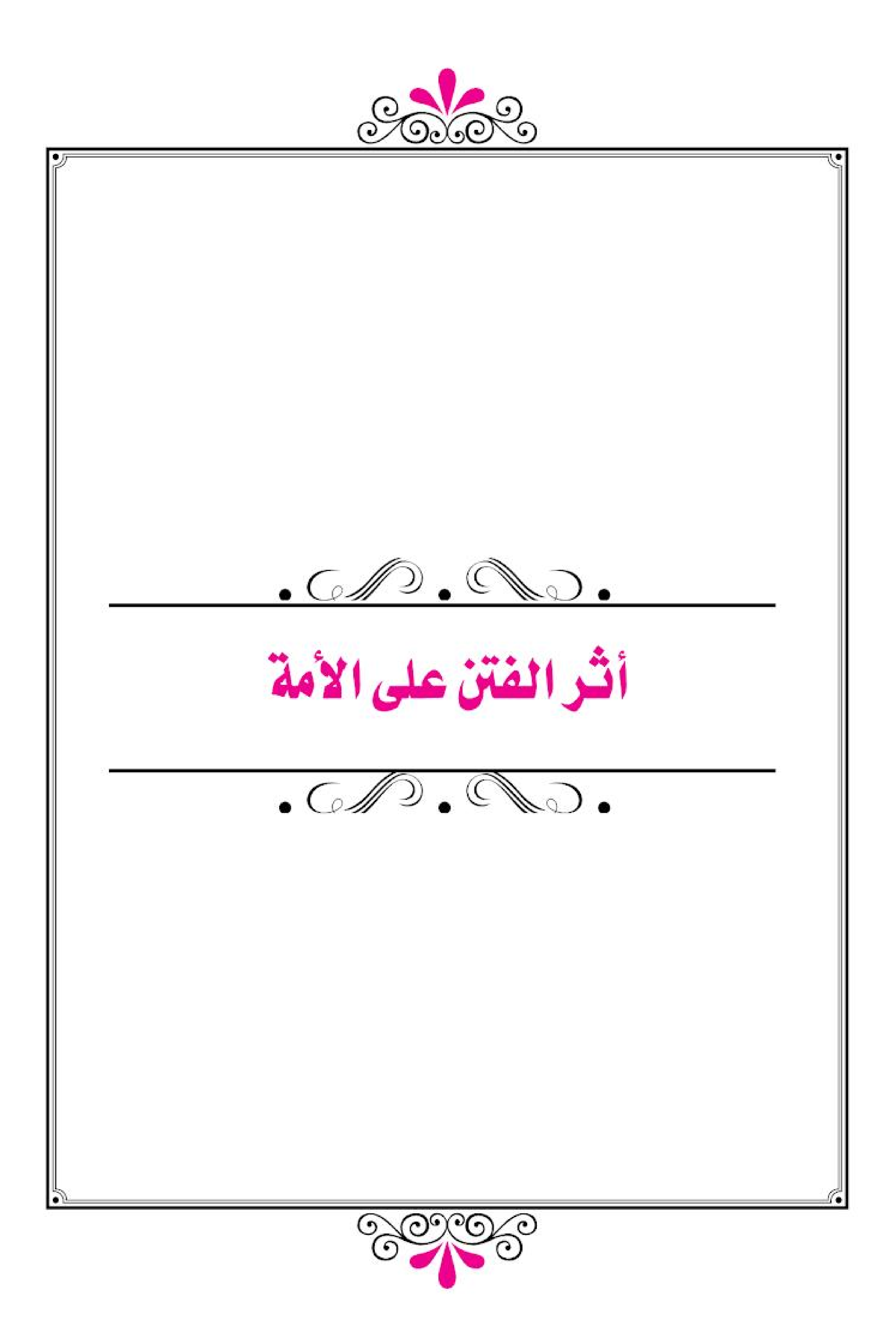
(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فيدخلن في عموم قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وفي قوله ﷺ: «من قرأ حرفًا من القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[(١)]، بل قد يكون للنساء ما فيه مزيد فضل على ما أُجر به الرجال؛ لأن النساء في الغالب معاناتهن لحفظ القرآن أصعب وأشق؛ لما وُكل إليهن من أعمال البيوت، والرجال بطبيعتهم اتصالهم بالقراء والمقرئين أيسر من اتصال النساء، لكن على النساء الجد والاجتهاد والبذل؛ ليكنَّ من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، فلا تحرم المرأة نفسها من هذا الفضل العظيم.

فعلينا جميعًا رجالًا ونساء أن نُعنى بهذا الأمر العظيم الذي وجد اليوم هجره من عموم الناس ومن بعض طلبة العلم -مع الأسف الشديد-، وهذه الدور المباركة لتحفيظ القرآن تؤتي ثمارًا، وتساهم في رفع ودفع هذا الهجر الذي تُوعِّد عليه وجاء ذمه في القرآن الكريم. والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال عقبه: «ويروى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود، رواه أبو الأحوص، عن ابن مسعود، رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم عن ابن مسعود. هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».



أثر الفتن على الأمة

أثر الفتن على الأمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فقد كنَّا نقرأ فيما كتبه المؤرخون في الفتن التي حدثت ووقعت في الأمَّةِ فتؤثر فينا ألمًا وحزنًا كما أثَّرت فيمن قبلنا، وإذ بنا نجد المسلمين يباشرون ما كنَّا نقرأه واقعًا عمليًّا في هذا العصر، نشاهده عبر القنوات الفضائية وقت المأكلِ والمشربِ، فهل أثَّر ذلك في قلوبنا ورجوعنا إلى الله جَلَّ وَعَلَا؟

كان الناس إذا سمعوا النصوص من الوحيين في شأن الفتنِ وإذا قرؤوا ما سطَّره أهل التاريخ عن الفتنِ وجلت قلوبهم ،وارتعدت فرائصهم، أما الآن فالناس يشاهدون ويباشرون هذه الفتن وهم في لهْوهم وغفلتهم وإعراضهم عن الله جَلَّ وَعَلَا، فما الذي دهى القلوب؟ وما الذي غطاها وغشَّى على العيون؟

يُطِلُّ الرجل المسلمُ في القبر الذي هو أول منازل الآخرة كأنها حفرةٌ أَلِفَ مرآها، فلا تتأثر القلوب ،ولا تَجِلُ ولا ترجعُ إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] ران على قلوبهم وغطَّاها وغشَّاها كسبُهُم، ولا يكاد يسلمُ من هذا إلا القليل، فمن يسلمُ من المعاملاتِ المحرمةِ والمظالم قد لا يسلمُ دخلُهُ ومعاشه من شائبةِ تقصيرٍ في تمام أدائه؟ لذا وجدنا المسلمين بجموعهم الغفيرة وعلمائهم وفقهائهم ودعاتهم وعُبَّادهم يرفعون أكفهم في أوقات الإجابة ويدعون فلا يستجاب لهم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ

﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يُطِيلُ السفر أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذِّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»[(١)].

النبيُّ ﷺ ذكر أنَّ هذا الرجل كان مسافرًا، والمسافر له دعوة مستجابة[(٢)]، كما أنه كان يمدُّ يديه، ورفْعُ اليدين حال الدعاء من أسباب الإجابة كذلك، ويدعو بقوله: يا رب! يا رب! وقد قرَّر أهل العلم أنَّ من كررها خمس مرات استجيب له؛ استدلالًا بما جاء في آخر سورة آل عمران[(٣)]، ومع دواعي الإجابة هذه لكن هناك مانعٌ، لذا قال ﷺ: «**أنّى يستجاب له**» فاستُبعدت إجابة هذا السائل؛ لأنَّ الحرام قد صار مطعمَه ومشربَه وملبسَه.

ما جعلنا لا نتَّعظُ ولا ندِّكرُ أننا نقرأ القرآن، وتمرُّ بنا آيات الوعد والوعيد وكأن شيئًا لم يكن، جاء في وصف المؤمنين المخلصين المخبتين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فعلى المسلم ألَّا يكتفي بإصلاح ظاهره دون باطنه، فإنَّ النبيِّ ﷺ يقول: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(٤)]، ولا يعني هذا أن يخالف المسلم

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، والترمذي (٢٩٨٩)، وأحمد (٨٣٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٠٥) وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٧٥١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/٣١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد (٧٨٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في ظاهره هَدْيَ النبيِّ ﷺ متحجِّجًا بأن «التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره»(١)، فهذا التصوُّر ليس بصحيح، والمظاهر لها دلائل على الباطن، والتقوى تتعلَّقُ بالظاهر والباطن، ومفادها فعلُ الأوامر واجتناب النواهي، فلا يستقيم ادِّعاؤها في القلب والظاهرُ يخالف هذا الادعاء، لذا عندما شربَ الخمرَ أحدُ الصحابةِ متأوِّلًا واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ [المائدة: ٩٣] قال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّك إذا اتَّقيت اجتنبت ما حرم الله عليك»(٢).

ويذكر أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ سُئِلَ كيف رأيت الدنيا؟ فقال: «كرجلٍ دخل بيتًا له بابان، فقام في وسط البيت هُنَيَّةً(٣) ثم خرج من الباب الآخر»(٤). هذه الدنيا ما هي إلا مزرعة للآخرة، من عَمَرَها بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا وحقَّق الهدف الذي من أجله خُلِقَ فليبشرْ بالسعادة الأبدية في الآخرة، وإلا فهي في حقيقتها لا تزنُ عند الله جناح بعوضة بمتعها كلِّها، ليكنْ لديك الأموال الطائلة والأثاث والمراكب الفارهة، ما الفائدة منها إذا لم تقربك من الله جَلَّ وَعَلَا؟ وما الفائدة منها إذا لم تستعملها في تحقيق الهدف الذي من أجله خُلِقْتَ؟ جاء عند الترمذي -وإن تكلَّم فيه من تكلَّم-: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو متعلمًا**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٢٤٠)، ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣١٥).

(٣) أي: قليلًا من الزمان، وهو تصغير هَنةٍ ويقال هُنَيْهةٌ أَيضًا. انظر لسان العرب (١٥/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (١/ ٣٦٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وابن ماجه (٤١١٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فاحرص يا عبدَ الله أن تكون ذاكرًا لله جَلَّ وَعَلَا أو عالمًا أو متعلمًا.

هذه مقدمةٌ بين يدي رسالتي أردت بها التذكير بمعانٍ جليلةٍ قد نغفل عنها، وننتقل الآن إلى موضوع الرسالة.

♦ أثر الفتن على الأمة

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي -وهو من أوائل من صنَّف في اللغة-: «الأثَرُ بقيّة ما تَرَى من كلِّ شيءٍ وما لا يُرى بعدما يبْقَى عُلْقَةً»(١)، وقال تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] أي: بقيَّةِ علم، يقالُ: أثارةُ لبنٍ أي: بقيَّةٌ ما في الإناءِ ولو كان يسيرًا، وما لا يُرَى بعدما تبقى عُلْقة تدل عليه، والأَثْرُ مصدر قولك: أَثَرْتُ الحديث آثُرُهُ إِذا ذكرتَهُ عن غيرك، وحديث مأْثور أَي: يُخْبِرُ الناسُ به بعضُهم بعضًا، وينقله خلفٌ عن سلفٍ(٢).

والأَثَرُ بالتحريك ما بقي من رسْمِ الشيء، وسننُ النبيِّ ﷺ آثارُهُ؛ لأنها بقيت بعده(٣) ويُنسَب من يعتني بها إليها، فيقال: أثري، إذا كان له عناية بالأثر، قال الحافظ العراقي:

يَقُــوْلُ رَاجِــي رَبِّــهِ المُقْتَــدِرِ ** عَبْدُ الرَّحيمِ بنُ الحُسيْنِ الأَثَـرِيْ(٤)

قال أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية): «الفرق بين الأثر والعلامة أنَّ أثر الشيء يكون بعده، وعلامته تكون قبله، تقول: الغيوم والرياح

---

(١) العين (٨/٢٣٦).
(٢) لسان العرب (٤/٥).
(٣) ينظر: تحقيق الرغبة في توضيح النخبة (ص: ١٨٢-١٨٣).
(٤) التبصرة والتذكرة في علوم الحديث (ص: ٩٣).

علامات المطر، ومواقع ومدافع السيول آثار المطر»[١].

وآثار أهل العلم ما يتركونه بعدهم من مصنفاتٍ وطلاب أخذوا عنهم، وهم في هذا الشأن متفاوتون: فمنهم المكثرُ من التصنيف، ومنهم المقلُّ، ومنهم من يحملُ عنه آلاف الطلاب، ومنهم من لا يحمل عنه إلا المئات والعشرات.

وهذه المصنفاتُ التي كتبها أئمة السنة والأثر لهم أجرها وأجرُ من أخذ بها إلى يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[٢] وقوله ﷺ: «**من دلَّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله**»[٣].

وأما آثار أهل البدع من المصنفات التي قرَّروا فيها البدعة والضلال فعليهم وزرها ووزر من أخذ بها؛ لقوله ﷺ: «**ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[٤].

وأما الفتنة عند أهل اللغة فكما قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفاء والتاء والنون أصلٌ صحيح يدلُّ على ابتلاء واختبار من ذلك الفِتْنة، يقال: فَتَنْتُ أفتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذّهبَ بالنّار، إذا امتحنتَه وهو مفتونٌ وفَتِين»[٥]. وقال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) الفروق (١/ ١٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧)، والنسائي (٢٥٥٤)، وابن ماجه (٢٠٣)، وأحمد (١٩١٥٦)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، وأبو داود (٥١٢٩)، والترمذي (٢٦٧١)، وأحمد (١٧٠٨٤)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) سبق تخريجه من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٥) مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٢).

«جِمَاعُ مَعْنى الفِتْنَةِ في كلام العرب الابْتِلاءُ والامْتِحَانُ وأصلها مأخوذٌ من قولك: فَتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ إذا أذبتهما بالنار؛ ليتميَّز الرديء من الجَيِّد»[(١)] زاد الراغب الأصفهاني: «واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي: عذابكم، وذلك نحو قوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾، وقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ الآية، وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه نحو قوله: ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾، وتارة في الاختبار نحو: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾»[(٢)].

وحديث الفتونِ الطويل مشهورٌ، لكنَّه ضعيف عند أهل العلم[(٣)]، ذكره الحافظ ابن كثير وغيره في تفسير سورة طه[(٤)].

وقد ذكر الله في سورة البروجِ حادثة أصحاب الأخدود في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ أي: ابتلوهم وامتحنوهم واختبروهم في

---

(١) تهذيب اللغة (١٤/ ٢١١).

(٢) مفردات غريب القرآن (١/ ٣٧١).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٣٩٦)، وأبو يعلى في المسند (٥/ ١٠)، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٨٥) بعد أن ساق حديث الفتون بطوله: «وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضًا»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٥٢): «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان»، وأورد ابن عدي حديث الفتون في الكامل في منكرات أصبغ بن زيد الجهني، وأشار أيضًا الذهبي إلى انفراد أصبغ عن القاسم بالحديث. ينظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٢/ ١٠٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ٢٩).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٥).

دينهم، ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج:١٠]، والقصة جاءت في الصحيح(١)، وهي في قومٍ كفارٍ خدّوا الأخاديد، وجمعوا الحطب الكثير، وأوقدوا النيران العظيمة، وفتنوا الناس في إيمانهم، فمن رجع عن دينه تركوه، ومن أصرَّ على ذلك ألقوه في النار، وهذه أعظم فتنة؛ لأنها فتنة في الدين، وتأمل قوله ﷺ في حديث أصحاب الأخدود: «**حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري فإنك على الحق**»(٢)، وهذا الصبي أحد الذين تكلَّموا في المهد، وهو مما جاءت النصوص زيادة(٣) على ما في قوله ﷺ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ**»(٤)، فهذه المرأة المؤمنة إن خسرت الدنيا فقد فازت؛ لأنها زُحْزِحَتْ عن نار الآخرة، وإن اقتحمت نار الدنيا، فإنَّ المرء لو عُمِّرَ ما عُمِّرَ فمآله إلى الموت، ثم بعد ذلك يجازى بعمله: إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

هذه المؤمنة إلقاؤها في نار الدنيا فتنة، ولكن فتنتها في دينها وصرفُها عنه أعظم من قتلها، ولذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] الفتنة هنا: هي الشرك في قول أكابر المفسرين(٥).

ومن أعظم الفتن التي مرَّت بالأمَّة فتنة البدع المغلَّظة التي أدَّتْ إلى ذهاب العقائد الصحيحة من واقع بعض المسلمين حتى وقع التفرُّق إلى جماعات

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥)، والترمذي (٣٣٤٠)، وأحمد (٢٣٩٣١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٠)، وإرشاد الساري للقسطلاني (٥/ ٤١١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣/ ٥٦٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٢٥).

وأحزاب وأفراد، وتعامى بعض الناس عن رؤية الحق وعلاماته؛ لأنهم إذا تفرَّقوا لا يصير لهم قدوة يقتدون به وإمام يأتمون به: ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢] يظنون أنهم على الحق دون من سواهم، وعامة الناس تبع لرؤسائهم.

وقد كان الناس على قلب رجل واحد، وإذا رأى المسلم أخاه بشَّ في وجهه، وتمنى له الخير، ثم تفرقت القلوب فصار كلُّ واحد لا يثقُ بالآخر، وإن كانت المظاهر متحدة والعقائد واحدة، هناك اختلاف في بعض وجهات النظر أدّى إلى تفرق في القلوب وتراشق بالألسنة، فحصلت الفرقة، قال الله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، ومن طاعة الله وطاعة رسوله الاجتماع على ولي الأمر وعدم عصيانه وشقِّ عصا الطاعة ما أمر بالمعروف، أما إذا أمر بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ويعقُبُ تفرُّقَ الناس أحزابًا ضعفٌ في الإيمان والتدُّين والعلم والعبادة، ويقلُّ الخير فيهم، فكلُّ حزبٍ يرى أنه على الحقِّ، وينفِّر وَيُحَذِّرُ من غيره، وهذا سبيل إلى ضعفِ التديُّن في النفوس وضعف الأمَّة بعامتها حتى يكون الناس في أمرٍ مريجٍ مختلطٍ لا يتمكنُّ فيه العبد من التعبُّد وإقامة شعائر الإسلام من كثرة هذه الفتن وآثارها؛ لأنهم ينشغلون بأسبابها ومسبباتها عمَّا خُلِقوا من أجله، وإذا ضعفَ الإيمان واندرسَ من قلوب المؤمنين حلَّ مكانه الجهل والهوى.

ومن آثار الفتن أيضًا تباعد الأخيار وعلماء الناس، قال ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من**

الفتن»(١) فإذا وُجِدتْ هذه الفتنُ وخشي العالم والعابد على دينه فإنه يعتزل امتثالًا لهذا الحديث، وإذا اعتزل الأخيارُ من الأقطار والبلدان والأقاليم بقي الأشرار، وإذا خلا المجتمع من العلماء والعبّاد والأخيار حلَّ بهم الدمارُ والهلاكُ؛ لأنهم تَعْرِضُ لهم النوازلُ فلا يجدون من يَحُلُّها لهم ويجيب عنها، والعزلة مطلوبةٌ إذا خشي المسلمُ على نفسه أن يتأثر بما عند الناس من منكراتٍ ولا يستطيع أن يؤثر فيهم، فهذا يتَّجه في حقه العزلة، أمَّا من استطاع أن يؤثِّر في الناس ويردُّهم إلى جادَّة الصواب، ويكفَّ عنهم الشرور الدينية فإنَّ هذا يتعيَّنُ في حقه مخالطة الناس ونفعهم والصبر على أذاهم، علمًا أن الخير مازال موجودًا -بحمد الله تعالى-، والوسائل التي يدفع بها الشرُّ ويجلبُ بها النفعُ والانتفاعُ متوفرة.

قد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّه ستقع في هذه الأمَّة الفتنة التي تموج كما يموج البحر، وأن دونها بابًا يُكسَر(٢)، وهو مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قُتِلَ رضي الله عنه فتتابعت الفتن بعده، ثم جاءت فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وإذا أراد المسلم أن يعلم الخطورة البالغة للفتن فليقرأ عن يوم الدار، فقد قُتِلَ رضي الله عنه وقد مضى على وفاة النبيِّ ﷺ قُرابة ربع قرنٍ، فقُتِل رضي الله عنه وهو صائم يتلو القرآن في بيته، وهو خيرُ الصحابة بعد أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، ذو النورين أحد المبشرين بالجنة، يقتل بين ظهراني الصحابة؛ ليقضي الله أمرًا كان

(١) أخرجه البخاري (١٩)، وأبو داود (٤٢٦٧)، وأحمد (١١٢٥٤)، ومالك (٧٨٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

مفعولًا[(١)]! من يتصور هذا الأمر المهول؟! لكنها الفتن!

وقد آثر بعض الصحابة العزلة لما قُتِلَ عثمانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فعن عامر بن سعد قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله، فجاءه ابنه عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره، فقال: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحبُّ العبدَ التقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ**»[(٢)]، وقد تعرَّب- أي: لحق بالبادية- سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كذلك، فعن يزيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع: أنه دخل على الحجاج فقال: «يا ابن الأكوع، ارتددت على عقبيك، تعربت؟»، قال: «لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو». وعن يزيد بن أبي عبيد، قال: «لما قتل عثمان بن عفان، خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة، وتزوج هناك امرأة، وولدت له أولادًا، فلم يزل بها، حتى قبل أن يموت بليالٍ، فنزل المدينة»[(٣)].

وفي وقعة الجمل لم تخرج عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا لتقاتل عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وإنما خرجت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا تنظر ماذا يصنع علي في قضية مقتل عثمان لا غير؛ لأنها قد استشيرت قبيل مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيمن يولَّى الأمر فقالت: علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٤)]، ولما أقبلت على جملها، قال عمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله

---

(١) ينظر: تاريخ الأمم والرسل والملوك للطبري (٢/ ٦٤٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٥)، وأحمد (١٤٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٨٧)، ومسلم (١٨٦٢).

(٤) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠).

-تبارك وتعالى- ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي؟»[١]، لكنها الفتن إذا بدأت كان العلماء والحكماء عاجزين عن وقفها، فكيف بغيرهم؟!

ومن آثار الفتن تسلُّط الأعداء وتداعي الشانئين على بيضة الإسلام، وها نحن نرى ما يدور حولنا في الأقطار الإسلامية من قتلٍ وانتهاكٍ للأعراض ونهبٍ للأموال وإخافةٍ للسُّبل، كما في حديث: «**يوشِكُ الأُمَمُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها**» فقال قائل: ومن قلَّة نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيلِ، ولَينزِعَنَّ الله مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبِكم الوَهْنَ**». فقال قائلٌ: يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟ قال: «**حبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ**»[٢].

بعض الإحصاءات تشير إلى أنَّ عدد المسلمين في العالم يبلغ المليار مسلم، ومع هذا العدد الضخم تَسَلَّطَ علينا من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وهم اليهود الذين حبلهم من الله منقطع وما بقي لهم إلا حبل قوى الغرب كأمريكا ونحوها، وقع تسليط أحفاد القردة والخنازير؛ لأنَّ الأمَّة ابتعدت عن دينها، ففي الحديث: «**إذا تبايعتُم بالعِينَةِ، وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرْعِ، وتركتُم الجهادَ، سَلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه حتى تَرجِعُوا إلى دينكم**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد في المسند (٢٢٣٩٧)، من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وأحمد -بنحوه- (٤٨٢٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الحافظ في البلوغ (١/٢٤٧): «رواه أبو داود من رواية نافع عنه، وفي إسناده مقال، ولأحمد نحوه من رواية عطاء ورجاله ثقات، وصححه ابن القطان».

فعلى العقلاء والعلماء والولاة أن يسعوا في دفع الأسباب التي تنشأ عنها هذه الفتن قبل وقوعها، من أراد أن ينظر في مقدار الأهوال التي تنشأ عن هذه الفتن فليقرأ ما كتبه المؤرخون كابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حادثة سقوط بغداد على أيدي التتار سنة ست وخمسين وستمائة، فقد ظلَّ سيفهم يَقْتُلُ أهلَ بغداد أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأقوال الواردة في تَعْداد القتلى أنهم أَلْفُ أَلْفٍ وثمانُمائةِ ألفٍ، أي: مليونًا وثمانمائة ألف شخص، وقد اختفى الناس في الْآبار وأماكنِ الحشوشِ، والقبور، والسبب في ذلك الغفلة والإعراض عن دين الله جَلَّ وَعَلَا[١].
ومثل ما حصل في بغداد حصل في فتنة تيمور[٢] لما قدم إلى دمشق سنة ثلاث وثمانمائة من الهجرة، على ما ذكره صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)[٣]، حيث أقام تيمور خارج دمشق وحاصرها ثم أرسل إلى أهلها أن ابعثوا رجلًا عاقلًا حتى نحدِّثه، فبعثوا أحد كبار أهل العلمِ، فتوجَّه إلى تيمور واجتمع به وعاد إلى دمشق وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطَّف معه في القول، وأنه ما جاء إلا لأمر وقد قضاه، فلما صار هذا العالم بدمشق شرع يخذِّل الناس عن القتال، ويثني على تيمور حتى استقرَّ رأي الدمشقيين على الصلح، وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب المال الذي فُرض عليهم، وهو ألف ألف دينار -أي: مليون دينار- فجمعه ذلك العالمُ، وحمله إلى تيمور، ووضعه بين يديه، فلما عاينه غضب غضبًا شديدًا ولم يرضَ به، وأمر تيمور بإخراجِ من جاء بالمال عن وجهه، فأُخْرِجوا ووكَّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١٧/٣٥٦- ٣٦٨).
(٢) ينظر ترجمته: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١٢/٢٥٤).
(٣) النجوم (١٢/٢٤٠).

عشرة آلاف ألف دينار -عشرة ملايين دينار-فالتزموا بها وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانيًا على الناس فأصاب الناس مشقةٌ عظيمةٌ.

ولما تكامل حصول المال أخذه ذلك العالم وجماعة معه، وحملوه إلى تيمور فقال: هذا المال بحسابنا إنما هو يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم، ثم إنه ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح، فلما فرغ ذلك كله قبض على ذلك العالم ورفقته، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرَّقها على أمرائه، وقسَّم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم، ونزل كلُّ أمير في قسمه، فحينئذ حلَّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف، وفعلوا الأفاعيل في أهلها، شيء لا يطاقُ ذكره ولا سماعه، ومن أراد التفصيل فليرجعْ إلى (النجوم الزاهرة).

والآن ها هو التاريخ يعيد نفسه، ماذا يصنع في بلاد الشام؟ وماذا صُنع في بلاد الرافدين وغيرها من البلدان قبلها، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يدفع عنا الفتن والمحن الظاهرة والباطنة، وأن يقِيَنا شرَّ الأسباب التي يباشرها بعض من ينتسب إلى الإسلام التي يُخشى من عواقبها.

ومن آثار الفتن أن تتعطَّل الجمع والجماعات والأحكام والحدود، وتضيع الحقوق، وتتقطع السبل، ويحلَّ الخوف محل الأمن والفقر، وتنتهك الأعراض، وتُنهَبَ الأموال، وتزهق النفوس.

ومن آثارها على الأمَّة أن يدخل في صفوفها ويتغلغل من لا يَرْقُبُ فيهم إلَّا ولا ذمة، يدَّعي الإسلامَ وهو في الحقيقة يكيد للإسلام وأهله، ولذا إذا قرأنا في التاريخ نعلم أن المنافقين يتربصون بالأمَّة السوء في مثل هذه الأحداث، ويكونون بمنزلة العيون للأعداء.

ومن آثارها أن يروج سوق الناعقين بالباطل وعلماء السوء، وانظر إلى وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة تجد أن هذا الكلام واقع، هؤلاء الذين حذرنا الله منهم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»(١).

بعضُ الكتَّابِ يستدلون بأشياء متشابهة، ولا يجمعون أطراف الأدلة في المسألة الواحدة، كما كان يفعل أهل البدع كالمرجئة، حيث اعتمدوا على نصوص الوعد وأهملوا نصوص الوعيد، وكالخوارج حيث عملوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد، ووفَّق الله أهل السنة أن جمعوا بين نصوص الوعد والوعيد وتوسطوا وهذه سِمَتُهُم، فهؤلاء الكتَّاب تجدهم يتشبثون ببعض المتشابه من النصوص، ويتركون المحْكَم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم -واللفظ له- (٢٦٦٥)، وأبو داود (٤٥٩٨)، والترمذي (٢٩٩٤)، وابن ماجه (٤٧)، وأحمد (٢٤٢١٠).

ومن ذلك ما قيل حول قصة تولية الفرس ابنة كسرى أمرهم، فعندما هلك كسرى ملَّك الفرسُ ابنته من بعده، فقال ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[(١)]، فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى زال ملكهم، ويأتي بعض من ينتسبُ إلى العلم والدعوة ويزعم ضعف هذا الحديث؛ لكون واقع بعض النساء اللاتي استلمن مناصب قيادية في هذا العصر قُدْنَ أقوامهنَّ إلى التقدم -بزعمهم- مثل (أنديرا غاندي) التي شغلت منصب رئيس وزراء الهند لسنوات، و(مارجريت تاتشر) التي تولت رئاسة وزراء بريطانيا، و(جولدا مائير) التي هزمت العرب في حرب مضت قبل سنين، أتُرَدُّ سنةُ رسول الله ﷺ بهذا الكلام؟ ومن قال: إن أولئك الأقوام قد أفلحوا؟! وما تحرير معنى الفلاح؟! القائل بمثل هذا التأويل مفتون لا ريب.

من آثارها وعواقبها على الأمَّة أنها إذا نزلت لا تخصُّ الظلمة والمتسببين فيها فحسب، بل تعمُّ الجميع الصالح والطالح: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[(٢)].

وهذا ما نخشاه على مجتمعنا، العلماء والصالحون والدعاة والعباد والزهاد موجودون حاضرون متوافرون، لكن ما نخشاه كثرة الخبث الذي يسعى إليه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠)، والترمذي (٢١٨٧)، والنسائي في الكبرى (١١٢٤٩)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

بعض الكُتاب ومن يفتي بغير علم، وبعض من يتسبَّبُ في إضلال الناس وحرفهم وصرفهم عن الصراط المستقيم، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رَسُولُ الله ﷺ: **«يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم» قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم»**[(١)].

فالخسف في هذا الحديث حلَّ بمن رافق هذا الجيش لمآرب لا علاقة لها بالغزو، ومع هذا شملهم الخسف، وهذا من شؤم المعصية.

ومن آثارها أن يقع القتل بين الناس، فلا يدري القاتلُ لِمَ قَتَل، ولا المقتولُ لِمَ قُتِل، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، ليأتينَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِلَ»**[(٢)]، وقال ﷺ: **«إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قَالَ: **«إِنَّهُ كَن حريصًا على قتل صاحبه»**[(٣)]. فإذا وجدت هذه الفتن -والعياذ بالله- لعل الشخص لا نية له أن يقتلَ، لكن إذا قابله شخص معه سلاحٌ بادره بالقتل؛ لئلا يقتله فينجو من قتله، فيشيع القتل ظنًّا ووهمًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠٨).

(٣) أخرجه البخاري -واللفظ له- (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، أبو داود (٤٢٦٨)، والنسائي (٤١١٨)، وابن ماجه (٣٩٦٤)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليعلمْ أنَّه لا يجوز للمسلم ولو أُكْرِه على القتل أن يقتل مسلمًا، لا يجوز له أن يمتثل هذا الإكراه ليفتدي نفسه بقتل مسلم؛ لأنَّ حياتك ليست بأولى من حياة أخيك، فيجب عليك أن تمتنع عن قتل المسلم ولو قُتِلتَ، قال ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا**»(١).

وأخيرًا نشيرُ إلى أسبابِ الثباتِ في زمن الفتن، ومنها:

أولًا: سؤال المسلم ربَّه أن يقيه الفتن ما ظهر منها وما بطن، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شرِّ فتنة المسيح الدجال**»(٢).

ثانيًا: على المسلم عمومًا وطالب العلم خصوصًا في مثل هذه الظروف أن يعتصم بالكتاب والسنة تعلمًا وتدبُّرًا وعملًا بما فيهما، وأن يديم النظر في نصوص الوحيين الواردة في هذا الباب كغيره من أبواب الدين، وإذا أشكل عليه شيء سأل الثقات من أهل العلم، وليحذر كلَّ الحذر ممن عمدته وسائل الإعلام، حيث إن بعض الناس في مثل هذه الظروف قد جعل شغله تلك القنوات وما يُذاع فيها من أخبار، ففي ديننا -ولله الحمد- ما يكفل لنا الخلاص والنجاة والفكاك من الفتن والمحن.

---

(١) أخرجه البخاري -واللفظ له- (٦٨٦٢)، وأبو داود (٤٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم -واللفظ له- (٥٨٨)، وأبو داود (٩٨٣)، والترمذي (٣٦٠٤)، والنسائي (٢٠٦٠)، وابن ماجه (٩٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: على المسلم أن يُعْنَى بالعبادات الخاصة، من الإكثار من نوافل الطاعات من صلاة وصدقة وصيام وذكر وتلاوة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغيرها من أنواع العبادات، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: «**العبادة في الهرج كهجرة إلي**»[(١)] المراد بالهرج هنا الفتنة، واختلاط أمور الناس.

وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها، ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا الأفراد»[(٢)]. وكم من شخص منتسبٍ إلى طلب العلم عنده من الغفلة عن هذه الأمور، تجده منشغلًا بطلب العلم، لكن ليس له نصيب في النوافل مما هو زائدٌ على ما افترض الله عليه: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته**»[(٣)].

وصلى الله وبارك وسلم على نبينا محمد،
وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد الله رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).
(٢) شرح صحيح مسلم (٢٢٦٨/٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).



منهج السلف في الإفتاء

منهج السلف في الإفتاء

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهدي السلف في الفتوى موضوع عظيم، وفي الوقت نفسه خطير؛ لأن الإنسان يخشى وهو يذكر شيئًا مما كان عليه سلف هذه الأمة وأئمتها تجاه الفتوى. والسلف المراد بهم: من تقدم في صدر هذه الأمة من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان من غير تغيير ولا تبديل.

نعرض لأقوال سلف الأمة ولطريقتهم في الفتوى، وتهيبهم منها، وتدافعهم إياها، حتى لقد كانت الفتوى تمر على العدد الكبير من سلف هذه الأمة، فلا يزال عالم يدفعها لآخر حتى تعود إلى الأول[1].

فيخشى من يتكلم عن هديهم في التحرز في الفتوى وهو لا يسلك مسلكهم، أن يكون العمل مكذبًا للقول.

ولا شك أن مقام الفتوى مزلق خطير، والمسألة عن الفتوى فيها النصوص الكثيرة، منها ما يدعو إلى الإقدام ويشدد فيه، ويجعل المُحْجِم كاتمًا للعلم، ومتوعَّدًا بالوعيد الشديد، ومنها ما يُحذِّر من تقحُّم أسوارها، ويذم من يتساهل فيها.

(١) ينظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣١٥)، مختصر المؤمل (ص: ٣٦).

فمَنِ المأمور بالفتوى، ومَنِ المنهي عنها؟

هذا ما سنجيب عنه في هذا الموضوع، لا سيما ونحن في هذا الوقت، وهذا الظرف الذي تصدى فيه للفتوى كثير ممن لم يُعْرَفوا بعلم ولا عمل أصلًا، فضلًا عن كونهم تأهَّلوا الأهلية التامة لهذا المقام.

والسلف حيال الفتوى لم يكونوا على درجة واحدة، مع وفور علمهم وتقواهم، ففي الصحابة تصدى للفتوى ما يزيد على المائة، وكان منهم المكثر الذي جُمعت فتاواه في مجلدات[(١)]، ومنهم المتوسط[(٢)]، ومنهم المقل الذي لا تجد له إلا النزر اليسير من الفتاوى[(٣)]، والمكثر والمقل مطَبِّق لنصوص في هذا الباب، معتصم بها، ومن أحجم منهم رأى أن التبعة عظيمة، والموقف خطير، ومزلة قدم؛ لأن الشخص نفسه قد يشتبه عليه فلا يستطيع تحرير واقعه: هل هو ممن أُمِر بالفتوى أو ممن حُذِّر منها؟

---

(١) قال ابن حزم في الإحكام (٥/٨٧): «المكثرون من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما روي عنهم من الفتيا عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، ابنه عبد الله، علي بن أبي طالب، عبد الله بن العباس، عبد الله بن مسعود، زيد بن ثابت، فهم سبعة يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخم».

(٢) منهم: أم سلمة أم المؤمنين وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعثمان بن عفان وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وأبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله ومعاذ بن جبل وأبو بكر الصديق، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعمران بن الحصين وأبو بكرة وعبادة بن الصامت ومعاوية بن أبي سفيان، يمكن أن يجمع من فتيا كل امرىء منهم جزء صغير جدًّا. ينظر: الإحكام (٥/٨٨) لابن حزم.

(٣) منهم: أبو الدرداء أبو اليسر أبو سلمة المخزومي أبو عبيدة بن الجراح سعيد بن زيد الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب. ينظر: السابق.

والمستفتي العامي الذي فرضه سؤال أهل العلم، كما قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، قد لا يستطيع التحرير في تحقق الوصف في المُستفتَى هل بلغ مقام من يصلح للفتوى أو لا؟ قد لا يستطيع أن يميز بين من يُستفتى ومن لا يستفتى، فالمسألة تحتاج إلى مزيد عناية وتحرير دقيق، لا سيما والفضاء اليوم مفتوح لكل أحد، حتى سمعنا من يستفتي رعاع الناس عن مسائل علمية فيها نصوص شرعية، ويجعل الراجح من تدعمه كثرة الأصوات، في مجتمع لا يمت إلى الالتزام فضلًا عن التدين، فضلًا عن العلم بأدنى صلة.

فهذه مسائل خطيرة، وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا بقوله: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فأفتَوْا بغير علم فَضَلُّوا وأضلوا**»(١)، وبعض من يتصدى للفتوى قد يكون أعطي بيانًا، يمرر به كلامه على السُّذَّج، بحيث يتناقلونه ويتداولونه، والبيان من هذا النوع جاء فيه قول النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»(٢)، وهذا على سبيل الذم على الصحيح، وإن كان بعض أهل العلم يقول: إنه على سبيل المدح، ولكن السحر مذموم حيثما توجه(٣).

فمثل هؤلاء الذين يمررون هذه الأقوال، ويتدخلون في أمور الدين، وفي قضايا الأمة العامة من غير اعتماد على نص من كتاب ولا سنة، هؤلاء يجرون على

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (١٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) وذلك لما في البيان والبلاغة من تصوير الباطل في صورة الحق والتفيهق والتشدق، وعزي القول بأن المراد بالحديث الذم إلى الإمام مالك، حيث أدخل الحديث في موطئه في باب ما يكره من الكلام. ينظر: الموطأ (١٧٨٣)، التمهيد (٥/ ١٧١).

أنفسهم وأمتهم ضلالًا مبينًا، وإذا كان غير المختصين في العلم الشرعي من الأدباء والمؤرخين، تجد لبعضهم عناية فائقة بنصوص الوحيين، فإذا كان هذا في مؤرخ أو أديب، يرى أن معرفة النصوص حتم لازم لإتقان الفن الذي يريده، فكيف بمن يزعم التصدي للكلام في الشرع؟!

فهذا ابن الأثير مثلًا صاحب المثل السائر، يقول: إنه استعان على تحقيق ما يطمح إليه من الأدب الرفيع الذي يستحق أن يسمى أدبًا، بعد حفظه للقرآن، وجمعه لثلاثة آلاف حديث في كتاب، وصار يردده على مدى عشر سنوات، يختمها في كل أسبوع حتى حفظها[(١)].

فالأديب يحتاج إلى النصوص الشرعية حاجة ماسة، والمؤرخ كذلك، وإلا فسوف يقع الخلط في كلامه، وأنت تجد فرقًا بين أن تقرأ في تاريخ عالم مفسر محدث كابن كثير، وبين أن تقرأ لمحلل لا يعتمد على النصوص كثيرًا، فإذا كان هذا في جانبي التاريخ والأدب، فكيف بمن يتصدى لإقراء الناس، وتعليمهم، وإفتائهم؟!

ونرجو ألا يكون مثل هذا الكلام حجة علينا.

إذا عرفنا هذا فقد جاء الوعيد الشديد في حق من كتم علمًا، وفي حق من تجرأ على الفتيا، وقال فيها بغير مستند ولا دليل، ولا برهان من الكتاب والسنة.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

---

(١) ينظر: المثل السائر (١/١٣٨).

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه»[(١)].

وطالب العلم إذا سمع مثل هذا الكلام المفترض أنه يتأثر به وإذا سئل عن مسألة يحسب لها وللخلاص منها بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا ألف حساب. وما يضيره أن يقول: لا أدري، إذا كان الأئمة -على ما سيأتي- كثر في أجوبتهم قول: لا أدري، وإذا كان النبي ﷺ المؤيد بالوحي يُسأل فيسكت[(٢)]، ينتظر الوحي؟ ومن أهل العلم من يقول: إنه يسكت ليربي المفتين؛ لئلا يتسرعوا في الجواب؛ حيث إن بعض الناس إذا سئل لا يترك السائل يكمل السؤال، بل يبادر بالجواب قبل إكمال السؤال.

وما الذي ترتب على ذلك؟ ترتب عليه مضحكات مبكيات، فمن الأسئلة ما يحتاج إلى تأنٍ وشيء من الاستفصال من السائل؛ لأن السؤال يحتمل وجوهًا، وحينئذ على المفتي أن يستفصل من هذه الوجوه.

---

(١) إعلام الموقعين (١/٣٨).

(٢) وقد ورد في هذا عدة أحاديث، منها: حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حيث قال: مرضت فعادني رسول الله ﷺ وأبو بكر، وهما ماشيان، فأتاني وقد أغمي علي، فتوضأ رسول الله ﷺ فصب علي وضوءه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية المواريث. أخرجه البخاري (٦٧٢٣)، ومسلم (١٦١٦).

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:١١٦ - ١١٧].

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ فالدنيا وإن طالت وإن كثرت متعها فإنها قليلة، فإذا تصورنا أن ركعتي الصبح خير من الدنيا وما فيها، فالعجب كل العجب ممن يبيع دينه بعرض من الدنيا، تجده يسابق ويسارع في القرابين(١) يتنازل بها عن دينه، لأجل أن يكسب شيئًا من عرض الدنيا الزائل.

يصل ابن القيم كلامه فيقول: «فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام، ولما لم يحله هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه»(٢).

فإذا عرفنا أن القول على الله بلا علم كذب: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾، فما معنى كذب؟ الكذب هنا ما يكون غير مطابق لما عند الله جَلَّ وَعَلَا من حكم، وغير مبني على وسائل شرعية يستنتج منها الحكم، وهذا حال الجاهل الذي يفتي بغير علم، فيَضل ويُضل.

فإذا قرنَّا هذه الآية بقوله جَلَّ وَعَلَا في سورة الزمر: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر:٦٠]، فمثل هذه الآيات ترتعد منها الفرائص،

---

(١) القرابين جمع قُرْبانٌ وهم جُلَساءُ المَلِك وخاصَّته. ينظر: المخصص (٣٢٥/١)، تهذيب اللغة (١١٠/٩).

(٢) إعلام الموقعين (٣٨/١).

فإذا كانت الفتوى بلا علم هي القول على الله بلا علم، والقول على الله بلا علم كذب على الله وافتراء، والذي يكذب على الله يأتي يوم القيامة مسود الوجه -نسأل الله السلامة والعافية- كانت النتيجة: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

فما يمنع هذا الجاهل الذي يسأل عن حكم فافترى على الله الكذب بقوله: حلال أو حرام، مع مخالفته الحكم الصحيح، ما الذي يمنعه من قول: لا أدري؟ لا شك أنه الكبر، نسأل الله العافية.

وقد جاء من حديث مسلم بن يسار قال: سمعت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قال علي ما لم أقل، فليتبوأ بيتًا في جهنم، ومن أُفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم الرشد في غيره فقد خانه»[(١)].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل خطر على المفتي فهو على القاضي، وعليه من زيادة الخطر ما يختص به، ولكن خطره أعظم من جهة أخرى»[(٢)].

فخطر القاضي أعظم من خطر المفتي؛ لأن القضاء بيان الحكم مع الإلزام، فيلزم الخصمين، والمفتي لا يلزم، لكن القاضي يقضي في مسألة واحدة معينة، والمفتي إذا أفتى بحكم شرعيٍّ اطَّرد، فلو قال شخص للذي يفتي: ما حكم كذا؟ فقال: الجواز، أو التحريم، ثم وقعت لهذا الشخص نظائر لهذه المسألة سيقول: إن الشيخ فلانًا أفتى بكذا، فلا حاجة في أن يسأل عنها مرة ثانية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١، ٣٦٥)، وأبو داود (٣٦٥٧).

(٢) السابق.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن فتواه شريعة عامة تتعلق بالمستفتي وغيره، وأما الحاكم فحكمه جزئي خاص لا يتعدى إلى غير المحكوم عليه، فالمفتي يفتي حكمًا عامًّا كليًّا: أن من فعل كذا ترتب عليه كذا، ومن قال كذا لزمه كذا، والقاضي يقضي قضاءً معينًا على شخص معين، فقضاؤه خاص ملزم، وفتوى العالم عامة غير ملزمة، فكلاهما أجره عظيم، وخطره كبير»[(١)].

وفي الحديث -وفيه كلام لأهل العلم ورجّحوا إرساله-: «**أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار**»[(٢)]، وإن كان بعضهم يحسِّنه[(٣)]، لكنه لا يصل إلى درجة التحسين.

يقول المناوي في شرح الجامع الصغير في شرح هذا الحديث: «(**أجرؤكم على الفتيا**) بضم الفاء، أي: أقدمكم -من الإقدام- على إجابة السائل عن حكم شرعي من غير تثبّت وتدبّر، والإفتاء بيان حكم المسألة ... «**أجرؤكم على النار**» أقدمكم على دخولها؛ لأن المفتي مبيّن على الله حكمه، فإذا أفتى على جهل أو بغير ما علمه أو تهاون في تحريره، أو استنباطه فقد تسبب في إدخال نفسه النار؛ لجرأته على المجازفة في أحكام الجبار، ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، قال الزمخشري: كفى بهذه الآية زاجرة زجرًا بليغًا عن التجوز فيما يُسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيها، وأن لا يقول أحد في شيء جائز إلا

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه الدارمي (١٥٩).

(٣) ينظر: فيض القدير (١/ ١٥٨)، الحلل الإبريزية من التعليقات البازية على صحيح البخاري (٤/ ١١٩).

بعد إتقان وإيقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت، وإلا فهو مفترٍ على الله تعالى[(١)]»[(٢)].

هذا في بيان الحكم المجزوم به، يأتي سائل فيقول: ما حكم كذا؟ فيقول: هذا حلال أو حرام. هذا لا بد أن يعد لنفسه مخرجًا بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لو طُرحت مسألة في مجلس علم بين طلبة علم وشارك الحاضرون من غير علم، لا على سبيل الفتوى، وإنما على سبيل المشورة والترجي، فقال بعضهم: لعل الحكم كذا، وقال بعضهم: لعل الحكم كذا، فمثل هذا لا يضر، ولما ذكر النبي ﷺ السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، «قال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما الذي تخوضون فيه؟**»، فأخبروه، فقال: «**هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[(٣)]، ولم يثرّب عليهم على ترجيهم وخوضهم، فدل على أنه إذا لم يكن على سبيل الإلزام، بل على طريق الترجي، فإن هذا يُتسامح فيه، ومثله لو سُئل عن معنى حديث أو معنى آية، فأجاب بـ«لعل المراد كذا» كان الأمر فيه يُسر، إن شاء الله تعالى.

ومن الناس من يجرؤ على تفسير كلام الله جَلَّوَعَلَا بما لا يحوم حوله ولا يصوب صَوْبَه، حتى إنه سئل بعضهم عن كلمة أو عن آية فيها ثمانية أقوال لأهل

---

(١) الكشاف (٢/٣٣٧).

(٢) فيض القدير (١/٢٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

العلم، فأجاب بجواب خارج عن هذه الثمانية، ما وافق قولًا لأهل العلم، قد يقول قائل: وليكن قولًا تاسعًا، فما الضير؟ يقال: الضير أن هذا التاسع هل قائله وزائده من يسوغ له أن يفسر القرآن بمثل هذه الطريقة؟ فالأصل أن التفسير منقول، وموكول إلى النبي ﷺ، ثم إلى صحابته مما فهموه من أقواله وأحواله ﷺ، ثم لمن تبعهم بإحسان ممن فهم حال من تقدم.

وكثيرًا ما يصل الإنسان إلى رتبة من العلم، ويقرأ في تفاسير الأئمة الشيء الكثير، أو يقرأ شروح الحديث، ثم يُسأل عن تفسير آية، أو عن معنى حديث لا يذكر فيه قولًا لقائل معين، لكنه من خلال قراءاته واطلاعه الواسع على كلام أهل العلم، تكونت لديه مَلَكَة، بحيث يظهر له معنى الآية أو معنى الحديث، مما تعضده الأصول، فمثل هذا هو التفسير بالرأي المستند إلى أقوال أهل العلم، وإلا فلو نظرنا في تفاسير الأئمة الموثوقين، لا سيما بعد عصور الرواية، لوجدنا كثيرًا منهم يدخل في تفسيره من كلامه الشيء الكثير، واستظهاراته ظاهرة في كتابه، فهل نقول: إن هذا من التفسير بالرأي الممنوع؟ أو نقول: يجوز له استظهار الراجح، واختيار ما يراه حقًّا ما دام قد أدام النظر في كلام أهل العلم، وفي أقوال المفسرين، وما جاء في التفسير المأثور، وقد تكونت لديه هذه الملكة، فصار موازيًا لمن أخذ عن سلف هذه الأمة؟ وعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى تفسير الشيخ ابن سعدي لا نجد فيه كلمة مضافة إلى النبي ﷺ، أو مضافة إلى صحابي أو تابعي، وإنما كله من إنشاء الشيخ، فهل نقول: إن هذا تفسير بالرأي لا يجوز؟ كلا، بل هو منتقى من تفاسير السلف، لكن لا يلزم إضافة كل قول إلى قائله لا سيما إذا كان للمؤلف دور في الصياغة، والتعبير عن الأقوال الكثيرة بألفاظ وجيزة، ومثل

هذا لا شك أنه ينطلق من أصل أصيل، وأساس متين، يعتمد على التفسير المروي عن سلف هذه الأمة.

ونبهنا على هذه المسألة؛ لأن هذا قد يلتبس على بعض، فيقول قائل: لماذا نقول: تفسيري الزمخشري والرازي بالرأي، وهما حرام، ونقول: تفسير غيرهما حق، وليس حرامًا؟ نقول: الزمخشري خالف السلف فيما قرره في التفسير، فقد خرج عن طريق السلف ومنهجهم، ومثله الرازي وغيرهما ممن فسر من المبتدعة[١]، بينما من نظر في تفاسير السلف وأدام النظر فيها تتولد لديه ملكة يستطيع بها أن يتعامل مع نصوص الكتاب على طريقة السلف وهديهم، وقل مثل هذا في معاني ما جاء عن النبي ﷺ، وهذا يحثنا إلى أن نديم النظر في كلام أهل العلم الموثوقين ممن هم على الجادة، ولا مانع أن ننظر في أقوال المخالفين والمعارضين في مسألة ما من أجل أن نتصورها ونحذر منها؛ لئلا نقع من حيث لا نشعر في مثل ما وقعوا فيه، وهذا كله للمتأهل، المميز لا لكل أحد.

يقول ابن المنكدر: «المفتي يدخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يفعل، فعليه التوقف والتحرز لعظم الخطر، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا سئل قال: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمر الناس وضعها في عنقه»[٢]، وكان الولاة في عصر السلف من أهل العلم، وجاء رجل من العراق أو من الشام كما في صحيح مسلم يسأل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مسألة في المناسك، فقال: «اذهب إلى ابن عباس»،

---

(١) ينظر: الرد على البكري (١/ ٧٣)، مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام (ص:٢٩، ٤٨) وما بعدها.

(٢) فيض القدير (١/ ٢٠٦).

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان ندًّا لابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ونظيرًا له في السن، وعند ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من الجوانب ما لا توجد عند ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والعكس أيضًا، يعني: جانب العلم في ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أظهر، وجانب العمل والعبادة في ابن عمر أظهر، ولذلك قال السائل لما قال له ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما في صحيح مسلم: «اذهب إلى ابن عباس، فقال: أنت أحب إلينا منه، رأيناه قد فتنته الدنيا، فقال: وأينا -أو أيكم- لم تفتنه الدنيا؟»[1].

فالناس عامة يثقون في العالم الذي لا يتوسع في أمور دنياه، وحاشا أن يقول قائل: إن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ارتكب محرمات، وجلب الأموال من غير حلها، أو صرفها في غير حلها، كلا، وحاشاه من ذلك ومما هو أدنى منه، لكنه توسع في الدنيا أكثر من ابن عمر، وابن عمر شدد على نفسه في التحري والورع، والتثبت، ولا يعني هذا أن مقابله متساهل، فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حبر الأمة وترجمان القرآن[2]، لكن عامة الناس تجدهم يثقون في صاحب العمل أكثر من غيره، وإن كانوا لا يميزون أيهما أعلم، والرجل السائل لابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لا يدري أيهما أعلم، لكن شهرة ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تتبع آثار النبي ﷺ، والاقتداء به، جعلته راجحًا عند هذا، وإلا فلا شك أن ابن عباس أعلم من ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٣).

(٢) كان أهم أسباب نبوغه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو دعاء النبي ﷺ له، فعنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، وضع يده على كتفي - أو على منكبي، شك سعيد - ثم قال: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**». أخرجه أحمد (٢٣٩٦)، وصححه ابن حبان (٧٠٥٥)، والحاكم (٦٢٨٠) ووافقه الذهبي.

والواجب على من سئل عن فتوى أن يصمت عنها، ويدفعها إلى من هو أعلم منه بها، إذا وجد من يكفيه أمرها، أما إذا تعين عليه الجواب؛ وصار الجواب من الأعمال العامة التي تتعلق بعموم الأمة، وهي فروض كفايات، فلا بأس، والفتوى لا بد من أن ينصب لها المفتون، والقضاء لا بد فيه من تعيين القضاة ونصبهم لحل المنازعات، والتعليم كذلك، فالولاية الخاصة والعامة لا بد منها، وهي من فروض الكفايات، والإقدام عليها من غير تأهل ومن غير حاجة، خطر ومزلة قدم، والإحجام حينما يتعين عليه الأمر أيضًا مسؤولية عظيمة أمام الله جَلَّ وَعَلَا، ونجد في وقتنا طرفي نقيض، فتجد الأهل الكفء إذا سئل: قال: ما أدري، سل غيري، وهو يعلم ويتقن ما سئل عنه، فما الذي يخلصه أمام الله جَلَّ وَعَلَا إذا جاءه هذا الشخص وعنده من العلم ما عنده؟!

نعم إذا كانت المسألة لا تتبين على وجهها، فله أن يقول: اذهب وسل غيري، إذا لم يتعين عليه، وكان يسهل على السائل أن ينتقل إلى شخص يجيبه عن سؤاله، لكن إذا تعين عليه، أو لم يكن في البلد إلا هو، فلا يقول: اذهب وسل غيري.

ولا يعني هذا أنه يجيب عن كل ما يُسأل عنه، لكن المقصود أن هناك أسئلة فورية تحتاج إلى جواب فوري، مثل أن يتصل متصل بعد هزيع من الليل، الساعة الثالثة مثلًا قبيل الفجر، ويقول: المسألة عاجلة، وتحتاج إلى جواب عاجل، فقد حصل منه طلاق لامرأته وهي في الطلق، وقد تلد بعد ربع ساعة، فتخرج من العدة، فلا يكون له عليها سلطان، فمثل هذا لا بد من إجابته في وقته؛ لئلا يفوت الأمر عليه، والتقصير حاصل، نسأل الله العفو والعافية والمسامحة.

بل التقصير حاصل في أوقات السعة أيضًا، فقد يتصل على كثير من المشايخ في أوقات سعة، وليست في أوقات ضيق، فلا يردُّ. قد يقال: إن المشاغل كثيرة، والمتطلبات، وشؤون الحياة، وأمور الأسر الآن صعبت وتأزمت، ولكن على الإنسان أن يراعي حال من يسأل، وعلى المسؤول أن يجيب إذا كان عنده علم.

فال في فيض القدير: «فمن سئل عن فتوى فينبغي أن يصمت عنها ويدفعها إلى من هو أعلم منه بها، أو من كلف الفتوى بها، وذلك طريقة السلف»(١).

وليس لمن عُين من قبل الإمام وأخذ أجرًا على الفتوى أن يقول: اذهب إلى فلان، أو اذهب إلى من هو أعلم مني؛ لأنه يأخذ على ذلك أجرًا من بيت المال، فعليه أن يجيب، ولا يلزم أن يجيب بما يعرف وما لا يعرف، بل يلزمه أن يجيب بما يعرف، أما ما لا يعرفه فلا يجوز له أن يجيب عنه، بل يدفعه إلى من هو أعلم منه.

وتلك طريقة السلف، يقول الماوردي: «فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي إليها، ولا له حد يقف عنده، ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل»(٢).

وهذا كما لو أن طالب علم مبتدئ نصب نفسه مفتيًا للناس، فهذا ليس له حد محدود، وليست له غاية، فهو لا يستطيع أن يقول: أنا لا أفتي إلا في باب من الأبواب، أو لا أفتي إلا فيما أحسن؟ يعني إذا كنت لا تفتي إلا فيما تحسن فسوف تقول - إذا صدقت مع ربك ومع نفسك- عن تسعة وتسعين بالمائة من المسائل:

---

(١) (٢٠٦/١).

(٢) السابق.

«لا أدري»، وحينئذ في عرف الناس تحترق، إذ كيف يتجه الناس إلى من يقول في تسعة وتسعين بالمائة من المسائل: لا أدري؟ وفي المتبقي: الواحد بالمائة قد لا يستحضر فيها الأقوال، ولا يوفق للجواب عنها، ويفاجأ بما ليس في حسبانه، فمثل هذا عليه أن يحجم، فإن أقدم فسوف يضل بنفسه ويُضل غيره.

وقال بعض الحكماء: «من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم، بكلام من يعلم، فحسبك خجلًا من نفسك وعقلك أن تنطق بما لا تفهم، وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم من سبيل، فلا عار أن تجهل بعضه، وإذا لم يكن في جهل بعضه عار فلا تستحي أن تقول: لا أعلم فيما لا تعلم»[(١)]. ونحن نسمع من يُسأل فيجيب بكلام يعرف السائل وغير السائل من السامعين، أن هذا المسؤول لا يدري ماذا يقول، وبعض الناس يأتي بكلام ينقض بعضه بعضًا، لا خطام له ولا زمام، ويأتي بكلام لا يفهم، كلام غير مرتبط يمسح بعضه بعضًا، ويشوش بعضه على بعض، ويأتي بالجملة، وبنقيضها، وهذا موجود مع تساهل الناس في هذا الباب الخطير.

والملاحظ على مر العصور من صدر الأمة إلى يومنا هذا أن الذي يقول: لا أعلم، ويكثر منها هم أهل العلم في الحقيقة، وهم الأئمة الراسخون في العلم، والذي لا يقول: «لا أعلم»، ولا تكثر على لسانه، تجدهم الصغار المبتدئين، وقد يقول بعض الصغار: هذا الكبير انتهى من بناء الشخصية، وأذعن الناس واعترفوا به عالمًا، وإن قال: «لا أعلم»، لكن الصغير الذي ما استتمت شخصيته، إذا قال: «لا أعلم»، كان ذلك عيبًا وشينًا، وإذا قال أحد هذا فلا شك أنه من جهله المركب.

(١) السابق.

قال ابن أبي ليلى: «أدركت مائة وعشرين صحابيًّا، وكانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر حتى ترجع إلى الأول».

يقول الغزالي: «فانظر كيف انعكس الحال فصار المرهوب منه مطلوبًا، والمطلوب مرهوبًا»[(١)]، المطلوب: «لا أدري» صار مرهوبًا منه يخشاه الإنسان، والمرهوب حقًّا وهو «الجرأة على الفتوى من غير أهلها» صار هو المطلوب، ومن أمثلة الجرأة على الفتوى أنك تجد في مجالس الكبار التي يحضرها طلاب علم، إذا سئل هذا الكبير بادر الصغير بالجواب، وهذا يوجد بكثرة، وكذلك يوجد أيضًا في مجالس الأئمة ومجالس العلماء الذين يستحي الإنسان من تحديد النظر في وجوههم، فضلًا عن مسابقتهم، والمصيبة تكبر إذا كان هذا التقدم بين أيديهم بكلام لا يكون صوابًا.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه، بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة، أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى»[(٢)].

فحتى إذا تعينت عليه لا يستعجل، بل يزيد في التأمل؛ لأنه يبحث عن خلاص نفسه، وألزم ما على الإنسان أن يسعى في خلاص نفسِه قبل خلاص السائل، فهو مطالب أولًا بنجاة نفسه، ثم بعد ذلك إذا كان هناك فضل، طلب نجاة غيره.

---

(١) السابق.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٣).

يقول عبد الرحمن ابن أبي ليلى: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ أُراه قال في المسجد، فما كان منهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث»[(١)] مع أن هؤلاء من حفاظ الحديث، فلماذا يود أن يكفيه أخوه الحديث؟ خشية أن يزل لسانه فيأتي بالحديث على غير وجهه، «ولا مفتٍ إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا»[(٢)].

جاء رجل إلى عبد الله بن الزبير، وعاصم بن عمر فقال: إن رجلًا من أهل المدينة طلق امرأته ثلاثًا قبل أن يدخل بها، فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فاذهب إلى عبد الله بن عباس، وأبي هريرة فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي ﷺ فسلهما ثم ائتنا فأخبرنا، فذهب فسألهما فقال ابن عباس لأبي هريرة: «أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة»[(٣)]، وهذه المسألة عند كثير من طلاب العلم أسهل من شرب الماء، يفتي فيها كما يتنفس، ليس عنده أدنى مشكلة، مع أنه يترتب على الجواب عن هذا السؤال، إما أن يبقى الرجل يجامع المرأة في حرام؛ لأنها بانت منه بالحقيقة، أو العكس، تفرق بين رجل وامرأته وتشرد أولاده بسبب جهل المفتي، فالمسألة خطيرة جدًّا، ليست بالسهلة ولا الهينة.

قال ابن عباس: «كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه إنه لمجنون»[(٤)]، وعن ابن مسعود مثله[(٥)].

---

(١) السابق (١/ ٣٤).

(٢) السابق.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢٢).

(٤) السابق (٢/ ١١٢٣).

(٥) ينظر: السابق.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «سأل رجل من أهل المغرب مالك بن أنس عن مسألة فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله تقول: لا أدري؟ قال: نعم، قال: مالك -نجم السنن- يقول: لا أدري؟ قال: نعم، فأبلغ من وراءك أن مالكًا لا يدري»[(١)].

والعلماء ينقلون عن مالك أنه سئل عن أربعين مسألة فأجاب عن ست وثلاثين مسألة بقوله: لا أدري، وأجاب السائل عن أربع[(٢)].

وعند أهل العلم أن الفقه كما يكون بالفعل يكون بالقوة القريبة من الفعل، فالإمام مالك لم تكن لديه مراجع حينذاك، فأجاب عن أربع، وهي التي يتبينها مثل الشمس، والبقية يشك فيها، فما كان يلزمه أن يجيب فيها، لكن مالكًا إذا رجع إلى كتبه وأصوله، يستطيع أن يحرر هذه المسائل، فمالك فقيه؛ لأن الفقه عندهم إما أن يكون بالفعل بأن يُسأل عن المسائل فيجيب عن الأسئلة بأدلتها، وإما أن يكون بالقوة القريبة من الفعل بأن تكون لديه الأهلية لبحث المسائل العلمية والترجيح والتعامل مع النصوص على مقتضى الجادة المعروفة عند أهل العلم، لكن من سئل عن مسألة في الطهارة مثلًا، فأخذ كتابًا من كتب الفقه المرتبة على الطريقة المعروفة عند أهل العلم، ثم أخذ يقلب الصفحات الأخيرة، فهذا ليس فقيهًا لا بالفعل ولا بالقوة، كما لو سئل عن مسائل في الإقرار فذهب يبحث عنها في أوائل الكتب المرتبة فقهيًّا.

---

(١) الفقيه والمتفقه (٢/٥٨).

(٢) ينظر: نشر البنود (٢/٢٢).

لكن بعض الناس فقيه بالقوة، فتسأله عن مسألة فيذهب إلى الكتاب فيفتحه وقد يقع على المسألة عينها، وقد يقدم ورقة، ويؤخر ورقة، فهذا فقيه بالقوة القريبة من الفعل، وهو يستطيع الوصول إلى المسائل في كتب أهل العلم، ويستطيع أن يتعامل مع كلام أهل العلم بالطريقة المسلوكة عندهم.

لكن الذي تخرج على المذكرات لا يستطيع أن يتعامل مع كتب أهل العلم، ويفهم كلامهم، فكلام أهل العلم له أصول، وقواعد، واصطلاحات لا يفهمها إلا من عانى كلامهم، ولذا المطلوب من طلاب العلم ألا يعتمدوا على كتب المعاصرين، بل يكون معولهم على الكتب التي ألفت لطبقات المتعلمين من أهل العلم، وهي التي يربى عليها طالب علم، أما أن يقرأ في مذكرات، وفي كتب معاصرين صيغت للمعاصرين يفهمها كل أحد، فهذه ما تربي طالب علم؛ لأنه قد يحتاج إلى مسألة في كتاب من كتب المتقدمين، فلا يستطيع فهمها.

يقول عبد الله بن الإمام أحمد: «كنت أسمع أبي كثيرًا يسأل عن المسائل فيقول: لا أدري، وذلك إذا كانت مسألة فيها اختلاف. وكثيرًا ما كان يقول: سل غيري، فإن قيل له: من نسأل؟ يقول: سلوا العلماء، ولا يكاد يسمي رجلًا بعينه»[(١)]، وقال ابنه صالح: «قال أبي: كان سفيان [ابن عيينة] إذا سئل عن شيء من الحيض أو المناسك يقول: لا حرج، لا حرج، وإذا سئل عن شيء من الطلاق يقول: من يحسن هذا؟ من يحسن هذا؟»[(٢)].

مع أن ابن عيينة من أهل الفتوى المعروفين.

---

(١) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله (ص: ٤٣٨).

(٢) مسائل الإمام أحمد رواية ابنه أبي الفضل صالح (١/ ٢٣٩).

وقال ابن القيم عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان شديد الكراهة والمنع للإفتاء بمسألة ليس فيها أثر عن السلف»[(١)]، يعني: في مسألة جديدة نازلة، يكره ذلك كراهية شديدة، ويقول: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام»[(٢)] .

وقال بعضهم: إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل[(٣)]، يعني: لا بد أن يكون لك قدوة في عملك، وفي قولك، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسوغ استفتاء فقهاء الحديث، وأصحاب مالك ويدل عليهم، ويمنع من استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبني مذهبه عليه، ولا يسوغ العمل بفتواه؛ لأن عناية الإمام أحمد بالوحيين ظاهرة، حتى إن من أهل العلم من لا يعده فقيهًا، وإنما يعده من أهل الحديث، وابن عبد البر لما ترجم للأئمة الفقهاء في كتاب «الانتقاء» ترجم للثلاثة، وترك أحمد[(٤)]، ومثل هذا لا يضيره، ففقهه معروف، ومتداول، وأصحابه كثر، وحملة علمه الذي بقي إلى يومنا هذا قامت بهم مئونة حمل هذا العلم العظيم، عن هذا الإمام المقتدى المؤتسى به، المتثبت إمام أهل السنة والجماعة.

قال أبو داود في مسائله: «ما أحصي ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول: لا أدري، قال: وسمعته يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٧).
(٢) السابق (١/ ٢٧).
(٣) ذكر هذا ابن مفلح عن الإمام أحمد. ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٤٣٠).
(٤) اسم الكتاب: «الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء» يقصد: أبا حنيفة ومالكًا والشافعي، والكتاب طُبع عدة طبعات.

في الفتوى، أي ما رأيت أحسن منه، وكان أهون عليه أن يقول: لا أدري»[١].

وقال سحنون بن سعيد: «أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه»[٢].

ويقول ابن القيم: «الجرأة على الفتيا تكون من قلة العلم، ومن غزارته وسعته، فإذا قل علمه أفتى عن كل ما يسأل عنه بغير علم، وإذا اتسع علمه اتسعت فتياه، ولهذا كان ابن عباس من أوسع الصحابة فتيا، وقد بلغ ما جمع من فتواه في عشرين سفرًا[٣]»[٤]، أي: عشرين مجلدًا، فقليل العلم -مثل ما ذكرنا سابقًا- يريد أن يبني شخصيته، ولو كان على حساب دينه وشغل ذمته، والعالم المتبحر عنده ما يجيب به في كثير من المسائل أو كبار المسائل.

وكان الناس ينظرون إلى مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ويقولون: كيف جمع هذا العلم، وأجاب عن جميع هذه المسائل في هذا العمر؟ فشيخ الإسلام لم يعمر، فقد ولد سنة ٦٦١هـ وتوفي سنة ٧٢٨هـ[٥]، أي: أنه عاش سبعًا وستين سنة.

وإذا نظرت إلى فتاوى النووي، إذا هي في جزء صغير، وإذا قارنا هذا بفتاوى من يتصدى للإفتاء في وقتنا تجد البون كبيرًا، يعني: لو أن إنسانًا يجيب في كل يوم

---

(١) مسائل الإمام أحمد، رواية أبي داود (ص: ٣٦٨)، إعلام الموقعين (١/ ٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٤).

(٣) قال ابن حزم في الإحكام (٥/ ٨٧): «وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن العباس في عشرين كتابًا».

(٤) السابق (١/ ٣٥).

(٥) ينظر: معجم المحدثين (ص:٢٥).

عن خمس مسائل مثلًا فسيجيب في السنة عن ألف وسبعمائة مسألة، وفي عشر سنوات عن سبع عشرة ألف مسألة، وهكذا إلى أن تبلغ المئات من المجلدات، وهذا الحاصل، يعني لو جمعنا فتاوى شيوخنا مثلًا، يعني ما جمع للشيخ ابن باز، يقرب من فتاوى شيخ الإسلام، وبقي الشيء الكثير، ولو جمعت إليها فتاواه في الطلاق لبلغت حجم مجموع فتاوى شيخ الإسلام كله، والحاجة داعية، والناس كثرت عندهم الإشكالات، وما يحتاج إلى سؤال أهل العلم من مشكلات سواءً كانت في الدين، أو في أمور الدنيا، أو في التعامل والأمور الاجتماعية، تحتاج إلى من يحلها بالطريقة الشرعية.

وكان سعيد بن المسيب أيضًا واسع الفتيا، وكانوا يسمونه الجريء[1]، لكن إن كانت الجرأة مبنية على أصول شرعية فنعمت الجرأة، وإن كانت غير مبنية على الأصول الشرعية فيا ويل صاحبها، فأحيانًا تقرأ فتوى لشيخ الإسلام بذيولها واستطراداتها تجد عنده قوة في الكلام، وقد تقول: هذا الكلام فيه جرأة، لكنها جرأة سببها الإحاطة بنصوص الشرع وقواعده وأصوله، وسئل رشيد رضا عن شيخ الإسلام هل هو أعلم من الأئمة الأربعة، أو هم أعلم منه؟ فقال ما مفاده: باعتبار أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تخرج على كتب الأئمة، وكتب أصحابهم وكتب أصحاب الحديث فلهم الفضل عليه، وباعتبار إحاطته بما كتبه هؤلاء الأئمة فهو أوسع منهم علمًا[2].

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ٣٥).

(٢) ينظر: مجلة المنار (٢٨/ ٤٢٣).

وهو عنده نظير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جمع الله له علم كبار الصحابة كلهم، وتأخرت حياته حتى احتيج إليه، وإلى علمه، فكثرت فتاواه، ولذلك تجدون الشيخ إذا عُمّر وهو على الجادة، وعلى هدي شرعي تجده يكون محل ثقة الناس، فالشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عمر بعد أقرانه، فاحتاج الناس إلى علمه، ولذلك انتشر علمه انتشار الليل والنهار، بينما من أقرانه من لو جمعت فتاواه لجاءت في مجلد مثلًا، فتأخر السن بعد الأقران لا شك أنه مدعاة لأن تكثر الحاجة إلى علم المتأخر، ولذا يقولون: العبادلة الأربعة هم: ابن عمر وابن عباس، وابن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأما ابن مسعود فليس من العبادلة الذين انتشرت فتاواهم؛ لأنه مات قديمًا، وهؤلاء تأخروا حتى احتاج الناس إلى علمهم[(١)]، فالحاجة هي التي تجعل الانتشار للعلم أكثر وأوسع.

ذكر ابن وهب عن محمد بن سليمان المرادي عن أبي إسحاق قال: «كنت أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنه ليدخل يسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا»[(٢)] فيجيبه سعيد، وسعيد أعلم التابعين على الإطلاق، وصهر أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووارث علمه.

وقال سحنون: «إني لأحفظ مسائل، منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من العلماء، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب قبل الخبر؟ فلِمَ ألام على حبس الجواب؟»[(٣)].

---

(١) ينظر: التقييد والإيضاح (ص:٣٠٣).

(٢) السابق (١/ ٣٥).

(٣) السابق.

يعني إذا كانت المسألة فيها ثمانية أقوال فلماذا أستعجل أنا في إبداء رأيي قبل أن ينضج الرأي، ولم ألام على حبس الجواب؟ والمسألة أفتى فيها أئمة، ويأتي من الشباب من يقول: هم رجال ونحن رجال.

قال حذيفة: «إنما يفتي الناس أحد ثلاثة: من يعلم ما نسخ من القرآن، أو أمير لا يجد بدًّا أو أحمق متكلف»، قال ابن سيرين: قلت: فلست بواحد من هذين، لست الأول والثاني، ولا أحب أن أكون الثالث»[1] يعني: الأحمق المتكلف.

وقوله: «من يعلم ما نسخ من القرآن»، يعني: ليعرف كيف يتعامل مع النصوص؛ لأن نصوص الكتاب والسنة فيها المتقدم والمتأخر، وفيها المحكم والمتشابه، وفيها المطلق والمقيد، وفيها العام والخاص، وفيها الظاهر والنص، والمؤول، وفيها أنواع كثيرة جدًّا، فالذي يستطيع أن يتعامل مع هذه النصوص بمعرفة هذه الأمور هو الذي يفتي الناس.

والنسخ في عرف السلف أعم من أن يكون رفعًا كليًّا للحكم، كما هو المعنى الاصطلاحي العرفي عند أهل العلم، بل يشمل النسخ الكلي، ويشمل أيضًا النسخ الجزئي من التقييد والتخصيص وغيرهما.

وفي المقابل فإن الله جَلَّ وَعَلَا أخذ العهد والميثاق على أهل العلم أن يبينوا العلم للناس ولا يكتموه، ولو لم يسأل لا بد من البيان، وإذا سئل تعين؛ لأنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

---

(١) السابق.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثًا، ثم يتلو: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٥٩] إلى قوله: ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٠]»[(١)] إلى آخره.

فالكتمان مغبته وخيمة، كما أن الجرأة من غير تأهل -أيضًا- شأنها عظيم وخطير، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المخرج في المسند والسنن ومستدرك الحاكم: «**من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[(٢)].

يقول المناوي في شرح هذا الحديث: «أي: أدخل في فيه لجامًا من نار؛ مكافأةً

(١) البخاري (١/ ٣٥)، ومسلم (٤/ ١٩٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥)، وابن ماجه (٢٦١)، وأحمد (٨٥٣٣)، وصححه الحاكم (٣٤٥)، وجاء أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ وصححه ابن حبان (٩٦).

له على فعله، حيث ألجم نفسه بالسكوت في محل الكلام، فالحديث خرج على مشاكلة العقوبة للذنب، يعني: الجزاء من جنس العمل؛ وذلك لأنه -سبحانه وتعالى- أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، وفيه حث على تعليم العلم؛ لأن تعلم العلم إنما هو لنشره والعمل به، ودعوة الخلق إلى الحق، والكاتم يزاول إبطال هذه الحكمة وهو بعيد عن الحكيم المتقن، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم تشبيهًا له بالحيوان الذي سخر ومنع من قصد ما يريده»[(١)] حينما سكت في موضع الكلام، أو في وقت يتعين عليه فيه الكلام أشبه العجماوات، والحيوان يحتاج إلى لجام، وكذلك من كتم هذا العلم يحتاج إلى أن يُلجم بلجام من نار.

يقول الشيخ حافظ الحكمي في ميميته الفريدة الشهيرة:

والكتم للعلم فاحذر إنَّ كاتمه ** في لعنة الله والأقوام كلهم

ومن عقوبته أنْ في المعاد له ** من الجحيم لجامًا ليس كاللُجم

وصائن العلم عمن ليس يحمله ** ما ذا بكتمان بل صون فلا تلم

وإنما الكتم منع العلم طالبَه ** من مستحقٍّ له فافهم ولا تهم[(٢)]

وعلى هذا فعلى طالب العلم أن يرى ويعرف ويقرر مكانته في هذا العلم، أن يعرف واقعه وحقيقته، فإن كان ممن أخذ عليه العهد والميثاق أن يبين، فلا يجوز له حينئذ أن يحجم ألبتة؛ لئلا يلجم بلجام من نار، وإذا كان ممن لم يبلغ هذه المرتبة، ولم يتمكن من معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها فلا يجوز له حينئذ أن يقدم.

---

(١) فيض القدير (٦/١٨٩).

(٢) المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية لحافظ أحمد الحكمي (ص:٢٥).

ومما يشاهد أن من الأكفاء في وقتنا الحاضر من انزوى في بيت أو في مزرعة أو اقتصر على عمل رسمي، ولم يشارك في نفع الناس، ولم يسهم في إخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ولم يسهم في حل إشكالاتهم، وإجابة سؤالاتهم، فإحجام مثل هذا هو الذي صار سببًا في جرأة غير المتأهلين على أن أضلوا الناس بعد أن ضلوا بأنفسهم.

قد يقول قائل: أنا لا أستطيع أن أقرر عن نفسي أنني وصلت إلى الحد الذي يلزمني أن أفتي فيه، فالمسألة تحتاج إلى وضوح، وسئل بعض الكبار: لماذا لا تتصدى لتعليم طلاب العلم؟ فقال: إن النصاب لم يكتمل، والأمة كلها تشهد له أن نصابه قد زاد، فهل يقال: إن الإنسان متروك له هذا الأمر، وإن كل من قال: أنا أعرف بنفسي ما بلغت هذه المنزلة يترك، لا سيما وكثير منهم يقول مثل هذا الكلام من باب التواضع، وهضم النفس؟

والجواب: لا، فمثل هذا التواضع لا يعفيه من الوعيد الشديد الذي جاء فيمن نقض العهد والميثاق على أهل العلم أن يبينوا للناس ما نزل إليهم، ولو تواضع، لا يعفيه هذا التواضع، إلا إذا قام بالأمر من يكفي، أما إذا تعين عليه فلا بد أن يسهم، وأن يبين.

ومسألة التأهل وعدمه فيها شيء من الخفاء والغموض، فقد يكون الإنسان تأهل بالفعل، لكن لا يدري عن نفسه، فقد يكون شديد الحذر والخوف على نفسه، من بلوغه الحد الذي يلزمه أن يتصدى لتعليم الناس وإفتائهم، ورفع الجهل عنهم، وبيان ما نزل إليهم، وبعضهم قد يجرؤ ظنًّا منه أنه قد وصل إلى الحد المطلوب، ولا شك أن مثل هذا الأمر تكفي فيه الاستفاضة، بالنسبة للشخص

نفسه ولغيره أيضًا، يستفيض بين أهل العلم أن فلانًا قد بلغ مبلغًا يتعين عليه أن يعلّم، ويتعين عليه أن يدعو، وأن يقضي، ويفتي، فإذا استفاض بين أهل العلم لا سيما الموثوقين منهم، فإنه حينئذ يكون نصابه قد اكتمل، وذمته تبرأ بتصديه لهذه الأعمال.

أما إذا لم يستفض أمره بين الناس فهذا يوكل إليه، وحينئذ فهو البصير بنفسه، لا سيما قبل أن يعرفه الناس، ومثله بالنسبة للعامي ومن يستفتيه، العامي ليست لديه أهلية الموازنة بين أهل العلم، ولكن هناك أمور ظاهرة إذا اتصف بها العالم فهو أهل لأن يستفتى:

وليس في فتواه مفتٍ متبع ** ما لم يضف للعلم والدين الورع[1]

لا بد من أن يتحلى بهذه الأوصاف الثلاثة: العلم والدين، والورع؛ لأن بعض الناس عنده علم، لكن ليس عنده ورع، إذا لاح له مطمع دنيوي أو شرف أو جاه تخطى هذا العلم الذي يحمله، وتجاوزه، وبعضهم ليس عنده دين يحميه، وبعضهم ليس عنده علم، فلا بد من توافر الأمور الثلاثة، والعامي أيضًا يكفيه في تقرير من يسأل استفاضة صلاح وعلم هذا الذي يريد سؤاله عند أهل العلم الموثوقين، فإذا استفاض على ألسنة أهل العلم أن فلانًا أهل لأن يستفتى فليقصده الناس -من العامة وأشباههم- للاستفتاء.

ومع هذه النصوص المحكمة في المنع والإلزام نجد في عصرنا من يجرؤ على الفتوى وهو ليس من أهل العلم أصلًا، كما أسلفنا في المقدمة، يجمع في قناة من

(١) نظم مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود، (٩٥٩).

القنوات ثلة من الشباب، وثلة من الجنس الآخر: من الشابات، ثم يطرح مسألة شرعية، وقد يكون معه ممن يستطيع استغفال الناس واللعب بعقولهم ممن يؤيده على كلامه وطريقته واستفتائه، ثم يقول: ماذا تقولون في كذا؟ ثم بعد ذلك يحسب الأقوال، فيصير الحكم للأغلب، هل هذه طريقة شرعية لتقرير المسائل العلمية؟!

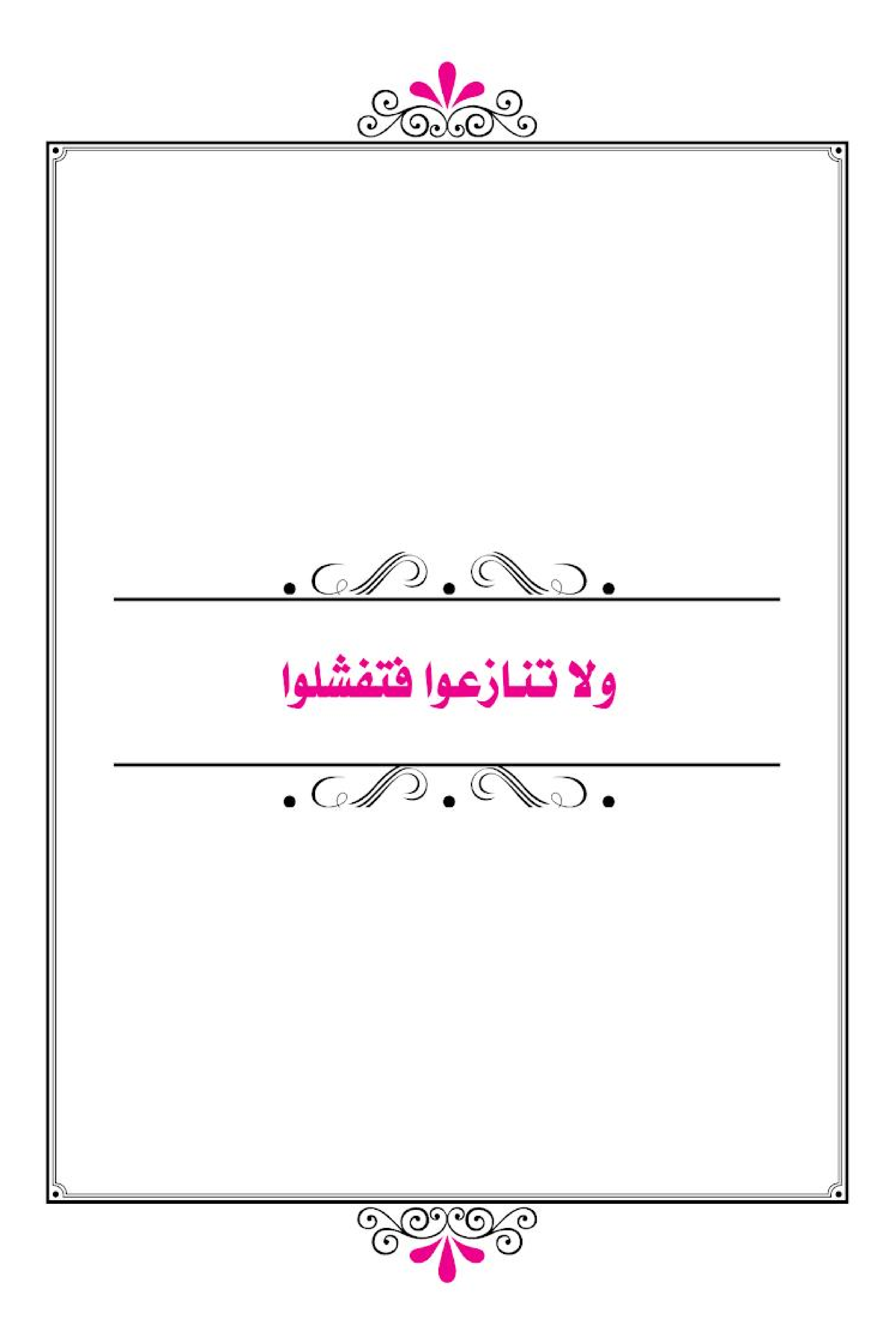
هؤلاء هم الذين أخبر النبي ﷺ عنهم أنهم رؤوس جهال، يَضلون بأنفسهم، ويُضلون غيرهم، ومع ذلك هو يصرح ويتبجح بأنه ليس من أهل العلم، إذا انتهى من تقرير المسائل بهذه الطريقة قال: يا إخوان، أنا تخصصي غير شرعي، وهو تخصصه كيمياء أو صيدلة، أو زراعة أو شيء آخر، لكنها وسيلة كسب فحسب، فويل لمثل هذا، ثم ويل له، يتخبط في دين الله ويقرر أحكامًا شرعية بهذه الطريقة، نسأل الله السلامة والعافية.

وتصدُّر هؤلاء الجهلة سبَّبَ اضطرابًا في الفتوى، وضياعًا للمستفتين، والمسؤولية في مثل هذا تقع على أولياء الأمور، من العلماء والقادة، بأن يوضع لهذا الاضطراب واللعب والتلاعب حدًّا؛ لأن الناس اضطربوا، ونسبوا هذا الاضطراب إلى الدين، فكم سمعنا على ألسنة العامة أن الدين تغير، كنا نرى الناس يصلون كذا، وظهرت أقوال أخرى، كنا نراهم يفعلون كذا وظهر غير ما كنا نعلم، فنسبوا هذا الاضطراب إلى الدين، والدين منه بريء، نعم أهل العلم بينهم خلاف، والخلاف موجود من عصر الصحابة، لكن في مثل هذه الظروف التي ظهرت فيها هذه الأقوال، لا بد أن يطلع العامة على الأسباب الحقيقية للاختلاف، وأن يعرى أمثال هؤلاء الأدعياء الذين يضلون الناس، وأن تبين حقائقهم.

ومن أسباب ظهور أمثال هؤلاء الأدعياء غياب المتأهلين، وزعمهم أنهم يتأسون بسلف هذه الأمة في تدافع الفتيا وتدارئها، ففسح المجال لأدعياء العلم أن يتصدروا في القنوات والوسائل والمجالس.

ولا شك أن الحاجة قائمة لانتصاب أهل العلم الموثوقين لهذه المنزلة، وقد أمر الله جَلَّ وَعَلَا بسؤال أهل العلم، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، فإذا أحجم الكفء مع اضطرار العامة إلى من يفتيهم، اضطروا إلى سؤال من ليسوا من أهل العلم، فضلوا وأضلوا، نسأل الله السلامة والعافية. والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد،
وعلى آله وأصحابه أجمعين.



ولا تنازعوا فتفشلوا



ولا تنازعوا فتفشلوا

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

ففي هذه الصفحات القليلات نذكر جملًا من مسائل العلم المتعلقة بالخلاف بين أهل العلم، والمقصود به الخلاف في صحة الدليل أو فهمه، فهذا هو المظنون بأهل العلم.

إن الله جَلَّ وَعَلَا أمر المؤمنين بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فأمر تعالى بالاعتصام، وبين المعتصَم به، وأمر بالاجتماع عليه، فلا يكفي اجتماعٌ مجردٌ من الاعتصام، ولا يجدي أي اعتصام، بل لا بد من اعتصام بحبل الله واجتماع عليه، وفي هذا تنبيه على أنّ حبل الله الحقّ يوجب اجتماعَ أهله عليه، واعتصامهم به، وأنَّ أيَّ تفرقٍ واختلافٍ يوحي بضعف الاعتصام أو عدمه، أو كون المعتصَم به ليس حبل الله وسبيله.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، والفشل هو: الكسل والضعف والتراخي(١)، وقيل: ضعف مع جبن(٢)، وهو قريب من الأول، والنـزاع والخصام معصية مفضيةٌ إلى رؤية ما يكره المتنازعون.

---

(١) ينظر: المحكم لابن سيده (٦٨/٨).

(٢) ينظر: لسان العرب (٥٢٠/١١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦] والتنازع والمنازعة: المجاذبة[١]، قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتجاذبون تجاذب ملاعبة[٢]، ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] فإذا حصل الاختلاف والتجاذب، وكل طرف يدلي برأي يخالف وينازع الطرف الآخر، فهنا يكون الاحتكام إلى الله ورسوله ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ومن الرد إلى الله والرسول الرد إلى القواعد العامة المستنبطة، وإلى الأصول المأخوذة من الكتاب والسنة.

فالاحتكام عند الاختلاف إلى شرع الله ودينه.

ولا شك أن الاختلاف والتنازع المذموم في الآراء سبب للفرقة والفشل، مما يجعل المختلفين لقمة سائغة لأعدائهم، وشواهد الأحوال على هذا قائمة وكافية، فلما كانت الأمة متحدة تحت راية واحدة، ومندرجة تحت قول واحد عمدته الكتاب والسنة، سادت وقادت، وليس معنى ذلك عدم وجود خلاف في الآراء، بل يوجد خلاف، لكنه خلاف سائغ لا يؤدي إلى الفرقة، والإشكال في الخلاف المؤدي إلى التنازع والمخاصمة والفرقة.

والاجتماع في الرأي والكلمة، ألفة ينشأ عنها اتحاد وقوة، والاختلاف في الظاهر يؤدي إلى الاختلاف في الباطن، وهذا لا شك فيه، كما أن الاتفاق في

---

(١) السابق (١/ ١٢٥)، وتاج العروس (٢٢/ ٢٤٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ١٤٧).

الظاهر يؤدي إلى الاتفاق في الباطن، ولهذا حرم النبي ﷺ التشبه بالكفار في نصوص كثيرة[(١)]؛ لأن موافقتهم في الظاهر تؤدي إلى موافقتهم في الباطن، ومخالفتهم في الظاهر تؤدي إلى منابذتهم في الباطن، وقل مثل هذا في الخلاف والوفاق مع المخالفين المبتدعة والعصاة من المسلمين. وفي الحديث المخرج في صحيح مسلم: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**»[(٢)] وفيه دليل على أن الاختلاف في الظاهر، يجر إلى الاختلاف في الباطن ولا بدّ.

والخلاف المذموم في الشرع هو ما وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وبقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، وبقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]، وبقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وبقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وغيرها من الآيات.

وهو الخلاف الذي ليس سببه خفاء الدليل، أو تنوع الفهم، بل سببه البغي والعدوان مع وضوح الحق وبيان الجادة، فهذا هو المذموم المؤدي إلى الفشل والضعف والجبن، وذهاب الريح والقوة، وتسلط الأعداء.

---

(١) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم لتقي الدين ابن تيمية (١/٩٥ وما بعدها).

(٢) أخرجه مسلم (٤٣٢)، عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

والكتب المنزلة على أنبياء الله ورسله هداية من الضلال، وحماية من التفرق والاختلاف المذموم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقال جَلَّ وَعَلَا عن أمة محمد ﷺ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، فالذين آمنوا يوجد بينهم شيء من الاختلاف، لكنه خلاف يؤول إلى هداية ورحمة وتوافق ووئام، وغيرهم يوجد بينهم خلاف، لكنه مع خصام ونزاع وجدال يفضي إلى الخذلان -نسأل الله العافية-؛ لأنه مبني على بغيٍ ومماراة ومكايدة، ليس المراد منه الوصول إلى الحق. فالاختلاف بين الناس في الأقوال قد يفضي إلى التنازع والمجادلة والمخاصمة والفرقة إذا كان منشأه هوى وبغيًا، لا بحثًا عن الحق، فإنّ من يبحث عن الحق لن يحصل منه تعدٍّ أو بغي على غيره؛ لأنّ مطلبه الحق أنى جاءه أخذه، فيوفق ويسدد سواء أصاب الحق بنفسه، أو بغيره.

وقال تعالى عن نبيه عيسى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]؛ لأنه لو بيَّن جميع ما يختلف فيه لارتفع الاجتهاد، الذي هو من نعم الله جَلَّ وَعَلَا على المؤمنين.

والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر، في حاله أو قوله، فإذا ذهب هذا من جهة اليمين، وذاك من جهة الشمال، قيل: اختلفا[(١)]، لكن لو سارا في طريق واحد حصل الاتفاق بينهما، وقل مثل هذا في الأقوال، فإذا

---

(١) ينظر: المحكم (٥/٢٠١).

قال شخص: هذا يجب، وقال آخر: هذا يحرم، فقد اختلفا، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين؛ لأنه لا يمكن أن يجتمع الضدان، وقد يجتمع المختلفان[(١)].

والخلاف المذموم سبب لرفع البركات الأخروية والدنيوية، وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال: «**إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم، التمسوها في السبع والتسع والخمس**»[(٢)]، فهذا النسيان من شؤم الخلاف، وإن كانت العاقبة في خفاء ليلة القدر حميدة لهذه الأمة بأن يكثر اجتهادها، ويطول زمن تعبدها واتصالها بربها جَلَّ وَعَلَا، فتعظم الأجور، فالخيرة فيما يختاره الله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث المتفق عليه: «**إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»[(٣)]، فاختلافهم مع وجود من يوحى إليه، دليل تطلبهم العنت والبغي، وهذا هو الخلاف الذي يذر الديار بَلاقِع! فأهلكهم الله بسبب خلافهم.

ولما كانت منزلة الاختلاف بهذه الخطورة شُرِع طلب الهداية إلى الحق والصواب، ففي الحديث: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك**»[(٤)] ففيه طلب الهداية إلى الصواب والحق في الأمور المختلف فيها.

---

(١) ينظر: الفروق للعسكري (ص: ٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩)، وعند مسلم (١١٦٧)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعناه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٧٧٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في دعاء قيام الليل.

وفي البخاري عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف، حتى يكون الناس جماعة»(١) يعني: حين اختلف رأيه بالنسبة لبيع أمهات الأولاد مع رأي أبي بكر وعمر، قال ابن حجر: «(فإني أكره الاختلاف) أي: الذي يؤدي إلى النـزاع، قال ابن التين: يعني: مخالفة أبي بكر وعمر، وقال غيره: المخالفة التي تؤدي إلى النـزاع والفتنة، ويؤديه قوله بعد ذلك، حتى يكون الناس جماعة»(٢).

فالخلاف في الجملة شر، ولا سيما الذي يفضي إلى النزاع والخصام، وحمل الأحقاد والتربص بالمخالف لإيقاعه.

وأما ما يروى مرفوعًا: «**اختلاف أمتي رحمة**» فهذا خبر لا أصل له، ولا يوقف له على إسناد، ذكره نصر المقدسي والبيهقي بغير سند، وأورده الحليمي أيضًا(٣)، وهو مع كونه لا أصل له معارض بقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ

---

(١) (٣٧٠٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٧٣).

(٣) قال الصنعاني في التنوير (١/ ٤٨٨): «وهذا الحديث مع عدم صحة طرقه مخالف للآيات القرآنية الدالة على ذم الاختلاف والتفرق، فإن الاختلاف منشأ كل بلاء وشرّ في الدنيا والدين، والتفرقة بين الاختلاف في الفروع والأصول فمما لا دليل عليه، بل الكل مذموم، فالحديث لو ثبت لتؤول، وكيف ولم يثبت؟! وقول المصنف: ولعله قد خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا، كلام لا يليق بسعة اطلاعه، كيف وقد ذكر في خطبة الجامع الكبير أنه جمع فيه الأحاديث النبوية بأسرها، وقد ترجم الإمام أبو عبد الله البخاري في صحيحه: «باب كراهة الاختلاف»، فلو كان رحمة لكان محبوبًا لا مكروهًا، والأحاديث النبوية الواسعة دالة على ذم الاختلاف وهؤلاء الأئمة الذين ذكروه قد أوردوه بغير إسناد، بل ما أنهوه إلى صحابي يكون إليه الاستناد فهو منقطع».

وأما قول المناوي في التيسير (١/ ٩٧) تعليقًا على قول السيوطي: (ولعله خرّج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا): «والأمر كذلك فقد أسنده البيهقيّ في المدخل وكذا الديلمي في

﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] فاستثنى أهل الرحمة من المختلفين، فدل على أن الاختلاف ليس برحمة.

نعم، ما يؤدي إليه بعض الاختلاف المبني على الاجتهاد الذي ليس فيه معارضة ولا مصادمة لنص ثابت صريح صحيح، مثل هذا قد يكون فيه مندوحة وسعة ورحمة لبعض الناس، لا سيما بالنسبة لمن فرْضه التقليد، مع جزمنا أنّ الحق عند الاختلاف واحدٌ لا يتعدد، ولا يعني هذا أن للإنسان الذي فرضه التقليد - سواء كان عاميًّا أو طالب علم مبتدئًا في حكم العامي- له أن يتنقل في المذاهب بحثًا عن الأسهل، وهذا ما يُعرف عند أهل العلم بتتبع الرخص، فمثل هذا ربما يخرج صاحبه من الدين وهو لا يشعر؛ لأنه ما من مسألة إلا وفيها أقوال، فإذا كان ينتقي من هذه المسائل أسهل الأقوال، كأن تكون المسألة فيها ثلاثة أقوال لأهل العلم، قال أحمد: حرام، وقال أبو حنيفة: مكروه، وقال مالك: جائز، يأخذ رأي مالك في هذه المسألة، جاءت مسألة بالعكس، قال مالك: حرام، قال أبو حنيفة: مكروه، قال أحمد: جائز، يأخذ برأي أحمد في هذه المسألة، فمثل هذا يخرج من الدين بالكلية، ويتنصل عن جميع الشرائع، ولا يبقى عنده إلا ما علم من الدين بالضرورة، مما اتفق عليه وأجمع عليه العلماء، ولهذا أثر عن السلف قولهم: «من

الفردوس من حديث ابن عباس، لكن بلفظ: «اختلاف أصحابي رحمة». فليس بسديد؛ فإن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع مخالفة لفظه للحديث مسلسل بالعلل. كما في المقاصد الحسنة (ص: ٦٩)، وصفة الصلاة للألباني (ص: ٤٩). تنبيه: قال الحليمي في تفسير هذا المزعوم حديثًا: «اختلافهم أي في الحرف والصنائع». ينظر: تذكرة المحتاج لابن الملقن (ص: ٧٢). وينظر: الإبهاج للسبكي (١٨/٣).

تتبع الرخص تزندق»[١]، يعني: خرج من الدين؛ فإنّ من يقول بهذه الرخصة لا يقول بتلك وهكذا، وجمعها في رجل واحد مفضٍ إلى الخروج من الإسلام ونبذ شرائعه، فمثل هذا لا يسوغ له أن ينتقل وينتقي من المذاهب، بل إذا قلد إمامًا رأى أن ذمته تبرأ بتقليده امتثالًا لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] يلتزم قوله في كل مسألة، إلا أن يدلي غيره بدليل صحيح صريح في المسألة، فانتقل من تقليد هذا الإمام إلى اعتماد هذا الدليل، فتبرأ ذمته حينئذ.

وهناك كتاب لمحمد بن عبد الله الدمشقي الشافعي واسمه: (رحمة الأمة في اختلاف الأئمة)، وهو مبني على هذا الحديث الذي لا أصل له.

وهذا ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما رواه أبو داود في كتاب المناسك، صلى أربعًا في الحج، وهو يرى القصر، وقد عاب على عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تربيعه وود لو قصر فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعًا، قال: «الخلاف شر»[٢]، وإن كان في إسناده عند أبي داود جهالة، وقد صار مطية لكثير ممن أراد أن يوافق كل مخالف، فيترك بعض الواجبات ويقول: الخلاف شر، وأحيانًا يرتكب بعض المحرمات ويقول: الخلاف شر.

---

(١) ينظر: التحبير للمرداوي (٨/٤٠٩٠)، البحر المحيط (٨/٣٨٣)، وقد أثر عن الأوزاعي قوله: «من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام». أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/٢١١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٦٠) عن معاوية بن قرة عن أشياخه: أن عبد الله صلى أربعًا، قال: فقيل له: عبت على عثمان، ثم صليت أربعًا، قال: «الخلاف شر». وله طرق أخرى عن أصحاب عبد الله عنه به. كما في التمهيد لابن عبد البر (١٦/٣٠٧).

وليس هذا الكلام على إطلاقه، وإن صح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلا لكانت مخالفة أهل الشرك والإلحاد شرًّا! وهذا لا يقول به مسلم.

فالخلاف في جملته شر، والوفاق والاتفاق خير، ولكن هل كل خلاف شر؟ هل معنى هذا أنك إذا قدمت إلى بلد وأهلُه على مذهب معين يعملون عملًا هو في نظرك واجتهادك محرم، تقول: الخلاف شر، وتعمله، وتوافقهم على ما يعملون؟ فمثلًا ذهبت إلى بلد أهله يعملون بالمذهب الحنفي، فيجيزون شرب النبيذ، هل تشرب النبيذ محتجًّا بأن الخلاف شر؟ أو إلى بلد أهله مالكية، يأكلون من اللحوم ما ترى تحريمه، فهل تأكل معهم محتجًّا بأن الخلاف شر، وأنت عندك دليل واضح صريح على منع هذا الشيء وتحريمه؟

فالجملة لها أصل صحيح، ولكنها تحتاج إلى تقييد، وهذا من جملة القواعد التي يطلقها أهل العلم وهي تحتاج إلى تقييد.

فإذا كان الخلاف بين فاضل ومفضول، وأردت أن توافقهم ارتكابًا للمفضول، فلك ذلك، أو كانت المسألة مسألة اجتهادية ليس فيها نص صريح صحيح، فلك أن ترتكب القول المرجوح، لا سيما إذا ترتب عليه مصلحة راجحة، أما إذا كان عمدةُ المسألة دليلًا مرفوعًا صحيحًا صريحًا، فلا مندوحة من العمل به مهما ترتب عليه، وكذلك ما تعارضت فيه الأقوال معارضة بينة، كقول ينص على الوجوب والآخر على التحريم، فلا سبيل إلى الاتفاق مع الخصم بحجة أن الخلاف شر.

فإذن جملة: (الخلاف شر) لا بد من تقييدها.

والخلاف والاختلاف بمعنى واحد، وبعض العلماء يفرق بينهما، فيقول: الاختلاف يستعمل في قولٍ بني على دليل، والخلاف: فيما لا دليل عليه، قاله التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون، وعضده بأن القول المرجوح في مقابلة الراجح يقال له: خلاف لا اختلاف[1]، لكن هذا التفريق ليس معتبرًا في إطلاقات كثير من أهل العلم، فلا نرى عندهم ضيرًا من التعبير بهذا وذاك.

أنواع الخلاف:

الأول: خلاف التضاد: وهو الخلاف الحقيقي، وهو الذي لا يمكن التوفيق فيه بين الأقوال المندرجة تحته، فإذا قيل في شيء واحد: حرام أو واجب، لا يمكن أن يوفق بين هذين القولين، والاحتياط في مثل هذا مستحيل، فلا بد أن يُرجَّح هذا أو هذا؛ لأن الاختلاف من اختلاف التضاد.

واختلاف التضاد ينقسم إلى:

- اختلاف معتبر: وهو ما دل عليه الدليل، أي: أنّ له مأخذًا شرعيًّا.

- اختلاف غير معتبر: وهو ما لا دليل معتبر عليه، كالذي بني على استحسان أو اجتهاد ضعيفٍ أو قياس في مقابلة النص، فالقياس في مقابلة النص عند أهل العلم يسمى فاسد الاعتبار.

الثاني: خلاف التنوع، وهذا -بخلاف السابق- يمكن فيه الجمع بين جميع الأقوال، فمثلًا ما أثر عن النبي ﷺ من أدعية الاستفتاح المتنوعة، فلا يقال بالترجيح بين هذه الأدعية والعمل بواحد منها فقط، بل يقال: إن هذا اختلاف

(١) (١/١١٦).

تنوع، بمعنى أنه يجوز الاستفتاح بهذا تارة، وبالثاني تارة، وبالثالث تارة، وهكذا، وقل مثل هذا في صيغ التشهد، وقل مثل هذا فيما ثبت عن النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد الرفع من الركوع ونحوه مما ثبت بشيء من الاختلاف، فالصواب أنه يقال بهذا أحيانًا، وبهذا أحيانًا.

ومن خلاف التنوع ما يذكره المفسرون في تفسير الصراط[١]، وكثير من ألفاظ القرآن، وأشار إلى هذا شيخ الإسلام، وضرب له أمثلة في مقدمة التفسير[٢].

والخلاف عند أهل العلم ليس على درجة واحدة، فهناك خلاف يتساهل فيه أهل العلم، وخلاف يتشددون فيه، فمثلًا الخلاف في أصول الدين ومسائل الاعتقاد، فلا يخلو إما أن يثبت اتفاق السلف على المسألة، بحيث لا يوجد بينهم مخالف، كالاتفاق على ربوبية الله وألوهيته وأسمائه وصفاته التي جاءت النصوص الصريحة بها، والإيمان بأركان الإيمان الستة، فهذا القسم لا يسوغ فيه الخلاف، ولا يعذر فيه المخالف، ويطلق عليه حينئذ مبتدع.

أو يثبت فيها خلاف كمسائل الاعتقاد التي ثبت فيها الاختلاف بين السلف، وهذه في الغالب إذا كانت الأدلة محتملة للنفي والإثبات، كاختلافهم في رؤية النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية»[٣]، وأما ابن عباس فيثبت الرؤية[٤]، فترجيح أحد القولين سائغ، لكن بالدليل الظاهر وبالمرجح المعتبر، لا عن هوى.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/١٧١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٦).

(٣) البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧)، واللفظ له.

(٤) مسلم (١٧٦).

وهناك آيات يتفق أهل العلم على أنها من آيات الصفات، كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وكإثبات السمع والبصر وغيرها مما ثبت بالنصوص القطعيَّة من الكتاب والسنة، فهذه ليس بين سلف هذه الأمة خلاف فيها، وهناك آيات يختلف فيها هل هي من آيات الصفات أو لا؟ كقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وهناك أيضًا ما لا ينهض الدليل على إثبات الصفة به، من وجهة نظر المخالف، فعلى سبيل المثال صفة العزم، هل تثبت لله جَلَّ وَعَلَا؟ فشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى أثبت لأهل السنة تجاه هذه المسألة قولين:

القول الأول: المنع من إثبات صفة العزم لله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه لم يرد فيها حديث صحيح صريح مرفوع عن النبي ﷺ والصفات توقيفية.

القول الثاني: -وهو الأصح عند ابن تيمية-: الجواز.

ورجحه شيخ الإسلام لوجود آثار في المسألة، ومن أقواها ما جاء عن أم سلمة كما في كتاب الجنائز من صحيح مسلم: «ثم عزم الله لي فقلتها»[(١)] فأثبتت أن الله يعزم، ومثل هذا يبعد أن تقوله أم المؤمنين من غير توقيف، ومن غير أن تسمع من النبي ﷺ فيه شيئًا، يقال في مثل هذا: له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال بالاجتهاد ولا بالرأي، ولهذا أثبت من أثبت صفة العزم بهذا الخبر، وبقراءة جماعة من السلف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩][(٢)] ومن نفاها فله

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/٣٠٣)، والحديث المذكور في مسلم (٩١٨).
(٢) ينظر: الجامع للقرطبي (٤/٢٥٢).

وجه، فمثل هذا يسوغ فيه الخلاف، أما ما اتفق عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، فهذا لا مندوحة لأحد في أن يخالف فيه.

وأما الخلاف في الفروع، فهو عند أهل العلم أسهل، ولهذا لم يبدعوا أحدًا من المخالفين في المسائل الفرعية التي لم يجمع عليها، فالإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرج حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا**»[1] ومع ذلك يقول: لا خيار إذا تفرقا بالقول بأن قال البائع: بعت، والمشتري: قبلت[2]. فقد بلغه الخبر، بل رواه، فهل يبدع مالك؛ لأنه ما أثبت خيار المجلس بهذا الخبر؟! كلا فإنه تأول الخبر، ولم يرده حتى يرد ما سلف، لم يقل: نعم الحديث صريح في خيار المجلس ولا أرى خيار المجلس، فهذه -وحاشا مالكًا- مصادمة لأحاديث النبي ﷺ.

وشنع ابن أبي ذئب على مالك بسبب هذا، وقال: ينبغي أن يستتاب مالك، فإن تاب وإلا ضربت عنقه[3]؛ لأن تأويله للخبر ضعيف، وهذه من ابن أبي ذئب خشونة غير محمودة؛ فمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ متأول، وله أدلة أخرى يقوي بها قوله، ويرى أن معنى الحديث معارض بأدلة أخرى، وهو إمام من أئمة المسلمين، نجم السنن وإمام دار الهجرة، ومع الأسف وجد من يناقش الأئمة في مثل هذه المسائل، ولا يحفظ حرمتهم، فيأتي بالألفاظ البشعة فيهم، كأن يقول: وبهذا قال مالك فأين الدليل؟ وأحيانًا يقول: هذا قول من لا يؤمن بيوم الحساب، أو يقول: هذا قول فلان، وهو لا يساوي كذا وكذا.

---

(١) أخرجه مالك (١٣٤٩)، والبخاري (٢١٠٧)، ومسلم (١٥٣١). وكذا البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢)، عن حكيم بن حزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (١٤/٨-٢١).

(٣) ينظر: طبقات الحنابلة (٢/٥٥).

والخلاف له أدب، والقول لا يمكن أن يقبل بهذه الطريقة مهما كانت قوته؛ لأن النفوس لها حُرُم ينبغي مراعاتها، والرفق ما دخل في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

وينبغي للطالب أن يتأدب بأدب أهل العلم، وهو يناقش إمامًا كبيرًا سواء كان من الموجودين أم من المتقدمين، فعليه بالرفق، إن كان يرى عالمًا أخطأ، ويناقشه بأدب، فإن كان المناقش ندًّا له فلا مانع من أن تُبسَط المسألةُ بأدلتها، ويلزم المخطئَ بقبولها إذا لم يجب عنها، لكن إذا كان طالبًا، والمخطئ شيخًا فليتخير الأسلوب الذي به يدخل إلى قلب الشيخ ليصغي له، فيعرض ما عنده بالأسلوب المناسب، بعد أن يقدم بمقدمة يبين فيها أنه استفاد منه، وأنه من أهل العلم والفضل على الأمة، ولكن هذه المسألة لو قيل فيها كذا؟ أو هل يثبت عنكم كذا؟ أو ما حجتكم في كذا؟ بالأسلوب المناسب اللطيف من أجل أن يقبل؛ لأنه يخاطب عالمًا، لا إنسانًا عاديًّا، ولا شك أن النفوس لها حرم، وينبغي مراعاة هذه الحرم، وبالمقابل العالم والشيخ مخاطب أيضًا بأدب آخر، وهو الرجوع والانصياع للحق، وعدم التباطؤ والتعنت في قبول الحق من أي أحد كائنًا من كان.

وأما المسائل الفرعية التي حصل فيها الإجماع الصحيح، كالأمور المعلومة بالضرورة من دين الإسلام، فهذه لا يسوغ الخلاف فيها أيضًا، فلو قال قائل بتحريم الخبز مثلًا، ولا شبهة له، وقد ثبتت النصوص القطعية بإباحته، أو أباح الزنا أو شرب الخمر وهو ممن لا يخفى عليه مثل هذا فإنه يحكم بكفره عند أهل العلم، وإن كانت تلك المسائل مصنفة ضمن المسائل الفرعية.

والخلاف السائغ كما سلف في الفروع الاجتهادية التي قد تخفى أدلتها، فهذه المسائل الخلاف فيها واقع في الأمة قديمًا وحديثًا، ولا تثريب على من خالف، بل يعذر المخالف حينئذ؛ لخفاء الأدلة، أو لتعارضها أو للاختلاف في ثبوتها عند المخالف كما سيأتي تفصيله، لكن من ترجح عنده قول بدليله فلا يسوغ له مخالفته، بل عليه أن يعمل بما ترجح عنده وما يدين الله به، معتمدًا على الدليل الذي هو عمدة المسألة.

يقول شيخ الإسلام: «لا شك أن ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله جَلَّ وَعَلَا نصب على الحق فيه دليلًا»[1]، لكن هذا الدليل المنصوب، لمعرفة الراجح من المرجوح قد يدركه بعض أهل العلم دون بعض، من أجل تعظيم الأجور المرتبة على الاجتهاد، وإلا فلو كانت أدلة المسائل كلها قطعية لا تحتمل الخلاف ما صار للاجتهاد الذي رتبت عليه الأجور ورفعت بسببه درجاتُ أهلِ العلم مجالٌ.

وأسباب الخلاف كثيرة، بيَّن أصولَ أكثرِها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) وهي مطبوعة مرات ومتداولة بين الناس، وهي جديرة وحرية بالعناية والاهتمام.

وهناك كتب أخرى في الباب منها: (الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم) لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي الأندلسي المتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وأيضًا: (الإنصاف في بيان أسباب الخلاف) للدهلوي[2]، وهناك مشاركات للمعاصرين أيضًا جمعوا فيها من أقوال المتقدمين ما ينفع في هذا الباب.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٥).

(٢) وكلاهما مطبوعان، ولابن العربي كذلك (الإنصاف في مسائل الخلاف) مطبوع.

ويمكن تلخيص الأسباب التي جعلت أهلَ العلم يختلفون في كثير من المسائل فيما يلي:

١- عدم بلوغ الدليل، فيكون في المسألة دليل ثابت عن النبي ﷺ بلغ أحمد ولم يبلغ أبا حنيفة، فعمل به أحمد ولم يعمل به أبو حنيفة، أو العكس، وأبو موسى لما استأذن على عمر ثلاثًا ثم انصرف وخرج إليه عمر فدعاه، فقال: ما لك انصرفت؟ أورد له أبو موسى حديث الاستئذان ثلاثًا[1]، فهذا الحديث خفي على عمر، وعمر- بلا ريب- أعلم من أبي موسى، وألصق بالنبي ﷺ، فالكبير قد يخفى عليه ما يدركه الصغير، وأهل العلم إنما يكلفون بما بلغهم.

٢- عدم بلوغ الناسخ وما شابهه، كأن يبلغه الخبر فيعمل به، ويكون للخبر ناسخ لم يبلغه، أو يكون لعمومه مخصص أو مقيِّد لم يبلغه.

٣- الاختلاف في فهم الدليل، فقد يبلغه الخبر، لكن يفهم منه غير ما فهمه العالم الآخر، فمثلًا حديث: «**عرفة كلها موقف، وارفعوا عن بطن عرنة**»[2] الجمهور على أن بطن عرنة ليس من عرفة، والوقوف فيه غير مجزئ، وعند بعض المالكية أنها من عرفة والوقوف فيها مجزئ[3]، وكلهم يستدلون بهذا الحديث، فالذين يقولون: إنه ليس من عرفة، والوقوف لا يجزئ فيه قالوا: إن الأمر بالرفع

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٢١٨) دون قوله: «وارفعوا». وأخرجه بتمامه ابن ماجه (٣٠١٢) وفيه متروك، وأخرجه مالك في الموطأ (٨٦٩) بلاغًا، وله شاهد عن جبير بن مطعم عند أحمد (١٦٧٥١) وابن حبان (٣٨٥٤) وآخر عن ابن عباس عند ابن خزيمة (٢٨١٦)، والحاكم (١/ ٦٣٣) وصححه.

(٣) ينظر: الكافي في فقه أهل المدينة (١/ ٣٧٢)، الاستذكار (٤/ ٢٧٥)، مواهب الجليل (٣/ ٩٧).

مقتضاه النهي عن الوقوف فيه؛ لأن عرفة كلها موقف، ولو كان من عرفة لكان جزءًا منها، ولو كان منها لما أمرنا بالرفع عنه. ومن خالفهم من المالكية يقولون: لو لم تكن من عرفة، لما كان هناك داعٍ للاستثناء أصلًا، ولذا لم يقل: وارفعوا عن منى؛ لأنها ليست من عرفة.

فهذا سببه الاختلاف في فهم الدليل، ولكن ينبغي التنبيه على أن يكون الفهم مقيدًا بفهم الصحابة، وأهل العلم الذين لهم خبرة ودربة ومعرفة ومعاناة للنصوص، فلا يأتي شخص غريب عن العلم وأهله لا يحفظ شيئًا من النصوص، ولم يتعامل مع النصوص لا من قريب ولا من بعيد، وليس له فيها قبيل ولا دبير، ثم يقول: ما المانع أن أفهم منها مثلما فهم الأئمة؟! فهل يعتد بفهم من يقول: يجوز دفع الزكاة لمن يملك الملايين، لكنه بخيل على نفسه، ولذلك هو محروم، والله تعالى أحل دفع الصدقة للمحروم: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]؟ كلا! فهذا القائل يتعلم أولًا، ففهم سلف هذه الأمة عليه المعول، ومن جاء بفهم لم يفهمه من تقدم، فهو مخالف وسالك غير سبيل المؤمنين.

٤- المنازعة في ثبوت الدليل وصحته، فقد يبلغ الخبر جميع الأئمة، ويشتهر في الأوساط العلمية، لكن منهم من يضعفه، فلا يعمل بمقتضاه، ومنهم من يصححه فيعمل به، فيقع الخلاف.

٥- معارضة الدليل بما هو أقوى عند الإمام -مع التسليم بصحته-، فيعارضه بأدلة أخرى كما مر في فهم الإمام مالك لحديث: «**البيعان بالخيار**»، وكما عارض الشافعية استدلال الحنابلة على تفطير الحجامة بحديث شداد بن أوس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أفطر الحاجم والمحجوم**»[(١)] بأن النبي ﷺ «**احتجم وهو صائم**»[(٢)]، ورأوا أن هذا متأخر؛ لأنه في حجة الوداع،[(٣)] وذاك عام الفتح، ومثله قول النبي ﷺ: «**الماء من الماء**»[(٤)] فظاهره أن لا غسل إلا بالإنزال، وكان هذا في أول الأمر، لكن عارضه حديث: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل**»[(٥)]، أي: ولو لم ينـزل، فهذا ناسخ لذاك، ومن لم يبلغه الناسخ عمل بالخبر الأول، فوقع بسبب ذلك الخلاف. فالمقصود أن مثل هذه الأمور فيها معاذير لأهل العلم في خلافهم.

ومثله اختلاف العلماء المبني على الخلاف بينهم في وجود التخصيص وعدمه، فمثلًا قوله ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[(٦)] فيُتيمَّم على ضوء هذا الخبر بجميع ما على وجه الأرض، ويخالفه من يستدل بحديث: «**وجعلت تربتها لنا طهورًا**»[(٧)] على أنه لا يتيمم إلا بالتراب؛ وفي هذا تتباين الأنظار، هل هذا تخصيص أو تقييد؟ فإذا قلنا: إنه تخصيص؛ لأن التربة جزء وفرد من أفراد

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٦٩)، والنسائي في الكبرى (٣١٣٨، ٣١٣٩)، وابن ماجه (١٦٨١)، وأحمد (١٧١١٢)، وله شواهد عن أبي هريرة، وثوبان، ورافع بن خديج وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ينظر: التلخيص الحبير(٢/ ٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٨)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: فتح العزيز بشرح الوجيز للرافعي (٦/ ٣٧٣)، رد هذا ابن حجر في التلخيص الحبير(٢/ ٤١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٤٣) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (١٨٠) عنه بمعناه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٩١)، ومسلم (٣٤٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٢) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأرض، قلنا: إن ورود الخاص بحكم موافق لحكم العام لا يقتضي التخصيص، وإنما يذكر الخاص للعناية بشأنه والاهتمام به، ولكن إذا قلنا: إنه تقييد، والتربة وصف من أوصاف الأرض، قلنا: يحمل المطلق على المقيد، وهذا هو منشأ الخلاف، والمسألة في غاية الدقة.

ومثله اختلافهم بسبب اعتقاد الخصوصية، فقد يستدل مستدل بعموم قول النبي ﷺ لأمته، فيأتي الآخر فيقول: هذا لا يتناوله الأمر، ويجعل الفعل المخالف للقول في الظاهر خاصًّا بالنبي ﷺ، ومن الأمثلة لهذا ما جاء في الحديث: «**غط فخذك، فإن الفخذ عورة**»[(١)] فقد جاء عن أنس رضي الله عنه: «حسر النبي ﷺ الإزار عن فخذه»[(٢)]، فالأول قال: كشف الفخذ خاص بالنبي ﷺ، بدليل أنه أمر بالتغطية، وفعل ما يخالف هذا الأمر، وهذا دليل الخصوصية.

وإذا نظرنا إلى المسألة باعتبار أن تغطية الفخذ كمال لا نقص، فهل يقال: النبي ﷺ يتسامح في فعل النقص، بينما يطلب من الأمة الكمال؟! لا يمكن أن يقال هذا، إذًا هذا المسلك ضعيف.

وبالجملة فالاختلاف بين أهل العلم أسبابه كثيرة تؤول إلى ثلاثة أمور:

- ما يرجع إلى بلوغ النصوص إليهم أو عدمه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٢٧)، ومن طريقه الترمذي (٢٧٩٨) وحسنه، وأحمد (١٥٩٢٦) عن جرهد رضي الله عنه. وأخرجه أحمد أيضًا (٢٤٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم (٦٦٨٤) عن عبد الله بن جحش رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥)، وعنده: «وانحسر»، وقال البخاري (١/٨٣): «وحديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط حتى يخرج من اختلافهم».

- ما يرجع إلى الخلاف في ثبوتها.
- ما يرجع إلى الخلاف في فهمها وما يعارضها وما يوافقها أو الإجمال في الألفاظ.

٦- الاختلاف في التقعيد، وهذا من الأسباب التي ينشأ عنها الخلاف بين أهل العلم، فكل واحد من أهل العلم له قواعد أخذوها من النصوص الشرعية يسير عليها. وهذه القواعد قد يختلفون فيها، وبسبب اختلافهم في هذه القواعد اختلفوا في بعض الفروع المندرجة تحتها، فمثلًا يتفقون على أن القرآن أصل، وأن السنة أصل، والإجماع أصل، وأما القياس فهو عند الجمهور أصل كذلك، لكن من لا يرى القياس مثلًا، ينازع في جميع المسائل المثبتة بالأقيسة، ومنهم من يرى قول الصحابي أصلًا، وغيره لا يراه أصلًا، فيستدل من يراه أصلًا بقول صحابي، ويخالفه الآخر بمعارضته بأن قول الصحابي لا يحتج به، ومنهم من يرى الاستحسان، ومنهم من يرى الاستصحاب، ومنهم من يرى العمل بالضعيف، ومنهم من لا يرى العمل بالضعيف، منهم من ينازع في الاحتجاج بالحديث الحسن في الأحكام، وبناءً على هذه القواعد يكون الخلاف.

♦ الإنكار والمراعاة في مسائل الاختلاف:

يطلق بعض العلماء القول بأن مسائل الخلاف لا ينكر فيها، أو بالتعبير المشهور: (لا إنكار في مسائل الخلاف)، وإنما الإنكار في المسائل المتفق عليها، لكن ما المراد بالخلاف الذي لا ينكر؟

المراد به الخلاف المعتبر المعتمد على نص، أو استدلالٍ قوي، أما خلاف بعيد المأخذ، ضعيف الحجة، فينكر على صاحبه؛ لأنه شاذ، فمثلًا الحنفية يقولون: المحلل مأجور[(١)]، لأنه فاعل خير، والمحلل هو الذي ينكح زوجة المطلق ثلاثًا ويطلقها لتحل لزوجها الأول، فهل ينكر على هذا المحلل المأجور عند الأحناف أو لا؟ ينكر؛ لأن هذا القول مخالف لنص صريح، فهو قول شاذ.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقولهم: مسائل الخلاف لا إنكار فيها، ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم، أو العمل، أما الأول فإن كان القول يخالف سنة أو إجماعًا قديمًا، وجب إنكاره وفاقًا، وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول: المصيب واحد، وهم عامة السلف والفقهاء.

وأما العمل فإن كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضًا بحسب درجات الإنكار، كما ذكرنا من حديث شارب النبيذ المختلف فيه، وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف سنة، وإن كان قد اتبع بعض العلماء. وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ، فلا ينكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا، وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف من الناس.

---

(١) ينظر: المبسوط (٣٠/٤٠٦)، شرح فتح القدير (٤/١٨١). إنما يجعلونه مأجورًا، إذا تزوجها بهذه النية دون أن يأمره أحدهما بذلك، أو أن يخبرهما أو أحدهما بنيته، فإذا فعل فمكروه. واختلفوا هل الكراهة تصل التحريم أو لا؟

والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيه دليل يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا، مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك الاجتهاد؛ لتعارض الأدلة المقاربة أو لخفاء الأدلة فيها»[(١)].

وكذلك ينكر على المخالف في المسألة التي يرجح الحاكم أحد طرفيها، كأن يقع في مسألة خلاف ثم يفتى بعض العلماء بأحد الأقوال ويتبناه الحاكم، فيرتفع الخلاف، هكذا يقرر بعض أهل العلم: أن حكم الحاكم يرفع الخلاف[(٢)] وشيخ الإسلام يقيدها بما يعرفه الحاكم، ويكون له نظر في المسألة، أما الحاكم الذي ليس له نظر، ولا معرفة في هذه المسألة فلا[(٣)].

فلو افترضنا أن المسألة مختلف فيها، أو فيها شبهة، ثم جيء بها إلى قاضٍ عارف أهل للقضاء، فحكم بأحد القولين، فنقول: هذا رفع الخلاف، فنثبت الطلاق أو ننفيه تبعًا لما حكم به، لكن في مسألة القرء مثلًا، وهل يراد به الحيض أم الطهر؟ إذا أُتِي حاكمٌ لا علم له ولا دراية فحكم بأن القرء الطهر، فهل يرفع بحكمه الخلاف؟ لا، فالحاكم الذي يرفع قوله الخلاف هو الذي له نظر ودراية فيه، إذا عمل الناس في بلد ما على قول معتبر له دليله، ومشوا عليه، ثم جاء من يريد أن يرفع هذا القول ويوجد فيهم شقاقًا ونزاعًا، وإن كان قوله معتبرًا من جهة الدليل والنظر، ومعمولًا به في جهات أخرى، فمثل هذا ينكر عليه، لا سيما إذا

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/٢٠٦).

(٢) ينظر: الفروق للقرافي (٢/١٧٩)، المنثور للزركشي (٢/٦٩)، الأشباه والنظائر للسيوطي (ص: ٤٩٧). قال في المنثور: «قالوا: حكم الحاكم في المسائل المختلف فيها يرفع الخلاف، وهذا مقيد بما لا ينقض فيه حكم الحاكم، أما ما ينقض فيه فلا، ومدار نقض الحكم على تبين الخطأ».

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/٢٣٨)، والفتاوى الكبرى (٤/٢٥٥).

كان العمل الجاري في البلد فيه احتياط، فمثلًا: تغطية الوجه هو المعمول به في هذه البلاد، وفي جميع أقطار المسلمين قبل أن يتسلط الاستعمار على المسلمين، فإذا نازع منازع في وجوب ستره ينكر عليه؛ لما يؤول إليه هذا القول من الشرور وفتح باب التبرج والسفور كما هو مشاهد.

♦ الخروج من الخلاف:

بعض العلماء يرى استحباب الخروج من الخلاف، فإذا قال عالم: هذا الأمر محرم، وقال آخر: جائز، يقول: اترك هذا العمل خروجًا من الخلاف، وكثيرًا ما يعللون: بأن حكم هذه المسألة كذا؛ خروجًا من الخلاف، فهل الخروج من الخلاف دليل من الأدلة؟

نقول: لا، لكن قد يترك العالم العمل بمقتضى ما ترجح له؛ لأن دليل المخالف قد يكون راجحًا، وهذا مقبول لا سيما إذا كان العمل بمقتضى الخروج من الخلاف لا يعارض دليلًا صحيحًا صريحًا، فالتحري والاحتياط -والحال هذه- مقبول، وكما في الرضاع المشكوك في بلوغه النصاب، بأن لو قالت امرأة: أنا أرضعت فلانة، لكن لا أدري مرتين أو ثلاثًا أو خمسًا؟ فلا يتزوجها من له صلة بهذه المرأة، ومع ذلك لا تكشف له مراعاة لطرفي المسألة.

ولكن بعض المسائل لا يمكن الاحتياط فيها، وذلك إذا أدى الاحتياط إلى ترك مأمور أو فعل محظور فشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «والاحتياط أحسن ما لم يفضِ بصاحبه إلى مخالفة السنة، فإذا أفضى إلى ذلك فالاحتياط ترك هذا الاحتياط»[1].

(١) ينظر: المستدرك على الفتاوى (٥/ ٤١).

وهناك مسائل متعلقة بموقف القاضي والمفتي من مسائل الخلاف، فالقاضي لو حضر عنده خصوم يتبعون مذهب إمام معين وهو يخالفه في مسألة الخصومة، كزوج وزوجة على مذهب أبي حنيفة تزوجوا من غير ولي وأنت عاقد، أتوك لتثبت هذا الزواج، وأنت ترى أن الولي شرط، فلا بد أن تلزمهم بالولي؛ لأنهم يتبعون لإمام معتبر تبرأ الذمة بتقليده، لكن أنت أيضًا تدين الله جَلَّ وَعَلَا بما ترجح عندك في مثل هذا، فلا تصحح هذا العقد عندك إلا بولي، ولهذا يشترط الحنابلة والشافعية والمالكية في القاضي أن يكون مجتهدًا؛ لئلا يضطرب ويتذبذب في مثل هذه المسائل والقضايا، وعند بعض الحنفية يجوز أن يكون هو عاميًّا مقلدًا[١].

ومثل هذا الصلاة خلف المخالف في أحكام الصلاة كالصلاة خلف من لا يوجب الطمأنينة، وأنت ترى أن الطمأنينة ركن من أركان الصلاة، فلا يجوز أن تصلي وراءه؛ لأنه أخل بما يبطل الصلاة في نظرك، وليس له دليل معتبر، بل الدليل يخالفه، لكن لو ارتكب هذا الإمام مبطلًا من مبطلات الصلاة في نظرك، وله دليل سائغ، كشخص لا يرى الوضوء من لحم الإبل، فصلى بالناس، فإنك تصلي وراءه ولو كنت ترى أن لحم الإبل ينقض الوضوء؛ لأن دليله سائغ.

فأما الجهر بالبسملة أو القنوت في الصبح، فتصلي وراء من يراهما، ولذا جاء في رسالة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، قال: «فنأمر الحنفي، والمالكي مثلًا، بالمحافظة على نحو الطمأنينة في الاعتدال، والجلوس بين السجدتين؛ لوضوح دليل ذلك، بخلاف جهر الإمام الشافعي بالبسملة، فلا

(١) ينظر: المغني (١١/ ٣٨١).

نأمره بالإسرار، وشتان ما بين المسألتين»[(١)].

وقد سئل الإمام أحمد عمن رأى الإمام قد احتجم ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ؟ أتصلي خلفه؟

فقال: كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب[(٢)]. يعني: أنهم أئمة لهم أدلتهم.

فمراعاة الإمام لمن خلفه من المصلين مهمة، إذا كانوا يخالفونه في أحكام الصلاة؛ لأن بعض أهل العلم يقررون أن صلاة المأموم تبطل ببطلان صلاة إمامه، فتبعًا لهذا هل يراعي الإمام من خلفه أو لا يراعيهم كما في البسملة جهرًا وسرًّا؟ وتقدم أن المأموم يصلي خلف الإمام وإن كان مخالفًا له في بعض المسائل دون بعض، وهذه المسألة سهلة، والخلاف فيها سائغ، ولو راعاهم لكان حسنًا، إلى أن يبين لهم الحق الذي يراه، والخلاف شر كما تقدم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن إذا كان يراه يخل بالصلاة فلا يراعيهم، ولذا نقرر أن قاعدة الخلاف شر المأثورة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليست على إطلاقها، فتقبل في بعض المسائل دون بعض.

ومسألة الخلاف وفروعه كبيرة، وتحتاج إلى بسط وتوسع، لا سيما وأن الخلاف الآن على أشده ويفتي من خلال وسائل الإعلام من ليس بأهل للفتوى، ويطلع عوام المسلمين على الأقوال المخالفة، وعلى الشبه التي تقع في قلوبهم، وهم

---

(١) ينظر: الدرر السنية (١/ ٢٢٧).

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٣١٨).

في قعر بيوتهم، فيحصل عندهم شيء من الاضطراب، وكثير منهم نسب هذا الخلاف إلى اختلاف الدين، فيرون أنه عرضة لأن يغير، وأن يبدل، وهم لا يعرفون من أسباب الخلاف التي يعذر بها أهل العلم شيئًا، فما دام العوام أطلعوا على الخلاف فمن حقهم أن يطلعوا على أسباب الخلاف بأسلوب يناسب عقولهم وإدراكهم.

وينبغي أن يكون الموقف ممن يفتي بغير علم أو بهوى أو بعرف من ديدنه التساهل، أن يؤخذ على يده؛ لأن فساد الأديان أعظم من فساد الأبدان، ولو علم الناس متطببًا غشاشًا لصيح به من كل صوب، وما ترك في مكانه لحظة واحدة، فكيف بمن يفسد الأديان؟!

والقنوات وغيرها من وسائل الإعلام مكنت بعض الجهلة والمغرضين من القول على الله بغير علم، وهذه كارثة، فليحذر أولئك الذين يفتون الناس بغير علم -من المفتونين- مما جاء في الفتوى والتقول على الله بغير علم، ولو لم يكن في ذلك إلا ما جاء في سورة الزمر: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠]، فهل يمكن أن يقول الذي يفتي بغير علم: أنا ما كذبت على الله؟! ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل: ١١٦]، بل يدخل في هذه المسألة دخولًا أوليًّا.

وقد أخبر النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبضه بقبض العلماء**»[1] ونحن نرى تطاوُلَ بعضٍ من لا علم

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

عنده، أو من لم يتمكن ولم ترسخ قدمه في العلم، أو يفتي بهوى، خاصة بعد قبض بعض العلماء، فكيف لو قبض أهل العلم جلهم أو كلهم، ولم يبق إلا أمثال هؤلاء الذين يفتون بالهوى؟! نسأل الله السلامة والعافية.

ومنهم من يسلك مسلك التساهل، محتجًّا على أن الدين يسر بقوله ﷺ: «**ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما**»[(٢)]، فيقال: إنه ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، في وقت التنزيل، فينزل الوحي بالتأييد لما اختاره، واختيار النبي ﷺ شرع، لكن هل يختار أيسر القولين مما ليس بمشرع؟ لا، فإن هذا -كما تقدم- مِن تتبع للرخص، ومثل هذا يخرج من الدين بالكلية ولا يشعر، فيجب أن يمنع أمثال هؤلاء من الفتوى، والتقول على الله بغير علم، والله المستعان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد،
وعلى آله الأطهار وصحبه الكرام إلى يوم الدين.

---

(١) أخرجه البخاري(٣٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري(٣٥٦٠) ومسلم(٢٣٢٧)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

تقديم فضيلة الشيخ عبد الكريم الخضير ٥
كلمة مؤسَّسة معالم السنن ٧
نعمة التوحيد ١١
آثار التوحيد على العبد في الدارين ٢١
حرية الموحِّد ورقُّ المشرك ٢٩
الإيمان بالملائكة ٣٥
حكم الإيمان بوجود الملائكة ٣٧
أصل كلمة الملائكة ٣٩
صفة الملائكة ٤٤
أعمال الملائكة ٤٨
عـدد الملائكة ٥٨
واجب المسلم تجاه الملائكة ٥٩
مكانة النبي ٦١
الإيمان بالنبي محمد ومتابعتُه ٦٣
عموم رسالته ٦٥
نداء الله سبحانه لمحمد بوصف النبوة والرسالة ٦٦
اقتران ذِكر النبي بذِكر الله تعالى ٦٧
من مظاهر تكريمه وتعظيمه ٧٠

علامة محبة الرسول ٨٠
الغلو في الرسول ٨١
كيف تهنأ بشربة من حوض النبي؟ ٨٧
الحوض من الأمور الغيبية التي لا بد من الإيمان بها ٩١
الإشارة إلى الحوض في القرآن الكريم ٩١
تفسير سورة الكوثر ٩٢
الشك في وجود الحوض سبب للمنع من الشرب منه ٩٦
هل الحوض قبل الميزان والصراط أو بعدهما؟ ٩٨
هل الحوض من خواصه أم أن لكل نبي حوضا؟ ١٠١
بعض ما جاء في وصف الحوض ١٠٢
أول من يرد على الحوض ١٠٦
الإحداث في الدين أعظم سبب مانع من ورود الحوض والشرب منه ١٠٧
البدعة وحكمها ١١١
قد أفلح من زكاها ١١٩
كن في الدنيا كأنك غريب ١٤١
أثر الفتن على الامة ١٦٩
منهج السلف في الإفتاء ١٨٩
ولا تنازعوا فتفشلوا ٢٢١
الإنكار والمراعاة في مسائل الاختلاف ٢٤٢
الخروج من الخلاف ٢٤٥
فهرس الموضوعات ٢٥١